صعود روسيا

السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

تحرير

ديميتار بيتشيف

نيكو بوبيسكو

ستانيسلاف سيكرييرو

ترجمة

مركز الرافدين للحوار RCD



صعود روسيا

السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

صعود روسيا
السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

تحرير

ديميتار بيتشيف

نيكو بوبيسكو

ستانيسلاف سيكرييرو

ترجمة: مركز الرافدين للحوار RCD

الطبعة الاولى، بيروت/النجف الاشرف، 2023

First Edition, Beirut/Najaf, 2023



ISBN: 978 - 1 - 77472 - 199 - 5

يوليو/تموز 2023

صعود روسيا

السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

تحرير

ديميتار بيتشيف

نيكو بوبيسكو

ستانيسلاف سيكرييرو

ترجمة

مركز الرافدين للحوار RCD



الفهرس

القسم الثالث
الشراكات الإقليمية

مقدمة المركز

يحرص مركز الرافدين للحوار (R.C.D.) على رصد أبرز التطورات السياسية على الصعيدين الإقليمي والدولي، وتشجيع الباحثين على الكتابة عنها ومعالجتها وتحليلها، وعرض توقعاتهم بشأنها، وتفسير انعكاساتها على السياسات الطارئة، والسعي إلى قراءة أفضل للواقع الحالي بهدف استخلاص الدروس للمستقبل. لا سيما ان المنطقة والعالم يشهدا في العقدين المنصرمين أزماتً حادة وعودة قوى عظمى من جديد على مسرح الاحداث مثل روسيا الاتحادية، التي استدعى حضورها السياسي والاقتصادي والعسكري الفاعل ضرورة إعادة رسم خارطة التحالفات والتوازنات العالمية.

لقد أفادنا الكتاب في اقتفائه الدقيق للسياسة الروسية منذ الحقبة السوفيتية، وتحركاتها المحسوبة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، والكشف (في خمسة عشر فصلاً وضعها الباحث في كتابه) عن أهم المسارات المتبعة والأبعاد الحديثة التي انتجت مكاسب متتالية في علاقاتها مع الكثير من الدول المقرّبة لها كإيران وسوريا والجزائر، وحتى مع دول معروفة الميول نحو الغرب كدول مجلس التعاون الخليجي ومصر وتركيا وعدد من دول المغرب العربي وغيرها. وأوضح الكاتب إن ذلك أنذر بتهديد الهيمنة الاميركية في المنطقة، ودفعها للاستجابة لهذه القوة الصاعدة بإتباع استراتيجيات موازنة التحدّي تجاهها.

وناقش المؤلف الدروس المستقاة من طريقة تعامل روسيا مع (داعش) وكيفية صناعة رواية تمجّد جهودها وترمي بالمسؤولية الكاملة على الدعم الغربي المزعوم للتنظيمات الإرهابية، وتحويل كل ذلك لتعزيز حجّتها وبناء أكبر حالة معادية للغرب في المنطقة وللتقليل من تعقيدات حربها في سورية. كما ربط دورها المتعاظم في الشرق الأوسط بعلاقتها مع «محور المقاومة» الذي تقوده طهران، والذي يمتد من لبنان إلى إيران، فقد وجد الطرفان إن مصلحتهما تقتضي التنسيق والاشتراك في صنع القرارات، فبينما تحقق روسيا طموحاتها في الظهور كقوة عظمى والتصدي للنظام العام العالمي يركّز الآخرون على ضمان أمنهم الإقليمي.

ولم يغفل الكاتب عن التطرق بتقرير مفصّل وواقعي إلى الروابط الروسية مع الكيان الإسرائيلي، فعلى الرغم من الخلافات الجادة بينهما حول قضايا معينة (وخاصة إيران) فإنه أثبت أن البلدين أبديا الاستعداد لمواصلة التعاون الثنائي على نطاق واسع في المجالات الاقتصادية والعسكرية والاستخباراتية والمجتمعية والسياحية، مما منحهما مرونة أكثر للتعامل مع سرعة التحولات في مسارات وسلوكيات الدول المجاورة، ومناورة أسرع تجاه المستجدات وتوازن المصالح.

ويمكن القول إن مطالعة كتاب قيّم كهذا تضيف معلومات متنوعة وغزيرة للقارئ عن كيفية ترسيخ روسيا نفسها بقوة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وتوسيع بصمتها في السياسة والدبلوماسية والشؤون العسكرية والاقتصادية برغم العقبات والقيود، من خلال تحقيقها المكاسب في مجالات النفط والغاز وأسواق الأسلحة، مما سمح لها بجني الأرباح من اللاعبين المحليين واحتمالية توسع أفضليتها في المرحلة القادمة.

المشاركون

جوليان بارنز- ديسي: هو مدير برنامج الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية. يركّز عمله على السياسة الأوروبية تجاه سورية والمشرق الأوسع. عمل باحثاً وصحفياً في جميع أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك سورية من عام 2007 إلى عام 2011، حيث كان يعمل مراسلاً لـ(وول ستريت جورنال) Wall Street Journal و(كريستيان ساينس مونيتور) Christian Science Monitor.

ديميتار بيتشيف: زميل أقدم غير مقيم في المجلس الأطلسي بواشنطنDC، بالإضافة إلى زميل في برنامج المستقبل الأوروبي في معهد العلوم الإنسانية (IWM)، فيينا. وهو مؤلف كتاب *Rival Power: Russia in Southeast Europe* (*القوة المنافسة: روسيا في جنوب شرق أوروبا*) (2017). وقد شغل مناصب في جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل، وجامعة أكسفورد، والمجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية (ECFR) وله نشر على نطاق واسع في تركيا، وروسيا، والبلقان، وشرق البحر الأبيض المتوسط.

تيموفي بوريسوف: كان زميلاً باحثاً في مركز تحليل الاستراتيجيات والتقنيات (CAST) في موسكو منذ عام 2016. وقد عمل سابقاً محللاً في البحث التسويقي في صناعة الدفاع الروسي. وهو حاصل على درجة الماجستير في العلاقات الدولية من المدرسة العليا للاقتصاد في موسكو. ومساهم منتظم في إكسبورت فوروزيني (صادرات الأسلحة)، وموجز دفاع موسكو.

ديميتري فرولوفسكي: محلل سياسي، ومستشار، ومساهم في مركز كارنيجي في موسكو، ومعهد الشرق الأوسط، والعديد من مراكز الفكر الأخرى. ويعمل حالياً مستشاراً خاصاً بشأن السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط مع وحدات رسمية وخاصة. كما كتب بإسهاب عن السياسة الخارجية لروسيا تجاه دول مجلس التعاون الخليجي.

فلورنس جوب: هي نائبة مدير معهد الاتحاد الأوروبي للدراسات الأمنية (EUISS)،

حيث تتولى مسؤولية تنسيق البحث. بالإضافة إلى عملها في الشرق الأوسط فهي تركز على الاستشراف والدراسات المستقبلية. وهي تحمل درجات علمية من جامعة ميونخ، والسوربون، ومعهد الدراسات السياسية في باريس (ساينس بو) ودكتوراه من جامعة هومبولت في برلين. وقد عملت سابقاً في كلية الدفاع التابعة لحلف الناتو (حلف شمال الأطلسي). أحدث كتاب لها شاركت في تأليفه هو *TheCauldron: NATO's Campaign in Libya* *المرجل: حملة الناتو في ليبيا (2018)*.

داليا غانم: باحثة مقيمة في مركز كارنيجي للشرق الأوسط في بيروت، حيث يختصّ عملها بالعنف السياسي، والمتطرف، والتطرف، والإسلامية، والجهادية مع التركيز على الجزائر. لقد كانت ضيفة متحدثة في هذه القضايا في مؤتمرات مختلفة، ومعلقة منتظمة في مختلف وسائل الإعلام المطبوعة، والمسموعة، والمرئية العربية، والدولية.

مارك ن. كاتز: أستاذ الحكومة والسياسة في جامعة جورج ميسون في فيرفاكس، فيرجينيا. كان عالماً في برنامج فولبرايت في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية SOAS)) في لندن خلال الفترة من كانون الثاني/يناير إلى آذار/مارس 2018، وزميل السير ويليام لوس في جامعة دورهام خلال الفترة من نيسان/أبريل إلى حزيران/يونيو 2018.

أليكسي خليبنيكوف: خبير في مجلس الشؤون الدولية للشرق الأوسط وروسيا، ومستشار المخاطر الاستراتيجية. حصل على درجة الماجستير في السياسة العالمية العامة من مدرسة هبرت هـ. همفري للشؤون العامة في جامعة مينيسوتا، وكلاً من درجتي البكالوريوس والماجستير في دراسات الشرق الأوسط من الجامعة الحكومية لوباتشيفسكي في نيزني نوفغورود. وكان زميلاً باحثاً في مدرسة جونز هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة (SAIS) عام 2013. وله منشورات في مواضيع العلاقات الدولية، ولا سيما حول الشرق الأوسط في المجلات الأكاديمية، والمصادر الإعلامية في روسيا، وأوروبا، والولايات المتحدة، والشرق الأوسط. تركزت اهتماماته البحثية على فشل «الربيع العربي»، والتوترات الإقليمية الحالية (داخل دول مجلس التعاون الخليجي، وداخل السُنّة، وبين السنّة والشيعة)، وسياسات القوى العظمى في المنطقة.

أنطون لافروف: خريج جامعة تفير التقنية الحكومية. وهو محلل دفاعي مستقل مرتبط بمركز لتحليل الاستراتيجيات والتقنيات (CAST) ومقره موسكو. مجالات خبرته الرئيسية هي

الإصلاح العسكري الروسي، وصناعة الدفاع الروسي، والحرب الروسية الجورجية عام 2008، والصراع الروسي الأوكراني، والعملية الروسية الأخيرة في سورية. في عام 2018 كان زميلاً زائراً في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ومقره واشنطن.

كارول نخلة: هي المؤسس والرئيس التنفيذي لشركة كريستول إنيرجي. وهي متخصصة في الترتيبات التعاقدية الدولية للبترول، والأنظمة واللوائح المالية، والتنمية المستدامة لقطاع البترول، بما في ذلك إدارة الإيرادات والحكم، وبناء القدرات، وسياسة الطاقة، والأمن، والاستثمار، وتطورات السوق. عملت الدكتورة نخلة مع شركات النفط والغاز NOCs وIOCs على المستوى التنفيذي، والحكومات وصانعي السياسة، والمنظمات الدولية، والمؤسسات الأكاديمية، ومراكز الفكر المتخصصة على نطاق عالمي. وقد نشرت كتابان مشهوداً لهما على نطاق واسع: *Petroleum Taxation: Sharing the Wealth* (*الضرائب البترولية: تقاسم الثروة*) المنشور عام 2008 والمعاد طبعه عام 2012، وقد أُستخدم كمرجع أساسي في الجامعات الرائدة، والدورات التدريبية في الصناعة، و*Out of the Energy Labyrinth* (*خارج متاهة الطاقة*) عام 2007، وقد شارك في تأليفه اللورد ديفيد هويل.

نيكو بوبيسكو: هو مدير برنامج أوروبا الأوسع في المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية. وشغل منصب وزير الخارجية ومولدوفا للتكامل الأوروبي عام 2019. عمل د. بوبيسكو قبل أن يصبح وزيراً، محللاً خبيراً في معهد الاتحاد الأوروبي للدراسات الأمنية (2013-2018)، ومستشاراً خبيراً للسياسة الخارجية وقضايا الاتحاد الأوروبي لرئيس وزراء مولدوفا (2010، 2012-2013)، ورئيس برنامج وزميل باحث أول في (ESFR) في لندن (2007–2009، 2011–2012)، وزميل باحث في مركز دراسات السياسة الأوروبية في بروكسل (2005-2007). وهو حاصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة أوروبا الوسطى في بودابست، هنغاريا. وهو مؤلف كتاب EU) Foreign Policy and Post-Soviet Conflicts: Stealth Intervention السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي ونزاعات ما بعد الاتحاد السوفيتي: التدخل الخفي) (2010) ومحرر مشارك لكتاب Democratization in EU Foreign Policy (إرساء الديمقراطية في السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي) (بالاشتراك مع بينديتا بيرتي وكريستينا ميكولوفا) وقد نُشر عام 2015.

كارول ر. سايفتز: مستشارة أولى في برنامج الدراسات الأمنية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. بالإضافة إلى ذلك، محاضرة في العلوم السياسية، وكذلك في معهد ماساتشوستس

للتكنولوجيا، وباحثة مشاركة في مركز هارفارد ديفيس للدراسات الروسية والأوربية الآسيوية. وهي حاصلة على درجة الماجستير والدكتوراة من كولومبيا في العلوم السياسية، وشهادة من المعهد الروسي (حالياً معهد هاريمان). وهي مؤلفة ومحررة مشاركة لخمسة كتب. وقد كتبت بشكل واسع عن السياسة السوفيتية وحالياً الروسية في الشرق الأوسط. وقد كتبت الأستاذة سافيتز أيضاً عن السياسة الروسية تجاه الدول الخلف السوفيتية الأخرى. وهي مساهمة في مدونة لوفار وظهرت في برنامج «Great Boston (بوسطن العظيمة)». يركز بحثها الحالي على السياسة الروسية تجاه سورية بما في ذلك علاقات موسكو مع طهران وأنقرة.

ستانيسلاف سيكرييرو: هو محلل كبير في المعهد الأوروبي للدراسات الأمنية Eur EUISS opean Institute for Security Studies، حيث يقوم بتغطية روسيا والجوار الشرقي للاتحاد الأوروبي. تركز اهتماماته البحثية على العلاقات بين الاتحاد الأوروبي وروسيا، والسياسة الخارجية والأمنية لروسيا في منطقة ما بعد الاتحاد السوفيتي. وقبل الانضمام إلى المعهد الأوروبي للدراسات الأمنية، كان الدكتور سيكرييرو زميل باحث كبير في المعهد البولندي للشؤون الدولية)2014-2016)، ومحلل سياسي في معهد المجتمع الحر للسياسة الأوروبية في بروكسل (2016-2017). كما كان سابقاً زميلاً باحثاً في كلية دفاع ناتو في روما (2006)، ومعهد السياسة الأوروبية في برلين (2009-2010)، وكلية الأوروبية الجديدة في بوخارست (2011-2012).

دميتري ترينين: كان مديراً لمركز كارنيجي في موسكو منذ عام 2008. وانضم إلى المركز عام 1994 بعد أن خدم في الجيش السوفيتي/الروسي من عام 1972 إلى عام 1993. وهو مؤلف للعديد من الكتب حول العلاقات الخارجية لروسيا، بما في ذلك *What Is Russia up to in the Middle East? ما الذي وصلت إليه روسيا في الشرق الأوسط؟* عام *(2018)*.

الفصل 1

المقدمة

ديميتار بيتشيف ونيكو بوبيسكو وستانيسلاف سيكرييرو

في عام 1984، أجرت وزارة الدفاع الأمريكية تقويمها السنوي للقوة السوفيتية في الشرق الأوسط وبصورة عامة في العالم الثالث، وقد أظهر التقرير قلقاً بشأن الصعود الحتمي لتأثير موسكو.

لقد زاد الاتحاد السوفيتي (USSR) بشكل كبير من قدرته العسكرية المقتدرة، وعززها بالقيام بعمليات عسكرية في جميع أنحاء العالم. ولقد أنشأ الاتحاد السوفيتي قواعد على مسافة قريبة من حقول النفط في الخليج[1] قبل لا يقل عن أربع سنوات من غزو أفغانستان، وواصل السوفييت تقديم ترسانة متنامية من أسلحة الدمار الشامل إلى سورية وليبيا وكوبا ونيكاراغوا. وقد زاد عدد الأفراد السوفيتيين المتواجدين في سورية من 2000 إلى 7000، وزاد الاتحاد السوفيتي من نفوذه في العالم الثالث من خلال وجود حوالي أكثر من 21000 مستشار عسكري وفني فيما يقرب من 30 دولة. وأضحى 120.000 جندي سوفيتي إضافي يتمركزون في أفغانستان وكوبا وسورية. والنتيجة هي أن السوفيت صاروا قادرين على زراعة المشاعر المؤيدة للاتحاد السوفيتي والتأثير في السياسات العسكرية المحلية[2].

مع الوقت، بدا أن هذا المنظور المحفوف بالمخاطر له ما يبرره. ففي العام نفسه، اضطرت

(1) [الخليج العربي] تعتقد الدول العربية إن التسمية المناسبة تاريخياً وواقعياً هي: (الخليج العربي) وتتداول ذلك في مدوناتها، بينما يُطلَق عليه في المخاطبات الرسمية بين أكثر دول العالم (الخليج)، أما في إيران وبعض المؤلفات وهنا تسمية (خليج فارس). (المركز).

(2) Department of Defense, «Soviet Military Power,»Washington, DC, 1984. http://www.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a152445.pdf.

الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا إلى سحب قواتها من لبنان، بعد أن قصف مقاتلو حزب الله ثكناتها بمساعدة سورية وإيرانية. وبينما كان الاتحاد السوفيتي يقوّي علاقاته مع حافظ الأسد بعد طرده من مصر، أرسل مساعدات عسكرية إلى العراق في حربه ضد إيران حليفة سورية[1]. وفي غضون ذلك، كانت العلاقات بين أمريكا وحلفائها عبر المحيط الأطلسي تتجه نحو الانحدار. وقد هددت الولايات المتحدة بفرض عقوبات على خط أنابيب الغاز الطبيعي السوفيتي الذي تم بناؤه من قروض مخفَّضة من بنوك أوروبا الغربية.

اتضح بعد فترة وجيزة أن المخاوف من عودة النفوذ السوفيتي كان مبالغاً فيه؛ إذ تبين أن قدرة موسكو على إبراز القوة والحفاظ عليها في الخارج قد تقلصت نوعاً ما، وبدلاً من التركيز على التوسع الجيوسياسي المكلف، قامت القيادة في موسكو بتحويل الانتباه إلى الاندماج الداخلي والإصلاح. لقد انسحب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان، وقطع المساعدات عن عملائه في الشرق الأوسط، وانهار في النهاية، بينما اجتاحت القوات التي أطلقتها الحركات السياسية *البيريسترويكا* و*الغلاسنوست* البلاد[2]. أعقب ذلك مرحلة تُسمى أحادية القطب. وعلى مدى عقدين من الزمن، رسمت الهيمنة الأمريكية سياسات المنطقة.

وتعكس المناقشات الحالية للدور الروسي المتنامي في الشرق الأوسط صدىً يرجع إلى أوائل الثمانينيات[3]، فقد تصدرت روسيا وفلاديمير بوتين عناوين الصحف على مدى السنوات العديدة الماضية. وقد حوّل التدخل العسكري في سورية الذي لم يسبق له مثيل في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي روسيا إلى وسيط قوي في الدولة التي مزقتها الحرب؛ والتي كانت ذات يوم قوة إقليمية، وقوة في الشرق الأوسط. وأعادت موسكو بناء روابط مع أصدقاء سابقين،

---

(1) تدفقت الأسلحة السوفيتية عن طريق سوريا إلى الإيرانيين أيضاً، وغضّ صانعو السياسة في موسكو الطرف عنها، في حين عرض الاتحاد السوفيتي في المراحل الأولى من الحرب، في 1980-1982، إرسال أسلحة إلى إيران لكنه عرضه رُفض. أنظر:

Alexey Podtserob, Rossiai Arabskii Mir [Russia and Arab World] (Moscow: MGIMO Universitet, 2015), 295–6.

(2) بيريسترويكا: «إعادة الهيكلة»، أو برنامج الإصلاح الاقتصادي الذي أطلقه رئيس الاتحاد السوفييتي، ميخائيل غورباتشوف (1988-1991)، وصاحبته الـ«غلاسنوست» وتعني الشفافية. ويجادل البعض أن تلك السياستين أدتا إلى تفكك الاتحاد السوفيتي لاحقاً. (المركز)

(3) See R. Craig Nation, «The Sources of Soviet Involvement in the Middle East: Threat or Opportunity?» in The Soviet Union and the Middle East in the 1980s, ed. Mark V. Kauppi and R. Craig Nation (Lexington: Lexington Books, 1983), 59–60.

ووجدت شركاء جدد. كما تستفيد من العلاقات القوية مع اللاعبين الإقليميين رفيعي المستوى مثل إيران، وتركيا، وإسرائيل، والمملكة العربية السعودية. بالإضافة إلى ذلك، فقد عززت مصر وهي أكبر دولة عربية التعاون العسكري والاقتصادي مع الروس. لقد أدخلت روسيا نفسها في النقاط الرمادية الإقليمية مثل ليبيا وحتى في اليمن. في الوقت نفسه، تمكنت موسكو من البقاء على بعد ذراع من المنافسات المحلية. لقد كانت في موقع فريد لعلاقتها الجيدة مع كل من الإسرائيليين، والإيرانيين، وتركيا، والأكراد، والمملكة العربية السعودية، وقطر، وحكومة الوحدة الوطنية الليبية، وخصمها اللواء خليفة حفتر، والجزائر، والمغرب، وهكذا دواليك.

نتيجة لذلك، كانت روسيا تحصد الفوائد الاستراتيجية والتجارية: ارتفاع صادرات الأسلحة الروسية؛ والطاقة المملوكة للدولة حيث تبحث شركات مثل روزنيفت وغازبروم عن صفقات مربحة؛ وشراء تركيا لصواريخ S-400 الذي يكسر علاقتها مع الولايات المتحدة - لصالح الكرملين (القصر الرئاسي الروسي)؛ وتدير الرياض وموسكو أسعار النفط جنباً إلى جنب بدون حزقها عالمياً.

وتثير عودة روسيا المثيرة إلى الشرق الأوسط الكثير من الأسئلة؛ ماذا وراء اهتمام موسكو المتجدد بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا؟ كيف ستستمر «العودة»- ونحن لا نشهد اندفاعاً لفترة قصيرة أخرى كما في أواخر الحرب الباردة؟ هل ستبقى روسيا حكماً في الجو الإقليمي، أم أنها ستقرر التراجع في النهاية؟. هل يمكن أن تتجنب الوقوع في مستنقع الخلافات المحلية؟ كيف يؤثر دخول الشرق الأوسط على العلاقات مع الولايات المتحدة، التي ما تزال القوة العالمية الرائدة في الوقت الحاضر وكذلك في المستقبل؟ ما هي نتائج النشاط الروسي على اللاعبين المحليين، وكيف يُحدث ذلك تأثيراً على التوازن في المستوى الإقليمي؟ لمعالجة هذه القضايا.

يُقدّم كتاب «*صعود روسيا: سياسة بوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا*» لمحة عن المشاركة الروسية في المنطقة، ورسم خرائط للعوامل المحركة والديناميكيات السياسية في العمل، ويستكشف المسارات المستقبلية. جاء الدافع الأولي لهذا الكتاب من بحث لشايلوت حول اندفاع روسيا في الشرق الأوسط والذي نشره معهد الاتحاد الأوروبي للدراسات الأمنية (باريس) عام 2018 [1]. وبينما يستند الكتاب إلى هذا البحث، فإنه يتوسع بشكل كبير، ويعمق نطاق البحث.

(1) Nicu Popescu and Stanislav Secrieru (eds.), «Russia's Return to the Middle East: Building Sandcastles?,» Chaillot Paper no. 146, July 2018. Editors are grateful to the EUISS for permission to reproduce major parts of the paper in this volume.

عودة روسيا: الخلفية الدرامية

لاحظ العديد من المحللين الحضور الروسي فقط مع بداية الربيع العربي، أو حتى حين التدخل في سورية. في الواقع، بينما في الحقيقة فإن صناعة ما يسمى بالعودة إلى الشرق الأوسط ترجع إلى عقد أو أكثر من الزمن. ففي أواخر التسعينيات، طالب وزير الخارجية (ولاحقاً رئيس الوزراء) يفغيني بريماكوف، المستعرب الحاذق، بالتحالف مع إيران والعراق لتحقيق التوازن ضد الأُحادية الأمريكية[1]. وعمّقت روسيا العلاقات الاقتصادية مع تركيا، الحليف الرئيسي لأمريكا. ففي عام 1997، اتفقت أنقرة وموسكو على مد أول خط أنابيب غاز عبر البحر الأسود. ونمت الروابط مع إسرائيل أيضاً بشكل أعمق، حيث هاجر حوالي 1.6 مليون يهودي ناطق بالروسية من جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق، تاركين بصماتهم على المجتمع والسياسة الإسرائيلية، وما بعد عام الألفين، تضاعف وجود روسيا الاتحادية في الشرق الأوسط.، وكان الرئيس بوتين أول زعيم روسي يقوم بزيارة رسمية للدولة اليهودية عام 2005.

وبدأت موسكو أيضاً في بناء الجسور وإقامة قنوات دبلوماسية واستخباراتية مع الخليج، حرصاً منها على كبح جماح الدعم للمتمردين الشيشان. وقد زار فلاديمير بوتين المملكة العربية السعودية في شباط/فبراير 2007 للمرة الأولى. وأصبحت روسيا عضواً مراقباً في منظمة المؤتمر الإسلامي، مع الاعتراف بالإسلام كجزء من إرثها الثقافي والتاريخي. وقد أصبح الزعيم الشيشاني الجديد رمضان قاديروف الذي طوّر صورة الإسلام المتدين تماشياً مع تنظيف المناهج الدراسية وتفعيل الدبلوماسية الروسية في الشرق الأوسط[2]. وحولت روسيا ديون الحقبة السوفيتية إلى صفقات أسلحة جديدة، ومشاريع استثمار. ففي عام 2005 وافقت روسيا على شطب 73 % من مستحقات سورية، والتي تُقدر بنحو 9.8 مليار دولار، مقابل عقود

---

(1) For more on Primakov's thinking: Yevgeny Primakov, Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East from the Cold War to the Present (New York: Basic Books, 2009).

(2) تماماً مثل الاتحاد السوفيتي الذي اعتمد من وقتٍ لآخر على كبار المسؤولين الشيوعيين من الجمهوريات الإسلامية لبناء الجسور مع قادة العالم الإسلامي (على سبيل المثال، رحلة صالح باتييف، السكرتير الأول للحزب الشيوعي لجمهورية التتار، وإلى ليبيا في عام 1970). واعتمدت روسيا على قاديروف في مَهمَّات التواصل المهمة في الشرق الأوسط. لمعرفة المزيد عن ملف السياسة الخارجية لقاديروف:

Pavel Luzhin, «Ramzan Kadyrov: Russia's Top Diplomat,» Riddle, April 19, 2018. https://www.ridl.io/en/ramzan-kadyrov-russias-top-diplomat/.

أسلحة جديدة، والوصول إلى المنشآت في طرطوس التي استخدمتها البحرية السوفيتية[1]. لقد دعت موسكو لإضفاء الطابع المؤسسي لمنتدى الدول المصدرة للغاز ومقره الدوحة، وسعت إلى تصحيح العلاقات مع منتجي النفط الأثرياء في الخليج. وركزت روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي على المكاسب الاستراتيجية والاقتصادية بعد تحررها من قيود الأيديولوجية، وعلى إحياء الاتصالات القديمة، وإقامة شراكات جديدة عبر منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وفّرت تلك المشاركات لروسيا قوة ضد الولايات المتحدة، وتزامن الانفتاح تجاه المنطقة مع تراجع العلاقات مع واشنطن خلال الفترة الثانية لرئاسة بوتين (2004– 2008). إن الحماس الأولي في الكرملين فيما يتعلق بـ «الحرب على الإرهاب» التي أعقبت 11 أيلول/ سبتمبر أفسحت المجال لمعارضة الأحادية الأمريكية. ولم يكن هذا مجرد رد على «الثورات الملونة» في جورجيا وأوكرانيا التي ألقت موسكو باللوم فيها على التدخل الغربي. فبعد أن دعم الحملة الأمريكية في أفغانستان، استنكر بوتين غزو العراق عام 2003 من قبل إدارة بوش. وبالنسبة له، فقد مزق النظام الإقليمي، وشكل تهديداً خطيراً للاستقرار في الشرق الأوسط وما حوله، وهو حجة كان من المقرر أن تطفو على السطح خلال الربيع العربي بعد عدة سنوات.

وصرّح بوتين في خطابه الشهير في مؤتمر ميونيخ للأمان عام 2007: «ولنفترض أن الأشياء كما هي- تقوم جهة واحدة بتوزيع المساعدة الخيرية، والجهة الأخرى لا تحافظ على التخلف الاقتصادي فحسب، بل تحصد الأرباح أيضاً منها. إن التوترات الاجتماعية المتزايدة في المناطق المحرومة تؤدي حتماً إلى نمو الراديكالية، والتطرف، وتغذي الإرهاب، والصراعات المحلية. وحين يحدث كل ذلك في منطقة ما مثل الشرق الأوسط، حيث يتزايد الشعور بأن العالم بأسره غير عادل، سيكون هناك خطر زعزعة للاستقرار العالمي»[2].

من الناحية الأولية، صوّرت روسيا نفسها بقوة على أنها نصيرة للوضع الراهن المعارض لتغيير النظام. ومن ناحية أخرى، نشر بوتين التصوير الخطابي للحقبة السوفيتية مصوراً أن الاستعمار الغربي الجديد مصدراً للأمراض الاجتماعية والسياسية التي تُفسد الشرق. ومع ذلك،

(1) Podtserob, Rossia i Arabskii Mir, 340–1.

(2) «Speech and the Following Discussion at the Munich Conference on Security Policy,» Kremlin.ru, February 10, 2007.

http://en.kremlin.ru/events/president/transcripts/24034.

ومن خلال تحميل الغرب المسؤولية، تغاضت القيادة الروسية عن الخميرة التي تختمر داخل المجتمعات المحلية، والتي أدت في النهاية إلى الاضطرابات أوائل عام 2010.

ومع ذلك، كما في الحرب الباردة، لم يستبعد التراشق الكلامي التعاون مع الولايات المتحدة بشأن القضايا ذات الاهتمام المشترك. لقد حقق الروس اختراقات في عراق ما بعد صدام، مع الموافقة على شطب الديون في وقت مبكر من عام 2004. ولم تمنع موسكو في 2005 الأمم المتحدة من إنشاء محكمة خاصة لمحاكمة المشتبه بهم في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري المرتبط بالحكومة السورية[1]. وابتداءً من عام 2006، أيدت روسيا قرارات مجلس الأمن الدولي التي تدعو إيران إلى وقف برنامجها النووي، وفي حزيران/يونيو 2010، صوّتت لصالح القرار 1929 لفرض عقوبات على الجمهورية الإسلامية. علاوة على ذلك، جمّدت تسليم صواريخ S-300 إلى طهران. وصل التعاون في الملف النووي الإيراني ذروته في سياسة إعادة ضبط العلاقات التي اتبعها الرئيس ديمتري ميدفيديف وإدارة أوباما[2]. وفي النهاية، أصبحت روسيا واحدة من الموقعين على ما يسمى بخطة العمل الشاملة المشتركة (JCPOA) (هي مستند اتفاقية المراحل الأخيرة للنقاشات بين إيران حول برنامجها النووي ودول الـ5+1) التي تفاوضت عليها إيران والغرب. في ذلك الوقت كما هو الحال الآن، كانت روسيا تنظر إلى الشرق الأوسط على بوصفه عُملة جيوسياسية مستخدمة في التعاملات مع أمريكا.

كان الربيع العربي إيذاناً ببدء فصل جديد؛ إذ لم تعد روسيا دخيلة في الشرق الأوسط، كما أن لديها روابط اقتصادية وأمنية بدول مثل ليبيا وسورية. لكن من المؤكد أن الولايات المتحدة والأوربيين رأوا في ضوء ذلك أنهم كافحوا من أجل صياغة الاستجابة للاضطرابات الشعبية في جميع أنحاء المنطقة، لكن القيادة الروسية بدورها فسّرت الربيع العربي على أنه امتداد لعقيدة عهد بوش لتغيير النظام. وأثبتت ليبيا أنها نقطة التحول في آذار/مارس 2011، فقد انتقد رئيس الوزراء فلاديمير بوتين بعد ذلك الرئيس ميدفيديف على مجاراته الغرب بشأن فرض منطقة محظورة وتأييد التدخل بشكل غير مباشر من قبل بريطانيا وفرنسا، والولايات المتحدة التي «تقود من الخلف». قال بوتين للعاملين في مصنع دفاعي في المقاطعة الروسية

(1) See Talal Nizammedin, Putin's New Order in the Middle East (London: Hurst, 2013),153–97.

(2) Michael McFaul, From Cold War to Hot Peace (New York: Houghton, Miffin, Harcourt, 2018), 158–75.

في بلدة فوتكينسك «إن قرار]مجلس أمن الأمم المتحدة] معيب، إنه يشبه دعوات العصور الوسطى للحروب الصليبية»[1].

إن الشعور بأن روسيا قد تعرضت للخداع بشأن ليبيا كان بمثابة دافعاً لها للدفاع الدؤوب عن نظام الأسد في سورية. لقد استخدمت موسكو حق النقض ضد جميع محاولات مجلس الأمن الدولي لفرض حظر على الأسلحة، وأرسلت إلى النظام عتاداً عسكرياً، بما في ذلك أربعاً وعشرين طائرة مقاتلة من طرازMiG-29. وبين عامي 2011 و2013، تم حساب عمليات التسليم الروسية إلى دمشق بنسبة 85% مقارنة بجميع مبيعات الأسلحة[2]. وفي الوقت نفسه، أبقت روسيا القنوات الدبلوماسية مفتوحة، والخيارات مطروحة على الطاولة، وشاركت في محادثات جنيف حول سورية عام 2012، باتجاه دعم الانتقال السياسي[3]. لقد سجّل بوتين نصراً دبلوماسياً في آب/أغسطس 2013، مستغلاً إحجام الرئيس أوباما عن فرض خطوطٍ حمراء رداً على استخدام النظام السوري للأسلحة الكيماوية. وتوسّط الرئيس الروسي في صفقةٍ، وافق بموجبها الأسد على التخلي عن ترسانته الكيماوية والانضمام إلى اتفاقية حظر الأسلحة الكيميائية لعام 1992. ووضعت موسكو نفسها على أنها سمسار السلطة، ودلالة مسبقة عما سيأتي.

فك شيفرة السياسة الروسية

تنعكس مشاركة روسيا في الشرق الأوسط في مجموعة متنوعة من العوامل على المستوى الدولي، والإقليمي، والمحلي.

أولاً، إن سعي روسيا للحصول على مكانة محترمة، كما يذكّرنا الفصل الذي كتبه دميتري

(1) Gleb Bryanski, «Putin Likens U.N. Libya Resolution to Crusades,» Reuters, March 21,2011 https://www.reuters.com/article/us-libya-russia idUSTRE72K3JR20110321.

(2) Alexandra Kuimova, «Russia's Arms Exports to the MENA Region: Trends and Drivers,» EuroMeSco Policy Brief, no. 95, 2019.
https://www.euromesco.net/wp-content/uploads/201903//Brief95-Russia-Arms-transfer-to-the-MENA-region. pdf.
See also Borisov's chapter in this volume.

(3) Christopher Philips, The Battle for Syria: International Rivalry in the New Middle East (New Haven: Yale University Press, 2016).

ترينين [الفصل 3]، والاعتراف بها كقوة لا غنى عنها لصالح القضايا ذات الاهتمام العالمي كان دائماً في طليعة اهتمامات السياسة الخارجية الروسية. وتشير محاولة التأثير على المنطقة الرئيسية - تماماً كوجود الاتحاد السوفيتي في حينه- إلى عودة روسيا إلى اللعبة، وهي قادرة، باستثمارات محدودة، لشن تحدي لهيمنة الولايات المتحدة. لقد رفض الرئيس أوباما فكرة إن روسيا قوة إقليمية محكوم عليها بالانحدار في أعقاب ضم شبه جزيرة القرم[1]، أن تقييمه قد لا يكون بعيداً تماماً عن الحقيقة، لأن التدخل في سورية والنشاط الدبلوماسي الروسي اللاحق عبر الشرق الأوسط، يشهد على قدرتها على إبراز القوة والتأثير خارج منطقة ما بعد الاتحاد السوفيتي. بالإضافة إلى ذلك، اكتسبت روسيا نفوذاً بفضل شراكتها مع إيران وتركيا؛ وهما لاعبان إقليميان محوريان، حلّا محل قوى عربية تقليدية مثل مصر وسورية والعراق، وكذلك بفضل العلاقات القوية مع المملكة العربية السعودية.

ثانياً، وبالسياق نفسه، يرى صانعو السياسة الروس إن إيجاد موطئ قدم لبلادهم في الشرق الأوسط بوصفها ورقة مساومة مقابل الغرب. بالرغم من أن روسيا فشلت في الفوز في أي تنازلات في أوكرانيا، أو فيما يتعلق بالعقوبات الغربية، فإنها لا تواجه أي تهديد للعزلة الدبلوماسية. وبينما تشعر كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بالقلق حيال الإسلام المتطرف، والجماعات الجهادية العابرة للحدود الوطنية مثل داعش (ISIS) والقاعدة الناشئتان في الشرق الأوسط. من وجهة نظر روسيا، فإن ذلك يوفر الأساس لـلمشاركة والأخذ والعطاء الجيوسياسي. وفي الوقت نفسه يُثبت، كما يوضح فلورنس جوب بشكل مقنع في هذا الكتاب [الفصل 5]، إن دعوات روسيا لإنشاء تحالف دولي لمكافحة الإرهاب لا يمنع جهاز اتصالها الاستراتيجي لإلقاء اللوم على الغرب لتصعيد التطرف.

ثالثاً، يُقدم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فرصاً اقتصادية. كما يعرض تيموفي بوريسوف وكارول نخلة في فصولهما [الفصلان 6 و7]، إن المنطقة تُقدم جذباً خاصاً لمصدري الأسلحة في روسيا وعمالقة الطاقة. ووفق معهد ستوكهولم الدولي لبحوث السلام (SIPRI)، فإن واردات الأسلحة في المنطقة قد تضاعفت بين عامي 2014 و2019، وذهبت أكثر من نصف

(1) Steve Holland and Jeff Mason, «Obama, in Dig at Putin, Calls Russia 'Regional Power',» Reuters, March 25, 2014.
https://www.reuters.com/article/us-ukraine-crisis-russia-weakness-idUSBREA2O19J20140325.

صادرات الأسلحة الأمريكية إلى الشرق الأوسط، في حين إن وروسيا حريصة على المنافسة، كما رأت أن الطلب من قبل العملاء المهمين مثل الهند وفنزويلا يتقلص، وصادراتها في السوق العالمية تنخفض بنسبة 17 %[1]. الخليج - وهو موضوع فصل ديميتري فرولوفسكي- هو وجهة تصدير محتملة، بالإضافة إلى العملاء التقليديين مثل الجزائر وسورية. وقد كانت الشركات الروسية تطارد من تركيا إلى العراق إلى مصر المشاريع المتعلقة باستخراج وتجارة النفط والغاز الطبيعي، وكذلك بناء محطات الطاقة النووية، وهي منطقة تحرص موسكو على أن تصبح فيها الرائد التكنولوجي العالمي.

رابعاً، إن الشرق الأوسط مرتبط بمنطقة القوقاز وآسيا الوسطى، حيث تعتبره روسيا «بطانتها الرخوة»، عُرفت هاتان المنطقتان باسم الشرق الأوسط السوفيتي خلال الحرب الباردة[2]. في البداية، عملت الحرب في سورية كصمام أمان، وبحسب تقديرات الحكومة الروسية، فقد غادر ألفا شخص شمال القوقاز للانضمام إلى الميليشيات المختلفة بحلول عام 2015، بعضهم على ما يبدو لا يخلو من المساعدة السرية من أجهزة الأمن في موسكو[3]. لقد قُتل عدد لا بأس به من أولئك في مهماتهم، ولكن لا شك أن الآخرين قد عادوا إلى ديارهم. وتنفذ السلطات الروسية حالياً برنامج العودة إلى الوطن، وإزالة التطرف من أفراد عوائل مقاتلي داعش. في حين أن هناك 16 مليون مواطن روسي يعتنقون الإسلام، أي ما يقرب من 12 % من إجمالي السكان، (باستثناء المهاجرين من دول الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا الوسطى)، وقد شهدت العقود الماضية زيادة في كراهية الأجانب، وزيادة المشاعر المعادية للمسلمين في المجتمع الروسي، وتمثل عودة التوترات العرقية تحدياً بالنسبة إلى زعيم مثل بوتين الذي يستمد جزءاً من شرعيته من نجاحه في الحد من عدم الاستقرار الناشئ في الشيشان، وداغستان، وأجزاء أخرى من شمال القوقاز.

(1) «Global Arms Trade: USA Increases Dominance; Arms Flows to the Middle East Surge,» Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), March 11, 2019. https://www.sipri.org/media/press-release/2019/global-arms-trade-usa-increases-dominance-arms-flows-middle-east-surge-says-sipri

(2) Alec Nove and J. A. Newth, The Soviet Middle East: A Model for Development? (London: Allen & Unwin, 1967).

(3) Department of Defense, «Soviet Military Power,»Washington, DC, 1984. http://www.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a152445.pdf.

حدود نفوذ موسكو

بالعودة إلى عام 2015، أثار التوغل الروسي في سورية توقعات عاجلة لا آجلة أن مقامرة بوتين ستؤدي إلى سيناريو المستنقع. كان الرئيس أوباما أحد مؤيدي هذه النظرية، حيث وصف سلوك روسيا بأنه: «وصفة لكارثة»[1]. لكن أداء الجيش الروسي في ميدان المعركة أثبت خطأ المشككين. وفي الوقت نفسه، أُعتبرت التقييمات الأولية في الغرب معايير تقييم سياسة موسكو منخفضة للغاية، فمع مرور الوقت، انحرفت التحليلات لصالح الطرف الآخر؛ وكلما طالت مدة بقاء روسيا في سورية، كلما زاد الاعتقاد في أن سلطتها على الجهات الفاعلة المحلية أصبحت أقوى.

في الواقع، إن النفوذ الروسي ليس بهذا الحجم، ففي سورية على سبيل المثال لم تكن روسيا قادرة على إطلاق عملية سياسية تؤدي إلى تسوية، والسبب إلى حدٍ ما يعود إلى أن مصالحها لا تنطبق بالضرورة مع مصالح نظام الأسد وداعميه الإيرانيين، وهي نقطة تمت مناقشتها بواسطة جوليان بارنز ديسي في الفصل الخاص به.

لقد عملت مصر على تعميق الصلات الأمنية والاقتصادية بموسكو، ولكن في نهاية المطاف، تعتبر أكثر ارتباطاً بالغرب والخليج، كما يبيّن ذلك أليكسي خليبينيكوف. أما تركيا وإيران فإذا لم تكونا بمثابة «عدوّتين» لروسيا، فإنهما ليستا حليفتين، حتى لو كان التعاون مع كليهما مزدهراً. وكما يشير مارك ن. كاتز في الفصل الخاص به إلى أنه في حالة مواجهة إيران وإسرائيل وجهاً لوجه فإن الأسهم الروسية ستنخفض في السوق الشرقية، حيث سيتعيّن على الولايات المتحدة التدخل سياسياً وعسكرياً. إن موسكو تدرك جيداً الحدود والقيود التي تواجهها، كما تعلمت دروساً من الحرب الباردة عندما أثبت عملاء السوفييت في كثير من الأحيان أنهم غير جديرين بالثقة، وعرّضوا مصالح موسكو الخاصة للخطر، وكثيراً ما تخلّوا عنها لصالح خصمها؛ الولايات المتحدة.

تعتمد السياسة الروسية في الوقت الحاضر على الرغبة في الحد من الانكشاف أثناء تعظيم العائد من المشاركة، وهذا هو أحد أسباب التدخل في سورية ضمن حدود معينة. كما يوضح

---

(1) «Obama: Russia Heading for 'Quagmire' in Syria,» CNN, October 2, 2015.
https://edition.cnn.com/201502/10//politics/president-obama-syria-russia-assad/index.html;
«Obama Says Russian Strategy in Syria is 'Recipe for Disaster',» The Guardian, October 2015.

أنطون لافروف في هذا الكتاب، إن الأمر يتعلق في المقام الأول بالقوات الجوية الروسية بدلاً من الوجود البري، وتحميل جزء من العملية على عاتق إيران، ووكلائها، وحزب الله. إن الانتشار الروسي في هذه الحالة محدوداً مقارنة بالحرب في أفغانستان في الثمانينيات، أو حتى الوجود السوفيتي البحري والأرضي في السبعينيات. لقد استعرضت موسكو قدراتها التقليدية المتطورة، لكنها غير راغبة، ومن المحتمل أنها غير قادرة على توسيع نطاق عملياتها.

كل هذا يستدعي تقييماً واقعياً لدور روسيا في أجواء الشرق الأوسط، وبيان مدخراتها، وكذلك نقاط ضعفها، بتحليل المشهد الإقليمي، والاستراتيجيات التي يتبعها اللاعبون المحليون. لقد أصبحت روسيا لاعباً محورياً، ووسيطاً طموحاً منقسماً ومتعدد الأقطاب في الشرق الأوسط. يمكن القول إن الحجة التي نقدمها في هذا الكتاب هي أن روسيا ليست راغبة ولا قادرة على احتلال الأسبقية من الولايات المتحدة. إنها ترغب بشكل أكيد في الحصول على مقعد على طاولة الشرق الأوسط، ويثبت نهجها المشاكس مقترناً بدبلوماسيتها الرشيقة والماهرة ذلك تماماً. وفي الوقت نفسه، لا تريد ولا تستطيع تحمل عبء إدارة المنطقة المتقلبة بدل الولايات المتحدة التي تحاول بدورها تخليص نفسها. وفي هذا الصدد، يعلّق الرئيس بوتين بفخامة رداً على سؤال حول خطة العمل الشاملة المشتركة المنهارة أن: «روسيا ليست فرقة إطفاء. [إنها] لا يمكنها أن تنقذ الأشياء التي ليست تحت [سيطرتها] بالكامل»[1].

مخطط الفصول

تم تنظيم الكتاب في ثلاثة أقسام، لاستكشاف دوافع روسيا، وتأثيرها على مجالات قضايا مختارة، والعلاقات مع الجهات الفاعلة الإقليمية الرئيسية.

يُفتتح القسم الأول بفصل بقلم فلورنس جوب، ونيكو بوبيسكو، وديميتار بيشيف حول تدخل الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا خلال الحرب الباردة. ويُسلط المؤلفون الضوء على التناقض في العلاقات بين موسكو وحلفائها في المنطقة، ويشرحون أسباب فشل وجود التأثير الأيديولوجي، وشنّ تحدٍ قوي تجاه الولايات المتحدة. إن الأنظمة القومية التي استولت على السلطة في مصر، وسورية، والعراق والجزائر، وأماكن أخرى قد

(1) «News Conference Following Talks with Austrian Federal President Alexander Der Bellen,» Kremlin.ru, May 15, 2019.
http://en.kremlin.ru/events/president/news/60527

استلهمت نظريتها من النموذج السوفييتي ولكنها احتفظت بشيء من الاستقلالية على حساب المصالح الاستراتيجية السوفيتية غالباً.

قد تؤثر الحقبة السوفيتية على منظور روسيا الحالية للمنطقة، ولكن هناك فوارق كبيرة أيضاً؛ إذ تساعد موسكو في العمل بمرونة أكبر لتحقيق أهدافها الاستراتيجية والاقتصادية، مُحَررة من قيود الأيديولوجية الشيوعية. ويقوّم دميتري ترينين الدوافع والمحفزات التي تشكل السياسة الروسية في الشرق الأوسط. فبحسب رأيه، كان التدخل في سورية نقطة انطلاق للتأثير العالمي، واختبار للعلاقات مع الولايات المتحدة. «لقد تعلمت روسيا فن التأسيس، وإدارة تحالفات القرن الحادي والعشرين، والتي تختلف كثيراً عن التحالفات السوفيتية السابقة، وتجربة الولايات المتحدة الحالية». يفحص ترينين الواقع أيضاً مشيراً إلى القيود التي تواجهها روسيا.

يستكشف القسم الثاني مختلف جوانب الوجود الروسي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويلقي أنطون لافروف نظرة على الجيش الروسي في سورية. فمن وجهة نظره، لم تعزز الحملة مكانة موسكو الجيوسياسية فقط، ولكن التجربة ستمهّد الطريق أيضاً للتدخل العسكري في الصراعات الإقليمية، والمنافسة مع الولايات المتحدة والناتو. ويتناول فلورنس جوب الموضوع من زاوية مختلفة، مركّزاً على موسكو تجنّبت الحرب المباشرة مع داعش، وبدلاً من ذلك ساعدت الأسد في سحق مجموعات من المليشيات المعارضة لنظامه تحت غطاء حملة ضد الإرهاب الجهادي.

واستغلت روسيا الاستياء الدولي من الفظائع التي ارتكبتها داعش لإنجاز ثلاثة أغراض أساسية، هي: تحقيق هدفها الاستراتيجي المتمثل في ضمان بقاء النظام السوري، وتشويه الجهود الغربية ليس في سورية فقط ولكن في المنطقة بشكل عام، وتعزيز الدعم لاستراتيجيتها وسياساتها. وعلى الرغم من إن الكرملين قام بالمهمة على أفضل وجه على النطاق الدولي، كما يؤكد جوب، فإنه فشل في تأليف سردية مناسبة في الشرق الأوسط.

ترى روسيا في الحرب السورية فرصة لبيع أسلحتها، وتحقيق علاقات سياسية من خلال التجارة والاستثمار. ويغوص تيموفي بوريسوف بعمق في صادرات الأسلحة الروسية في المنطقة، ويبين أنه في أعقاب الركود في التسعينات وسّعت موسكو حصتها في السوق. وعلى أية حال، قد يكون الحفاظ على هذه الحصة على المدى الطويل تحدياً. وبالرغم من أن

المنافسات المحلية، وسباق التسلح أفضيا إلى زيادة الطلب، فإن المنافسة بين الموردين قوية كزيادة الضغط على الابتكار التكنولوجي. علاوة على ذلك، يشكك بوريسوف في أن مبيعات الأسلحة قد تفتح الباب أمام الأعمال التجارية الروسية في مناطق أخرى. أما الطاقة فإنها تتطلب بالتأكيد اهتماماً مركزياً، وهو الموضوع الذي ساهمت كارول نخلة في الكتاب. لقد ساعد إبرام صفقة أوبك + في كانون الأول/ديسمبر 2016 بشأن إدارة أسعار النفط العالمية في تعزيز علاقات روسيا مع دول الخليج الغنية بالنفط والغاز، على الرغم من الانهيار المؤقت لاتفاق أوبك+ عام 2020، وحرب أسعار النفط القصيرة بين روسيا والمملكة العربية السعودية التي كشفت حدود هذه العلاقات. وفي العقد الماضي أيضاً، أبرمت موسكو كذلك صفقاتٍ مربحة في مجالات النفط والغاز من الجزائر إلى العراق. كما إن التكنولوجيا النووية تُعد فرصة واعدة لإقامة المشاريع في تركيا، ومصر، وربما الخليج، لا سيما بعد مصنع بنته شركة روساتوم الروسية في بوشهر في إيران.

وخُصّص القسم الأخير لعلاقات روسيا مع الجهات الإقليمية الفاعلة، إذ سلّطت كارول سايفتز الضوء على إيران، ليس لكونها حليفة موسكو في سورية فقط، ولكنها أيضاً المحاور الرئيسي حول مجموعة من القضايا الأمنية في الشرق الأوسط، وجنوب القوقاز، وآسيا الوسطى. يُقدّم هذا الفصل عرضاً مفصلاً للتفاعل المعقد بين مصالح روسيا وإيران في بحر قزوين، والخليج، والبرنامج النووي الإيراني. ثم يلقي جوليان بارنز ديسي نظرة على السياسة الروسية تجاه ما يسمى «محور المقاومة» مع إيران، ونظام الأسد، وحزب الله. بالنسبة لتحليله. وخلص إلى أنه غالباً ما تكون أهداف موسكو على خلاف مع عملاء الجمهورية الإسلامية وعملائها الإقليميين. فعلى سبيل المثال نجح الأسد في عرقلة محاولات التوصل إلى تسوية سياسية في سورية، وذلك مما يتعارض مع الدبلوماسية الروسية. وفي الوقت نفسه، وفي تقييم بارنز ديسي، من غير المرجح أن المنافسة خلف الكواليس بين موسكو وطهران، وتباين وجهات نظرهما تجاه إسرائيل أن يُعيقا النفوذ الثنائي.

إن الازدواجية هي الموضوع الرئيسي في فصل ديميتار بيتشيف عن العلاقات الروسية التركية؛ فقد أصبح الخصمان اللدودان في سورية، فلاديمير بوتين والرئيس التركي رجب طيب أردوغان شريكان بفضل تشابك المصالح. إن التعاون بين القوتين الإمبرياليتين السابقتين له جذور أعمق تعود إلى أواخر التسعينيات. لكن فترة الازدهار لا تستبعد حقيقة أن موسكو وأنقرة ما زالا على خلاف بشأن عدد من القضايا؛ من سورية إلى الأمن في البحر الأسود

وجنوب القوقاز. قد يكون المثلث الروسي -الإيراني - التركي من أولويات السياسة الروسية، ولكن هناك جهات فاعلة وعلاقات أخرى تلوح في الأفق أيضاً بشكل كبير بالنسبة لصانعي السياسة في موسكو.

في مشاركته بشأن الخليج، يلاحظ ديميتري فرولوفسكي أن التوترات الماضية، وعدم الثقة بين روسيا ودول مثل المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، وقطر لم تحبط الخطط لتعاون سياسي واقتصادي أوثق. وفي الوقت نفسه، فإن موسكو حريصة على تجنب التورط في التنافس على النفوذ في الخليج، في ضوء التوترات بين موسكو والرياض بشأن إدارة أسعار النفط في آذار/مارس 2020، ويذهب الفصل إلى القول إن مكاسب روسيا في المنطقة ليست نهائية.

أما مصر فهي دولة تتقاطع فيها المصالح السياسية الروسية والسعودية، وهذا الموضوع أيضاً من فصل أليكسي خليبينيكوف في الكتاب؛ إذ يظهر إن العلاقات بين موسكو والقاهرة منذ عام 2013 تتجه في مسار تصاعدي مرة أخرى؛ من شراء المصريين أسلحة روسية الصنع تقدر قيمتها بالمليارات، إلى إجراء تدريبات عسكرية مشتركة، ومناقشة مشاريع استثمارية واسعة النطاق. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة، وأوروبا، وكذلك دول الخليج تبقى النقطة المحورية للسياسة الخارجية المصرية. ويرى خليبنيكوف أن روسيا لن تفرط في استثمار الروابط التي ثبت في الماضي أنها زئبقية إلى حدٍ ما.

ويتابع هذا الجزء بإلقاء نظرة عامة على علاقات روسيا مع ثلاث دول من المغرب العربي، هي: الجزائر، والمغرب، وتونس بقلم داليا غانم؛ إذ تحقق روسيا توازناً بين الجزائر؛ العميل منذ زمن طويل لتجارة أسلحتها، والجار والمنافس المغرب، وتختار روسيا الحياد الإيجابي على عكس الاتحاد السوفيتي الذي وقف إلى جانب الجزائريين في نزاع الصحراء الغربية. لقد عملت موسكو على تطوير العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية أيضاً مع تونس ما بعد الربيع العربي. كما ازدهرت العلاقات الروسية الإسرائيلية منذ عقدين مع وصول بوتين إلى السلطة. يصفهم مارك ن. كاتز في الفصل الذي كتبه بأنهم مرنون و«ودودون بشكل ملحوظ» رغم اقتران روسيا بإيران بشأن سورية، وتحالف إسرائيل الراسخ مع الولايات المتحدة. ولا يثق اللاعبون الإقليميون بمستقبل العلاقة بين روسيا وإسرائيل، لكن مع ذلك، يرى كاتز بأن التعاون بين الدولتين يمكن أن يستمر بشكل أو بآخر.

القسم الأول

روسيا في الشرق الأوسط:

من الاتحاد السوفيتي إلى بوتين

الفصل 2

الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط: نظرة عامة

ديميتار بيتشيف وفلورنس جوب ونيكو بوبيسكو

عاد المحللون المعتمدون على الجغرافيا السياسية إلى التكهّن بحماس بعد ثلاثة عقود من انتهاء الحرب الباردة بصعود وسقوط القوى العظمى على المسرح العالمي. وبالتوازي مع الماضي فإن الضوء يُسلط على التنافس بين الولايات المتحدة وروسيا إلى جانب اللاعبين الناشئين الآخرين في الساحة، والبحث عن العملاء والحلفاء، والمنافسة السياسية، والأمنية، والاقتصادية، والأيديولوجية. ومع ذلك، فإن الاحتجاج بالسوابق التاريخية والروايات الأكيدة غالباً ما يطمس الاختلافات والفروق الدقيقة الحالية، إذ يعتبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مثالاً على ذلك. وعلى المستوى العالمي، كانت الحرب الباردة بمثابة محاكاة للمدرسة القديمة المتنافسة من أجل النفوذ، وصراع الأفكار حول التنظيم الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية، ويتم تأليب الشيوعية السوفيتية ضد الديموقراطية الغربية والرأسمالية.

وفضلاً عن التنافس التقليدي السائد في الشرق الأوسط، نجد هناك تزاحم القوى العظمى للهيمنة في كثير من الأحيان على الجهات الفاعلة المحلية. يقول يزيد صايغ و(آفي شلايم) بشكل بليغ: «كان لدى [دول الشرق الأوسط] نطاق أضيق من المصالح، وأكثر من ذلك بكثير على المحك وقد يُتوقع منهم بالتالي أن يعملوا بشكل أكثر نشاطاً، وتوحيداً للأفكار لحماية هذه المصالح. علاوة على ذلك، كلما زادت المنافسة بين القوى الخارجية، كلما زاد نطاق التأثير للمبادرات المحلية»[1]. لقد فرضت السياسة الإقليمية تكاليف على كل من الاتحاد

(1) Yezid Sayigh and Avi Shlaim, «Introduction,» in The Cold War and the Middle East, ed. Yezid Sayigh and Avi Shlaim (Oxford: Clarendon Press, 1997), 3.

السوفيتي والولايات المتحدة، وقد أحدثت الحرب الباردة في الشرق الأوسط تغيرات جذرية وإعادة تنظيم، وقرّبت من الحدود المائية بين الكتلتين في المنطقة، مما زاد من مخاطر المواجهة، وتُرجمت التوترات المحلية إلى توترات بين واشنطن وموسكو، وهو أمر يُحمل بشدة على موقف صنّاع القرار السوفيتيين. لقد اختار الاثنان [الأمريكان والسوفييت] التعاون في مناسبات متعددة بدافع الحاجة إلى تجنب الاشتباكات الخطرة التي يمكن أن تطلق تصعيداً خطيراً وصولاً إلى مواجهة نووية. باختصار، فإن «دروس» الحرب الباردة مصدر إلهام لصانعي السياسات اليوم، سواء في موسكو، أو واشنطن، أو أوروبا، أو أبعد من ذلك.

يتناول هذا الفصل سياسات الشرق الأوسط، ووجود روسيا على وجه الخصوص من منظور تاريخي عميق. يهدف إلى التأكيد على أهمية القوى الفاعلة الإقليمية، ودوافع ردودها على السياسة السوفيتية.

الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط

دارت الحرب الباردة المبكرة في الغالب في أوروبا وشرق آسيا، وبقيت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المقعد الخلفي، لأن «دول المواجهة» اقتصر وجودها في الجزء الشمالي، عدا إيران وتركيا اللتين كانتا استثناءً جزئياً منها. ومع ذلك، فإن كلاً مما يسمى بأزمة أذربيجان عام 1946، والخلافات بين الاتحاد السوفيتي وتركيا حول وضع المضايق قد وُجد لهما حلاً سريعاً نسبياً لصالح الولايات المتحدة. وتم قبول تركيا في الناتو، لكنها تعاونت بشكل مكثّف مع الاتحاد السوفيتي في سنوات ما بين الحربين. ووقفت جنباً إلى جنب مع الدول الأخرى الموالية للغرب مثل إيران، والعراق، وباكستان بتوقيعها عام 1955 ميثاق بغداد؛ وهو مبادرة بريطانية كان الغرض منها احتواء الاتحاد السوفيتي.

تحولت موسكو بأنظارها إلى المنطقة، في محاولة منها لتغيير ميزان القوى إقليمياً، مستفيدةً من صعود القومية العربية، وتراجع القوة البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط. فمنذ كانون الأول/ديسمبر1917 حققت الأفكار الشيوعية بعض التقدم، إذ اشتهر لينين بمناشدة المسلمين للنهوض ضد الاستعمار في جميع أنحاء العالم، وعلى سبيل المثال؛ أُسس حزب توده [الشيوعي] في إيران، وافتتح الاتحاد السوفيتي مفوضيات دبلوماسية في الدول العربية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. مع ذلك، لم تبد المنطقة جاهزة للثورة، فمع مطلع العقد الخمسينات كانت الأيديولوجية السوفيتية تحظى بجاذبية محدودة للقوميين العرب،

على الرغم من أنهم اعتبروا القوى الاستعمارية القديمة بأنها خصمهم، مثل موسكو إلى حد كبير[1].

وبدأ المد يتحول بعد الإطاحة بالنظام الملكي المصري على يد الضباط الأحرار عام 1952، إذ إن خطاب النظام الجديد المناهض للبرجوازية والإمبريالية تناغم مع الماركسية اللينينية على الرغم من أنه لا يدعو إلى الشيوعية. علاوة على ذلك، كان النموذج الاجتماعي والاقتصادي السوفيتي القائم على التحديث الذي تقوده الدولة جاذباً للسكان، حيث يكافح ضد التخلف، والفقر، والهياكل شبه الإقطاعية. وكان الإصلاح الزراعي من أولى أولويات سياسة جمال عبد الناصر ورفاقه في البلد، حيث امتلك 6 % فقط من الشعب أكثر من 65 % من الأرض وفقاً لإحصاءات عام 1947 [2]. كما تزايدت المطالب بإعادة توزيع الأراضي في سورية والعراق أيضاً.

إن فشل الولايات المتحدة في التعامل مع الحركات السياسية الناشئة، والأنظمة الثورية قد منح الاتحاد السوفيتي ميزة ترجيحية عليها. فبتوازي مع ذلك، اعتبر الزعيم الجديد في الكرملين، نيكيتا خروتشيف حركات العالم الثالث المناهضة للاستعمار حليفاً رئيسياً في النضال العالمي الذي يخوضه الاتحاد السوفيتي، مما جعل التحاق جمال عبد الناصر بفلك الاتحاد السوفيتي أمراً شبه حتميٍّ، بسبب رفض أمريكا تسليم الأسلحة له. وفي عام 1955، حصلت مصر على أسلحة بقيمة 250 مليون دولار، بما في ذلك 150 طائرة مقاتلة من طراز MiG(ميج) من موسكو عبر تشيكوسلوفاكيا[3]. وهكذا، فبعد تأميم قناة السويس، توصل رئيس الوزراء أنطوني إيدن إلى نتيجة مفادها أن: « ناصر أصبح الآن - سواء أحب ذلك أم لا- أداةً فعالة في أيدي الروس، تماماً كما كان موسوليني في قبضة هتلر»، حسبما كتبه إلى الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور[4]. أما فرنسا وبريطانيا فهما اللتان خططتا لمواجهة أزمة

---

(1) Rami Ginat, «The Soviet Union and Egypt, 1947–1955» (Ph.D. Thesis, London School of Economics, 1991), 24

(2) Joel Gordon, Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution (Oxford: Oxford University Press, 1992), 121; Stella Margold, «Agrarian Land Reform in Egypt,» American Journal of Economics and Sociology 17, no. 1 (October 1957): 9–19

(3) Syria had procured a small consignment of tanks from Czechoslovakia the year prior. The Soviets' aim was, in part, to deter Turkey, a NATO ally, which was mounting pressure on the neighboring Syrians.

(4) «Letter from Prime Minister Eden to President Eisenhower: 1 October 1956,» in Britain and Suez: The Lion's Last Roar, Scott Lucas (Manchester: Manchester University Press, 1996), 69.

السويس في محاولة للرد عليها، لكن النتيجة جاءت عكس ما أرادتا تماماً، فكلتا القوتين الأوروبيتين عانتا من الإذلال، وفقدتا التأثير الإقليمي، بينما اكتسب الاتحاد السوفيتي نفوذاً ومكانة أكبر، مع تنامي دور عبد الناصر كرمز بالنسبة للاشتراكية والعروبة.

استفاد الاتحاد السوفيتي من تفكك النظام القديم في المنطقة التي تحالفت سابقاً مع الولايات المتحدة بعد رحيل بريطانيا وفرنسا من منطقة السويس. وبحلول أوائل السبعينيات، أُطيح بأكثر من نصف ملوك الشرق الأوسط، واُستبدلوا بحكومات جمهورية حريصة على التغيير الجذري والفرعي تحت لواء الاشتراكية والقومية العربية. وفي عام 1971، توّج الاتحاد السوفيتي اتفاقيات الصداقة مع كل من سورية، التي استولى جناح راديكالي (متطرف) من حزب البعث على السلطة فيها عام 1966، ومع مصر. أما العراق القابع تحت جناح آخر من حزب البعث فقد وقّع معاهدة في العام التالي[1]. لقد أضافت هذه الروابط الكثير إلى النفوذ السياسي للاتحاد السوفيتي.

استضافت مصر أكثر من 20,000 مستشار عسكري سوفيتي في أواخر الستينيات والسبعينيات (وقد وصلوا بملابس مدنية، ثم قاموا بتبديلها إلى الزي العسكري المحلي). كانت مهمتهم هي تعزيز الدفاعات الجوية المصرية ضد إسرائيل، وقد نجحوا بذلك حيث تمكنوا من حرمان إسرائيل من الكثير من المزايا الجوية[2]. لقد حصلت موسكو على حق الوصول إلى قواعد الدعم المصرية في الإسكندرية ومرسى مطروح بموجب اتفاقية تم توقيعها في كانون الثاني/يناير 1970. ثم أنشأ الاتحاد السوفيتي قاعدة بحرية في طرطوس السورية في العام التالي.

واجتذب الاتحاد السوفيتي الحلفاء من خارج قلب الشرق الأوسط؛ كما فعل حينما انجرّت الجزائر، والسودان، وجنوب اليمن، وبعد ذلك ليبيا نحو موسكو. ثم دعم الاتحاد السوفيتي جبهة التحرير الوطنية في الحرب الجزائرية، مثلما فعل أعضاء الحزب الشيوعي المحلي في مصر أيام ناصر. إن ذلك يعد تجسيداً لما تؤمن به العقيدة اللينينيّة التي تعد الحركات

(1) John W. Copp, «Egypt and the Soviet Union, 1953–1970» (Master's Thesis, Portland State University, 1986), 121.
https://pdxscholar.library.pdx.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=4806&context=open_access_etds.

(2) Vladimir Zolotarev, R ossia (SSSR) v Lokalnyh Voinah [Russia (USSR) in Local Wars], (Moscow: Kuchkovo Pole, 2000).

المناهضة للاستعمار في العالم الثالث بوصفها الطليعة الأولى في الحرب ضد الرأسمالية الغربية. وبعد الاستقلال في عام 1962، تلقت الجزائر مساعدات فنية ومالية، بالإضافة إلى قروض عديدة لشراء معدات عسكرية. ووجد الاتحاد السوفيتي رديفاً واعداً آخر في العقيد معمر القذافي الذي روّج لنسخته الخاصة من الاشتراكية بنكهة عربية إبّان استيلائه على السلطة في ليبيا عام 1969.

ويبدو أن الاتحاد السوفيتي نجح في جعل الدول الإقليمية تعتمد بشكل متزايد على دعمه الاقتصادي والسياسي، حتى إن تركيا العضو في الناتو وحجر الزاوية في سياسة الاحتواء للولايات المتحدة قد شاركت بشكل واسع في مشاريع التنمية التجارية والصناعية مع الاتحاد السوفيتي خلال الستينيات والسبعينيات.

ومع ذلك، كان تصور تنامي التدخل السوفيتي يحتاج إلى سردية مقنعة بشكل واضح. فقد بذل العملاء الشرق أوسطيون قصارى جهدهم للاستفادة من موسكو، وكان لديهم مجال للمناورة لبعد المسافة التي تفصلهم جغرافياً عن الاتحاد السوفيتي، فحينما زعم وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس أنه حذّر ناصر من أن قربه الشديد من الاتحاد السوفيتي سوف يُعرّضه للاستيلاء العسكري السوفيتي كما فعل الأخير حينما استولى خلفاؤه على السلطة في أوروبا الشرقية، ردّ ناصر الواثق بنفسه: «ولكن كيف يمكنهم أن يسيطروا علينا؟ لقد ذهبوا إلى أوروبا الشرقية لأن لديهم حدود مشتركة، لذلك يمكنهم إرسال جيوشهم إليها، ولكن الجيش الأحمر بعيد جداً عن مصر»[1]. كان لدى مصر أسبابٌ قليلة للخوف من التدخل السوفيتي، خلافاً لدول «الحزام الشمالي» مثل تركيا، وإيران، وأخيراً أفغانستان.

الحرب غير المرغوب فيها

كان التدخل في الشرق الأوسط بالنسبة للاتحاد السوفيتي يُعد نعمةً ونقمة في آنٍ واحد. فقد كان القادة العرب مؤدلجين سياسياً ومسببين للمتاعب، ومن المؤكد أنهم ساعدوا الاتحاد السوفيتي من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة، وهي: بناء وجودٍ لهم في الشرق الأوسط، وتقويض قوة الولايات المتحدة، وتحقيق التكافؤ الاستراتيجي في منطقة شاسعة تمتد من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي، ودفع بلدانهم في مسار التنمية «اللارأسمالية». وهكذا،

(1) Mohamed Heikal, The Sphinx and the Commissar: The Rise and Fall of Soviet Infl uence in the Middle East (New York: Harper and Row, 1978), 65.

فإن الاتحاد السوفيتي بدا إنه قد خاطر بالوقوع في خصومات محلية وصراعات لا علاقة لها ببثّ الأيديولوجية الشيوعية وجعلها مسيطرة استراتيجياً.

لقد رأى ناصر إلى جانب الغالبية العظمى من القوميين العرب العلمانيين أن الاتحاد السوفيتي هو حليف في النضال ضد إسرائيل. وفي الفترة الممتدة حتى أوائل السبعينيات، كانوا على أمل أن الأسلحة السوفيتية، والتدريب العسكري، وكذلك المساعدة المباشرة في ميدان المعركة من شأنها أن تساعدهم على قلب ميزان القوى لصالحهم. لقد طوّر السوفييت في النهاية علاقات وثيقة مع منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) بالرغم من حالة الشكّ المبدئي، والتي أُعلن عنها عام 1972 تحت مسمى: «طليعة التحرر العربي».

علماً إن موقف الاتحاد السوفيتي من إسرائيل اختلف عن موقف العرب. بدايةً، على الرغم من خيبة الأمل المبكرة من فكرة أن إسرائيل بقيادة يهود من الشرق الأوروبي من ذوي الميول اليسارية يمكن أن تصبح حليفة لـ[الاتحاد السوفيتي]، فقد قبلت حقها في الوجود كدولة. ولم تقطع موسكو العلاقات الدبلوماسية مع تل أبيب إلا في عام 1967 نتيجة حرب الأيام الستة، لكنها دعمت قرار مجلس أمن الأمم المتحدة رقم 242 (22 تشرين الثاني/نوفمبر 1967) المؤسس لمبدأ «الأرض مقابل السلام»، وضمان «السيادة، وسلامة الأراضي، والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة». إن انهزام التحالف العربي في الصراع وجّه صفعة إلى الهيبة السوفيتية أيضاً. لقد أهلك حليف الولايات المتحدة - المجهز بأسلحة أمريكية الصنع من معدات وتكنولوجيا - جيوش مصر وسورية - العملاء السوفيتيين المسلحين والمدعومين بالمشورة والاستخبارات العسكرية من قبل موسكو- وكذلك جيش الأردن. أخيراً وليس آخراً، لم تكن القيادة السوفيتية تريد حروباً إقليميةً، أثارها حكام الشرق الأوسط الذين يدفعون بالسياسة نحو حافة الهاوية ويمهّدون لصراع القوى العظمى ويعرضون *العلاقات* مع الولايات المتحدة للخطر[1].

---

(1) من الإنصاف القول إن الاتحاد السوفيتي تحمّل جزءاً من المسؤولية عن حرب الأيام الستة؛ حيث أخطر (الاتحاد السوفيتي) عبد الناصر بأن هجوماً إسرائيلياً على سوريا كان وشيكاً، نقلاً عن استخباراته الخاصة. ولم تكن هذه الحالة هي الوحيدة بالضرورة. وعلى أية حال، فإن سياسة حافة الهاوية قد تجاوزت الوضع الخطير للحرب.

Yacov Ro'I and Boris Morozov, The Soviet Union and the 1967 Six Day War (Palo Alto: Stanford University Press, 2008).

وتأتي الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973 بوصفها مثالاً جيداً آخر على سياسة التلويح بالعصا. ففي الفترة التي سبقت الصراع، حاولت موسكو - عبثاً - ثني العرب عن الذهاب للحرب[1]. في الواقع، كانت مصر تأمل في أن يكون وجود القوات السوفيتية في مصر من شأنه أن يؤدي إلى جرّ الاتحاد السوفيتي إلى الحرب إذا ساءت الأمور في القاهرة. لقد أصيبت القاهرة بخيبة أمل عندما رفض السوفييت دخول الحرب مع إسرائيل مباشرة، وخلّفت حرب 1973 في عيون المصريين إرثاً من الريبة والشك المتبادلين. «اتهم العرب الروس أن مساعدتهم أثناء القتال قليلة جداً وجاءت بعد فوات الأوان، سواءً فيما يتعلق بالأسلحة أو الدعم الدبلوماسي» بينما اعتقد السوفييت أن العرب فشلوا في القتال[2]. على الرغم من أن الاتحاد السوفيتي كانت لديه قوات على الأرض في مصر، وهناك ما يصل إلى أربعين جندياً سوفيتياً قُتلوا على يد إسرائيل في السنوات التي سبقت تلك الحرب، لكنهم امتنعوا عن المشاركة في القتال (برغم أنهم زودوا العرب بالسلاح).

إن حرب 1973 هددت أيضاً بالتوسّع لتصل لصدام مباشر بين القوى العظمى، حيث كثفت الولايات المتحدة من مساعدتها للإسرائيليين، وتواجه الأسطول السادس للولايات المتحدة وسرب البحر الأبيض المتوسط السوفيتي في عرض البحر. وفي 24 تشرين الأول/أكتوبر 1973 تم وضع القوات النووية للولايات المتحدة في جميع أنحاء العالم في حالة تأهّب قصوى، وهو أسوأ تصعيد منذ أزمة الصواريخ الكوبية قبل أحد عشر عاماً.

وقدّمت العلاقات السورية السوفيتية دليلاً وافياً على كيفية قيام قادة الشرق الأوسط بتجاهل المصالح السوفيتية. فحينما تم الاستيلاء على السلطة من خلال انقلاب في تشرين الثاني/نوفمبر 1970، طلب حافظ الأسد مساعدة عسكرية من موسكو والتقى ليونيد بريجنيف عدة مرات بخصوص ذلك. ومع ذلك، ففي عام 1976، تدخّل في لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية -حليف آخر للاتحاد السوفيتي- واضعاً شريكه (القوة العظمى) في موقف محرج. تصرَّف الأسد على فرضية أن انتصار

(1) Galia Golan, Soviet Policies in the Middle East: From World War II to Gorbachev (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 96.

(2) Heikal, The Sphinx and the Commissar, 191.

فلسطيني على الميليشيات المارونية المدعومة من إسرائيل من شأنه أن يثير غزواً من الجنوب، يضر بأمن سورية الخاص. وبذلك لقد ترجحت سياسة القوة الإقليمية على تحالفات الحرب الباردة، ولم يستدر الأسد -البراغماتي على الدوام- عائداً إلى موسكو إلا بعد توقيع اتفاقيات معسكر كامب ديفيد عام 1978 التي سرعان ما فككت المحور السوري المصري المعارض لإسرائيل عام 1980. وبعد إعلان رفضه للترتيبات الجديدة، وقع الأسد اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تنص على أنه: «إذا قام طرف ثالث بغزو الأراضي السورية فإن الاتحاد السوفيتي سوف يتدخل في الأحداث». وتطبيقاً لذلك أرسل الاتحاد السوفيتي من خمسة إلى ستة آلاف مستشار عسكري (يساوي تقريباً عدد الانتشار الروسي عام 2016-2017)، وكميات هائلة من الأسلحة. جاء الاتفاق في الوقت الذي كان فيه الأسد ضعيفاً داخلياً بسبب بروز قوة الإخوان المسلمين، وبلوغ الذروة في مجزرة حماة التي ارتكبها النظام في شباط/فبراير 1982، والتحدي الذي طرحه شقيقه رفعت الأسد. لكن الزعيم السوري حرص على ألا يسير كل الطريق باتجاه الاتحاد السوفيتي ويعزل الولايات المتحدة[1]. فعندما طلبت موسكو وجود قاعدة بحرية في اللاذقية - بانياس (بالإضافة إلى منشأتهم في طرطوس) رفضت سورية الطلب[2].

يمكن أن يتّسم السوريون بعدم مراعاتهم للعلاقات بطرقٍ شتى، فقد روى أركادي فينوغرادوف وهو دبلوماسي سوفيتي في دمشق ومستشار كبير لوزير الدفاع السوري حكاية محمد سليمان الطالب في الأكاديمية العسكرية في موسكو في الثمانينيات[3]، الذي حُكِم عليه بقتل ثلاث فتيات روسيات في حادث سير وهو في حالة سكر. ورداً على ذلك، دبّر سوريون حادث سير ليضعوا نائب كبير المستشارين العسكريين السوفييت في دمشق في منصة الاتهام، فتم سجن النقيب في الجيش السوفيتي. وعند عودة سليمان إلى سورية، عُيّن عقيداً وعُيّن مستشاراً للرئيس، ثم ترقّى ليصبح قائد لواء وأحد أكثر مساعدي بشار الأسد تأثيراً. (قُتل برصاص قناصة خلال حفلة في فيلته المطلة على البحر في طرطوس عام 2008، ويشتبه

(1) Patrick Seale, «Syria,» in The Cold War and the Middle East, 38–77.

(2) Zolotarev, Rossia (SSSR) v Lokalnyh Voinah

(3) Arkadii Vinogradov, N epridumannaya Siria [Syria in Real Life], (Moscow: Mezhdunarodnye Otnoshenia, 2017), 46.

البعض بقيام الإسرائيليين بذلك[1]. في حين ربطت وثائق ويكيليكس مقتله بالصراعات بين الفصائل داخل النظام نفسه)[2].

زيادة ضبط النفس

اتسمت تصرفات القوى العظمى أثناء التنافس في الشرق الأوسط بضبط النفس، بل فضّلت التعاون أيضاً. بالنسبة للاتحاد السوفيتي، يتم تقديم الأمن الوطني على الالتزام بالحفاظ على أمن الشركاء ومصالحهم الإقليمية. وكما يزعم البعض، فإن ليونيد بريجنيف انتقد الحلفاء العرب بالعبارات التالية بعد وقف إطلاق النار في حرب يوم الغفران [الحرب العربية-الإسرائيلية 1973]: «فليذهبوا]العرب[إلى الجحيم! لقد قدّمنا لهم طريقة معقولة على مدى سنوات عديدة. لكن لا، لقد أرادوا الحرب. حسناً! أعطيناهم أحدث التقنيات؛ فقد كان لديهم تفوّق مزدوج في الدبابات والطائرات، وتفوّق ثلاثي في المدفعية، وفي الدفاع الجوي، والأسلحة المضادة للدبابات، حيث كان لديهم السيادة المطلقة. ثم ماذا؟ أيقظني السادات مرتين في منتصف الليل عبر الهاتف: «أنقذني!» طالب أن نرسل له قوات سوفيتية، وعلى الفور! لا! لن نذهب للقتال من أجلهم. لن يفهم الناس ذلك، وخاصة أننا لن نبدأ حرباً عالميةً بسببهم»[3].

لقد أضرّ انفتاح الاتحاد السوفيتي تجاه الولايات المتحدة بمصداقيته مع مصر، واشتكى المصريون في عام 1969 عندما قدّم جروميكو [وزير خارجية الاتحاد السوفيتي] أيضاً اقتراحاً آخر للتسوية مشابهاً بشكل واضح للعرض الأمريكي[4]. وبالرغم من الخطاب العدائي المتبادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فقد حاولت القوتان العظمتان

(1) Ronen Bergman, R ise and Kill First: The Secret History of Israel's Targeted Assassinations (London: John Murray, 2018), 606

(2) «Middle East: Top Assad Aide Assassinated at Syrian Resort,» The Guardian, August 5, 2008. https://www.theguardian.com/world/2008/aug/05/syria. lebanon; Wikileaks; «The Global Intelligence Files.» https://wikileaks.org/ gifiles/docs/242436109/_-os-syria-lebanon-security-wikileaks-francesaid- syrian.html; «Wikileaks: France Said Syrian General Killed in Regime Feud,» Naharnet, August 25, 2011.

(3) Anatolii Chernayev, «Iz Vospominanii: Brezhnev i Gorbachev» [From Memoirs: Brezhnev and Gorbachev], Polis, no. 3 (2012): 165.

(4) Heikal, The Sphinx and the Commissar, 195

تجنّب التورط في مواجهة عسكرية مباشرة بسبب مخططات حلفائهما الإقليميين. وعندما بدأت الولايات المتحدة وفرنسا تدخلهما العسكري في الحرب الأهلية اللبنانية عام 1982، حاولت سورية إقناع الاتحاد السوفيتي بفعل الشيء نفسه، لكن موسكو رفضت، (رغم أن الضباط السوفييت الأفراد المنضمين إلى وحدات الجيش السوري بقوا في لبنان). وأشار *تعامل* القوة العظمى [السوفيتية] تجاه الجهات الفاعلة الإقليمية، سواء أكانت مصر، أو سورية، أو منظمة التحرير الفلسطينية، إلى أن السوفييت سيؤسسون علاقات مع الولايات المتحدة أولاً.

كيف فشل السوفيت

بدأ الوجود السوفيتي يتقلص عام 1972، عندما طرد الرئيس المصري أنور السادات المستشارين العسكريين السوفيت من بلاده. وعلى الرغم من أن موسكو حافظت على علاقاتها مع سورية، والجزائر، وجنوب اليمن، وليبيا، وما إلى ذلك، إلا أنها لم تتمكن أبداً من تصدير نظرية نظامها السياسي، وتأمين التبعية والولاء للدول العربية، وأخيراً احتواء نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة. وعلى النقيض من ذلك، استمرت أمريكا في تحالفاتها مع الأنظمة الملكية المحافظة في الخليج، وإسرائيل، وتركيا. لقد خسرت الولايات المتحدة إيران، ولكنها تمكنت من تكوين شراكة مع مصر.

هناك أربعة أسباب وراء فشل السوفييت:

أولاً، لم تكن الدول العربية التي حصلت للتو على استقلالها بعد فترة طويلة من الحكم الإمبريالي- من قبل فرنسا، والإمبراطورية البريطانية، أو العثمانيين حريصة على الخضوع لنفوذ أجنبي آخر. والأهم من ذلك، أن هذه الدول على خلاف ضمني مع الأيديولوجية السوفيتية، لأن استقلالها كان إلى حدٍ كبير تحت راية القومية. بعد كل ذلك، ناضلت الشيوعية -رغم أنها لم تنجح تماماً– لتقويض الدول القومية، وخلق مجتمعات لا طبقية. لكن الأحزاب الشيوعية فشلت في كسب التأييد رغم ظهورها في كل دولة عربية. كانت جاذبية القومية العربية أقوى بكثير، وكان لديها علاقة معقدة مع الشيوعيين. يبين باتريك سيل الحالة في سورية بقوله: «ظل القادة البعثيون حذرين من الشيوعية في بلادهم. لقد علموا أن الأممية الماركسية هي عدو القومية العربية، وكان لديهم القليل من الاهتمام بثورة بروليتارية (خاصة بطبقة العمال) عالمية. وصحيح إن البعثيين تحالفوا تكتيكياً في

بعض الأحيان مع الشيوعيين في المعارك ضد الأعداء «الرجعيين»، لكنهم لم ينسوا أبداً أن الشيوعيين كانوا منافسين خطرين»[1]. وذكر الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في مقال رأي لـ *Foreign Affairs* *(الشؤون الخارجية- مجلة أمريكية)* عام1957: «إن النضال من أجل الاستقلال الوطني كان بمثابة قيد ورادع» ضد الشيوعية[2]. وكان التدخل في أفغانستان عام 1979 بمثابة الضربة القاضية على ادعاء الاتحاد السوفيتي أنه حامل لواء التحرر الوطني، والحرب ضد الإمبريالية.

ثانياً، على الرغم من أن الشيوعية استقطبت الطبقات الدنيا، إلا أن تركيزها كان على الطبقة العاملة، وفي هذه المرحلة، كانت هذه الطبقة (العاملة) صغيرة جداً ليحسب لها حساباً سياسياً. رغم أن الحرب العالمية الثانية أعطت دفعة قوية للصناعة، فقد كانت البروليتاريا (فئة العمال المستغلين والمأجورين) صغيرة في العدد وغير قادرة على إثارة حركة متماسكة. وعمل الأغلبية العظمى من العرب من الطبقة الدنيا في القطاع الزراعي، فلاحين على نطاق صغير أو عمالاً في الأرض. وخلال الحرب الباردة، استلهم العديد من اليساريين في المنطقة أفكارهم من تعاليم ماو (مؤسس الصين الشعبية) عن المجتمع الزراعي ما قبل الصناعي كأساس للثورة الاشتراكية. وقدمت الصين - وليس السوفييت- أقوى دعم لمنظمة التحرير الفلسطينية في الستينيات. في حين قدّمت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية مثالاً نادراً لتولي الحزب الماركسي التقليدي زمام الأمور فيها. ولم تنجح توده -القوة السياسية الجماعية الوحيدة المتأثرة بالشيوعية في إران- أبداً في الوصول إلى القمة في السلطة هناك. وكان اليسار التركي منقسماً داخلياً، وفي منافسة مع الماويين والفصائل الموالية لموسكو، وقد بقي تحت المراقبة من قبل الجيش ومؤسسات الدولة.

ثالثاً، كانت معارضة الشيوعية للدين مثيرة للإشمئزاز لدى المجتمعات الإسلامية المحافظة. أما التجربة السوفيتية في القوقاز، وآسيا الوسطى، ومناطق أخرى مأهولة بالسكان المسلمين فقد كانت قليلة الأهمية. وفي أحد اجتماعات حركة عدم الانحياز، حسم القذافي رئيس ليبيا

(1) Seale, «Syria.»

(2) Habib Bourguiba, «Nationalism: Antidote to Communism,» Foreign Affairs 35, no. 4 (July 1957): 646–53.

الأمر موضحا أن القرآن هو مصدر النموذج الاشتراكي الليبي وليس الماركسية اللينينيّة[1]. في أواخر سبعينيات القرن الماضي تقريباً، اضطرت موسكو إلى الاعتراف بأن هناك دول أخرى قد يكون لها طريقها المستقل إلى ماركسية منفصلة عن الاتحاد السوفيتي.

وفي نهاية المطاف، زاحم التيار الإسلامي الاشتراكية من خلال اعتبار العدالة الاجتماعية قضية محورية. وقطعت الثورة الإيرانية عام 1979- المدعومة في الأصل من اليسار- شوطاً طويلاً في ترسيخ مفهوم الطريق الثالث المختلف عن كل من الرأسمالية الغربية والشيوعية السوفيتية. لقد أنجبت تلك الثورة مجموعة من الحركات الاجتماعية في جميع أنحاء الشرق الأوسط، والتي شكّلت أيضاً تحدياً للقومية والاشتراكية العربية التي تبنتها الأنظمة الحالية. لكن وعودها بالتحديث، والنمو، والرفاهية الاجتماعية كانت متداعية.

أخيراً وببالغ التأكيد، فشل الاتحاد السوفيتي في أن يصبح سيد المنطقة، بسبب عدم استعداده للانحياز إلى أي جانب في الصراع مع إسرائيل. لقد تردد السوفييت في اتخاذ موقف متشدد ضد إسرائيل على الرغم من أن الأخيرة لم تصبح قط الدولة الشيوعية التي كانت موسكو تأملها في الأصل. وركزت السياسة السوفيتية على حل النزاعات بالطرق السلمية من خلال مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، أي من خلال التعاون مع الولايات المتحدة. وقد فشل السوفييت أيضاً في دعم الحلفاء الآخرين. وعلى الرغم من إدانة موسكو للضربات الأمريكية على العاصمة الليبية طرابلس عام 1986، فهي لم تفعل الكثير لمساعدة حليفتها ليبيا[2]. كما أبقى الفلسطينيون خطوط تواصل مفتوحة مع الولايات المتحدة، لا تختلف عن تلك التي مع سورية أو الشركاء السوفييت الآخرين.

الخاتمة

لقد أدى الوجود الدائم للاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط خلال الحرب الباردة إلى رسم صورة غير حقيقية عن مدى تأثيره، فقد تبين أن مصر، وسورية، والجزائر، وليبيا،

(1) «From the Archive, 8 September 1973: Gaddafi and Castro Clash over Soviet Union,» The Guardian, September 8, 2015.
https://www.theguardian.com/world/2015/sep/08/gaddafi-castro.soviet-union-communism-1973.

(2) «Libya-Soviet Ties Reported Strained,» New York Times, May 6, 1986.

ومنظمة التحرير الفلسطينية لم يكونوا عملاء مخلصون للاتحاد السوفيتي. وبحلول منتصف السبعينيات، كان «هجوم موسكو الجيوسياسي في حالة انهيار كامل»، على حد تعبير محمد حسنين هيكل صديق عبد الناصر ووزير الدعاية لمرة واحدة[1]؛ إن العلاقات مع الأنظمة الصديقة لم تسمح لهذه الأنظمة أن تكون مصدّرة للنمط السوفيتي في المنطقة، أو- في هذا الصدد- بتوطيد كتلة من الحلفاء والدول التابعة. مع الوقت، وصل ميخائيل غورباتشوف إلى السلطة، وأطلق ما يسمى بالتفكير السياسي الجديد مع إعطاء الأولوية للتقارب مع الغرب، وكان الاتحاد السوفياتي في طريقه الممهِد للخروج من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. فقد النموذج السوفيتي وميضه السابق حيث تدهور اقتصاد القوة العظمى من الداخل، وتأخر كثيراً في معدلات النمو، والإنتاجية، والابتكار عن الغرب الصناعي. وفي الواقع، تفوق حلفاء الغرب في الشرق الأوسط - دول الخليج الغنية بالنفط، وإسرائيل، وتركيا - على دول أمثال مصر، وسورية.

ومع ذلك، فقد تركت الحرب الباردة إرثاً قوياً. لقد أفادت العلاقات القديمة في المنطقة في انفتاح روسيا على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا منذ العقد الأول من القرن الحادي والعشرين فصاعداً، وتنظر الجهات الفاعلة المحلية إلى موسكو على أنها شريك وثقل موازن للغرب. ولكن خلافاً لسلفها السوفيتي، لا تلتزم روسيا الاتحادية بأيديولوجية معينة، وتعمل بمزيد من المرونة، كما أن طموحاتها ذات مدى أقل، ومواردها ذات محدودية أكثر. ومع ذلك، فإن التجربة التكوينية للحرب الباردة تؤسس معياراً، ويمكن القول بأنها تُبين تصورات موسكو وأهدافها في الوقت الحاضر.

(1) Heikal, The Sphinx and the Commissar, 275

الفصل 3

ما الذي يُحرّك السياسة الروسية في الشرق الأوسط؟

ديمتري ترينين

إن سياسة روسيا في الشرق الأوسط مهمة في حد ذاتها، وعلى الرغم من أن موسكو تدرك أنها قامت بعودة صاعقة إلى منطقة شديدة التقلّب؛ لكن مع ذلك، فإن الأمر كان مهماً لها باعتبارها بوتقة للسياسة الخارجية العالمية الناشئة الجديدة التي تختلف اختلافاً كبيراً عن ممارسات الربع الأخير من القرن الماضي، وعن ممارسات العصر السوفيتي.

يُبنى هذا الفصل على كتاب قصير نُشر في أواخر عام 2017[1]، تحدث عن أن عودة روسيا إلى الشرق الأوسط، والذي بلغت ذروته في التدخل العسكري في سورية، كانت بشكل أساسي جزءاً من مساعيها للعودة إلى رقعة الشطرنج العالمية كقوة عظمى. أما الدوافع الأخرى فكانت ثانوية - كانعكاسات تحركات الربيع العربي، أو وقف الطفرة في الراديكالية الإسلامية، أو القضاء جسدياً على المتطرفين المنحدرين من روسيا نفسها، أو تحويل سورية بالفعل إلى معقل جيوسياسي وقاعدة عسكرية في المنطقة.

كما أبرز الكتاب ما بدا أنه سمات جديدة ومميزة لـسياسة موسكو الخارجية التي تتجلى في أفعالها في الشرق الأوسط. كانت هذه السمات بشكل أساسي براغماتية وواقعية سياسية اتسمت بالترحيب بالتعامل مع جميع اللاعبين ذوي الصلة، وعدم معاملة أي طرف بالكامل كحليف، أو أي طرف بالكامل كخصم، والقدرة على تجاوز الانقسامات المتضاربة؛ سواءً بين الإسرائيليين والإيرانيين، أو الأتراك والأكراد، أو السنة والشيعة، والإبقاء على التركيز الواضح على المصالح الوطنية الخاصة بروسيا، سواء كانت مرتبطة بتحديد سعر

(1) See Dmitri Trenin, What Is Russia Up to in the Middle East? (Cambridge: Polity, 2018).

النفط، أو الترويج لمبيعات الأسلحة، أو ضمان نقل التكنولوجيا من إسرائيل، أو الاستثمار من دول الخليج.

يسمح هذا الفصل للمؤلف بعدم حرث الأرض نفسها مرة أخرى، بل بدلاً من ذلك، الاستفادة من الفرصة لإجراء تحليلات لما تمّ كتابته مسبقاً.

روسيا والشرق الأوسط اللغز

في كانون الأول/ديسمبر 2017، قام فلاديمير بوتين بزيارة سريعة إلى القاعدة الجوية الروسية في حميميم بسورية، التي اشتهرت بانتصارها المُعلن في الحملة العسكرية ضد داعش ومعارضي نظام بشار الأسد. وبطبيعة الحال، فإن فترة ما بعد هذا الانتصار قد أظهرت العديد من الصعوبات في صنع السلام بين السوريين وإدارة المصالح المتباينة للاعبين الإقليميين المتورطين في الصراع. ففي نيسان/أبريل 2018، أثارت الضربات الأمريكية في سورية بدعوى استخدام أسلحة كيماوية في مدينة دوما[1]، للمرة الأولى منذ عدة عقود، شبح التصادم العسكري المباشر بين واشنطن وموسكو. وفي آيار/مايو 2018، انسحبت إدارة ترامب من خطة العمل الشاملة المشتركة رافعةً بذلك احتمال نشوب حرب بين الولايات المتحدة وإيران. ووجد الأوروبيون أنفسهم فجأة أقرب إلى الموقف الروسي بشأن قضية مهمة من حليفهم عبر الأطلسي. وقبل ذلك بقليل، اجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو مع فلاديمير بوتين في موسكو في يوم النصر المقدس لروسيا قبيل شن هجوم واسع النطاق على أهداف إيرانية في سورية – مع كون البلدين حليفتين لروسيا.

يبدو أن اللغز الشرق أوسطي معقداً وعسير الحل. ومع ذلك، فإن هناك طرق للتفاوض على التضاريس الجيوسياسية الصعبة في المنطقة، وفي وقت كتابة المقال [2020]، تواصل روسيا هجومها الدبلوماسي والعسكري. وأثناء استمرار ذلك الهجوم، هناك توجه سريع لتحليل كل منعطف من الأحداث، بالشكل الذي يساعد في توجيه سياسة موسكو في المنطقة

(1) أجرت بعثة تقصي الحقائق التابعة لمنظمة حظر الأسلحة الكيميائية تحقيقاً ميدانياً في الحادث المتعلق بالاستخدام المزعوم للأسلحة الكيميائية في (دوما) في نيسان/أبريل 2018. وبعد عام تقريباً أصدرت تقريرها النهائي:

OPCW, Fact-Finding Mission Report, April 2018.

https://www.opcw.org/sites/default/files/documents/201903//s-1731%28 2019-e %29.pdf

وخارجها، لتحديد «الدروس المستفادة»، يبحث الفصل في عدة قضايا رئيسية: إدارة سورية حيث انحسرت الحرب ولكن السلام لازال صعب المنال، وقواعد الاشتباك الناشئة بين القوات العسكرية الروسية والأمريكية في الشرق الأوسط، والتوازن الدقيق بين الخصوم الإقليميين وهم جميعاً شركاء مهمين لروسيا.

ما الذي يتحكّم بالسياسة الروسية في الشرق الأوسط؟

حرب ما بعد النصر في سورية

لم يكن هناك شك في أذهان المراقبين الجادين بأن النصر الذي أعلن عنه بوتين في حميميم كان انتصاراً في حملة عسكرية، تُظهر أن دمشق هي المنتصر الرئيسي عسكرياً، وليس إعلان سلام في أرض مزقتها الحرب؛ لذا واجهت موسكو على الفور بسبب الانتصار في ساحة المعركة غضب الأطراف المهزومة ورعاتها.

إن «مؤتمر السلام» في سوتشي الذي سعت إليه الدبلوماسية الروسية بشق الأنفس، للتحضير لما يُسمى عملية أستانا كمنصة دبلوماسية للمفاوضات السياسية بين الحكومة السورية والمعارضة المسلحة قد أثبت فشله[1]. فمن وجهة نظر موسكو، إن المعارضة السورية، ورعاتها العرب، والدول الغربية قد اتحدت في تصميمها على عدم السماح لروسيا بجني ثمار النجاح في ساحة المعركة لإرساء عائد سياسي دائم.

لا بد أن النكسة في عملية السلام أصابت الدبلوماسيين الروس بخيبة أمل، ولكن ذلك قد عزز تصميم الجيش والكرملين في النهاية للضغط على المعارضة بشكل أشد. فقد ساعدت القوات الروسية بشار الأسد في القضاء على جيب رئيسي للمقاومة في الغوطة الشرقية في نيسان/أبريل 2018. كان هذا الجيب القريب من العاصمة السورية مصدر إزعاج كبير وخطر حقيقي. حتى أن السفارة الروسية في دمشق قد أُستهدفت مراراً وتكراراً من قبل المتمردين الإسلاميين من مواقع قريبة من مسافة 10 كم فقط. لذلك فإن الرد الروسي على الدبلوماسية المغلقة كان بإقامة «حلب أخرى» من خلال: مساعدة قوات الحكومة السورية على تطهير

(1) Neil Hauer, «Russia's Failure at Sochi Means More War for Syria in 2018,»Middle East Eye, February 7, 2018.

https://www.middleeasteye.net/opinion/russias-failure-sochi-means-more-war-syria-2018.

معقل المتمردين القوي كما حدث في شرق حلب أواخر عام 2016 حيث نجح النظام في الانتصار والعودة للسيطرة على منطقة حيوية استراتيجياً، وإجلاء مقاتلي الثوار الناجين إلى أكبر جيب متبقي - إدلب على الحدود التركية. بعد أن أنجاز ذلك، واصل الروس مساعدة الأسد في السيطرة على المناطق التي يسيطر عليها المتمردون في جنوب غرب سورية بالقرب من مرتفعات الجولان[1].

تحولت روسيا من الخطة أ (تقاسم السلطة بين الأطراف مع بعض الترتيبات الجديدة للسوريين جميعاً) إلى الخطة ب (المساعدة في تعزيز سيطرة دمشق على أهم أجزاء البلاد)، بسبب توقف عملية السلام والتسوية السياسية، فكما توقعت موسكو في الأصل وهي مرتابة، إن المشكلة السياسية الرئيسية الآن لم تعد تمرد المعارضة، والذي تم اعتباره مؤقتاً «رفض» التسوية التفاوضية، بل بالأحرى طموح بشار الأسد المعزّز بشكل كبير الآن لاستعادة حكم نظامه على كل سورية. من الواضح أن بشار الجريء كان يحرّض الروس ضد الإيرانيين -حليفه الرئيسي الآخر وراعيه، ولم تكن موسكو مستمتعة بذلك.

في الواقع، دخلت موسكو في تحالفٍ بصورة آنية مع كلٍ من طهران وأنقرة منذ أواخر عام 2016، ولكن منذ البداية كان هذا التحالف مختلفاً جداً عن كل من نماذج الناتو أو حلف وارسو في الحقبة السوفيتية. فقد اعترفت روسيا وقبلت بحكم الأمر الواقع ما اعتبرته مصالح الأمن القومي المشروعة للحلفاء النظريين، لذلك توافقت مع أنقرة على فكرة أن السماح لحزب لعمال الكردستاني (*Partiya Karker ên Kurdish PKK*) بإيجاد قواعد ومعسكرات تدريب في المنطقة التي يسيطر عليها الأكراد في الأراضي السورية على طول الحدود التركية يشكل تهديداً للأمن والاستقرار التركي. إن بوتين - الذي استضاف رجب طيب أردوغان في سوتشي في كانون الثاني/يناير2018، وحرص على السفر إلى أنقرة في أول رحلة خارجية له بعد إعادة انتخابه كرئيس في آذار/مارس 2018 - قد أعطى إيماءة خاصة لغزو أردوغان العسكري لعفرين شمال غرب سورية. ومع ذلك، يجب أن يكون بوتين قد انتزع أيضاً تعهداً من أردوغان بأن الغزو سيبقى محدوداً، وأن تركيا ستتوقف عن محاولة تقويض النظام في

(1) «Guarantor of Peace': Russia Inserts Itself between Israel, Syria in the Golan Heights,» National Post, August 14, 2018.
https://nationalpost.com/news/world/russia-to-help-un-with-patrols-along-syria-israel-frontier.

دمشق. أما بالنسبة للأكراد، فبينما يخاطرون بمواجهة احتجاج كردي على العملية التركية، فإن روسيا استمرت في دعم الحكم الذاتي الكردي داخل سورية[1] – على عكس رغبات حليفتها في دمشق.

يوضح الوضع في إدلب -آخر جيب كبير في سورية الذي مازال يسيطر عليه المتطرفون والراديكاليون- معضلة روسيا فيما يتعلق بتركيا. ففي أيلول/سبتمبر 2018، توافق بوتين وأردوغان على خطة للتعامل مع إدلب التي أصبحت قاعدة لغزوات الجهاديين على المناطق التي تسيطر عليها الحكومة السورية، وأيضاً منطلقاً لهجمات الطائرات بدون طيار ضد القواعد الروسية في اللاذقية. وبموجب الاتفاق، كانت روسيا راضية عن مغادرة هيئة تحرير الشام (HTC) المعزولة والمحايدة من داخل الجيب إلى أنقرة، فيما تمّ منع دمشق من إطلاق عملية مفاجئة كان من الممكن أن تؤدي إلى العديد من الضحايا المدنيين. ومع ذلك، عندما أثبتت تركيا أنها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها، لم تسمح روسيا للسوريين بالتحرك، لكنها مارست بدلاً من ذلك الصبر الاستراتيجي. واستهدفت الطائرات الحربية الروسية في بعض الأحيان أهدافاً في إدلب، لكن موسكو قررت تحمل الموقف لبعض الوقت، معتقدة أن ذلك أهون الشرين. كانت الخيارات الأخرى - المتمثلة بالمخاطرة بانهيار العلاقات مع تركيا، أو الازدراء الأوروبي نتيجة الهجوم السوري، مرفوضة باعتبارها غير مستساغة.

ومع ذلك، فبحلول نهاية عام 2019، أثارت التكتيكات التي استخدمتها دمشق بدعم من موسكو بتقطيع أجزاء من إدلب صدّاً عسكرياً من قبل أنقرة، وتعرضت العلاقة الروسية التركية لأقسى اختبار منذ سقوط طائرة حربية روسية في تشرين الثاني/نوفمبر2015.

وفي (شباط/فبراير- آذار/مارس) 2020، كان على الرئيس بوتين الانخراط مرة أخرى في الدبلوماسية الفظّة مع الرئيس أردوغان، لأن البقاء على الاتصال مع الاضطرار إلى التشاجر من وقت لآخر أفضل من قطع العلاقة بالنسبة لكلا الزعيمين. لقد تم استعادة التعاون واستمراره بين البلدين بشكل فاتر وفي ظل غياب الثقة الحقيقية.

أما فيما يتعلق بإيران، فقد فهمت روسيا حاجة طهران للاحتفاظ بحلقة اتصال أرضية مع

(1) «Russian Delegation to Syria Proposes Kurdish Autonomy,» Moscow Times, June 26, 2017. https://www.themoscowtimes.com/201726/01//russian-delegation-proposes-autonomy-for-syrian-kurds-a56934

حليفها اللبناني حزب الله، واعتبرت موسكو الحركة الشيعية فاعل سياسي عسكري شرعي في المنطقة، وليس منظمة إرهابية. ومع ذلك، فقد نظرت بقلق من المحاولات الإيرانية لتهديد إسرائيل من داخل سورية. وبالتزامن مع اعتراف روسيا بدور إيران وحزب الله في تحقيق النصر الحقيقي الذي أعلنه بوتين، لم يعتقد الجيش الروسي أبداً أن أي حرب يمكن كسبها بالغارات الجوية لوحدها، ومع ذلك فلم يكن الغرض الحقيقي أبداً دعم طموح طهران للسيطرة على سورية بالتحالف مع نظام الأسد والعلويين. كانت المنافسة الروسية الإيرانية على النفوذ إحدى مكونات سياسات دمشق منذ بداية التدخل الروسي عام 2015 – وعاملاً كثيراً ما استغله بشار الأسد لصالحه. ويمكننا القول أن داخل الجسم السياسي اللبناني أصبحت روسيا ضامناً محتملاً لوحدة البلاد منذ عام 2018، حتى إن علاقات موسكو المحلية الوثيقة مع اللاعبين الخارجيين الرئيسيين الذين لهم مصالح متباينة في لبنان أثارت انتباه: إيران، وسورية، وإسرائيل.

قواعد الاشتباك الأمريكية الروسية

في شباط/فبراير 2018، واجهت موسكو موقفاً محرجاً عندما تعرض عدد من المرتزقة الروس الذين جندتهم فاغنر-وهي شركة عسكرية روسية خاصة تعمل في سورية- مشاكل أثناء محاولتها السيطرة على أحد آبار النفط من ميليشيا كردية تدعمها الولايات المتحدة. تجاهل الروس، حرصاً على المصالح التجارية لدمشق - تحذيرات الولايات المتحدة، وتعرضوا للهجوم من قبل القوات الأمريكية، وتكبدوا خسائر فادحة[1]. لم يكن واضحاً لِمَ تم تجاهل تحذيرات الولايات المتحدة، أو ما نوع العلاقة الموجودة بالفعل بين الشركة الخاصة -التي لا تزال غير قانونية بموجب القانون الروسي- والقوات الروسية في سورية. على أي حال، استبدلت موسكو قائدها العسكري الأعلى في سورية، لكنها امتنعت عن الوعيد بالانتقام من الولايات المتحدة، وربما قد اعترفت بأن فاغنر قد ذهبت بعيداً. يجب أن يكون هذا الاعتراف قد ساهم في وضع قواعد الاشتباك بين روسيا والولايات المتحدة في سورية.

وقعت حادثة أكثر خطورة بعد شهرين بالضبط، حيث قامت الولايات المتحدة بشن

(1) لا يوجد حتى الآن اعداد مؤكدة للقتلى والجرحى. وتتراوح التقديرات من أرقام قليلة من القتلى، والتي ربما تكون منخفضة للغاية، إلى عدة مئات، وهو ما يبدو مبالغاً فيه. ومع ذلك، فإن حقيقة وقوع الضحايا والطريقة التي تمت بها أكثر أهمية من عددهم الفعلي.

ضربات صاروخية رداً على هجوم كيماوي مزعوم من قبل قوات الأسد ضد المدنيين. وقبل أسابيع من الحادث، حذّر الجنرال فاليري جيراسيموف -قائد القوات الروسية- من «استفزاز» قادم على شكل هجوم ملفّق بالأسلحة الكيماوية بالقرب من دمشق، والذي سيتم استخدامه بعد ذلك كذريعة للولايات المتحدة لشنّ ضربات كبيرة ضد قوات الحكومة السورية. لقد حذّر جيراسيموف أنه إذا حدث ذلك، وتضرر أفراد أو مصالح روسية، فلن تعترض روسيا فقط الصواريخ الأمريكية القادمة، بل إنها ستشنّ أيضاً ضربات مضادة ضد القوات الأمريكية.

كان هذا باختصار، سيناريو المواجهة العسكرية المعتادة بين الولايات المتحدة وروسيا منذ حقبة الحرب الباردة. وعندما أُعتبر الحادث من قبل واشنطن بأنه هجوم كيماوي قام به النظام السوري في نيسان 2018، وتعهد الرئيس ترامب بالرد، وجدت الدولتان نفسيهما أقرب إلى مواجهة عسكرية مباشرة بينهما من تلك التي كانت منذ أكثر من نصف قرن. ومع ذلك، على الرغم من كل القنابل القادمة من ترامب، تبيّن أن الضربات الفعلية كانت محدودة للغاية. لقد دمرت الولايات المتحدة بدعم من بريطانيا وفرنسا ثلاثة مبان فقط وصفت بأنها تحوي أسلحة كيماوية سورية، ولم تسفر عن أي إصابات، سواء سورية أو روسية، عسكرية أو مدنية. وفي الفترة التي سبقت هذه الضربات، دعا كلاً من جيمس ماتيس؛ وزير الدفاع الأمريكي، والجنرال دانفورد؛ رئيس هيئة الأركان المشتركة صراحةً إلى أقصى درجات ضبط النفس. لقد نجح الردع؛ فقد وافقت الولايات المتحدة وروسيا -على الرغم من العلاقة العدائية للغاية- بحكم الأمر الواقع، والامتناع عن أي عمل من شأنه أن يؤدي إلى اشتباك مباشر بين جيشيهما. وتم اختبار آلية فك الارتباط، التي تأسست أولاً بين القوات الروسية والأمريكية في سورية عام 2015، وتبيّن أنها فعالة.

كما توسّع التنسيق ليتجاوز القادة الإقليميين في الشرق الأوسط، ليشمل وزراء الدفاع وقادة عسكريين في البلدين، بالإضافة لقائد قوات الناتو في أوروبا. وكان «الخط الساخن» بين الكرملين والبيت الأبيض قيد الاستخدام المنتظم أيضاً. وفي أوائل عام 2018، قام رؤساء المخابرات الروسية الثلاثة، ورؤساء جهاز الأمن الفيدرالي (FSB)، وجهاز المخابرات الخارجية (SVR)، ومديرية المخابرات العسكرية (GRU) بزيارة غير مسبوقة إلى الولايات المتحدة. كان ذلك بعيداً كل البعد عن الوضع الذي كان في عام 1962 عندما كانت هناك قناة اتصال وحيدة بين رئيس محطة KGB في واشنطن وروبرت كينيدي؛ شقيق رئيس الولايات المتحدة.

لكن على الرغم من ذلك، فإن فك الارتباط هذه الأيام لا يؤدي بالضرورة إلى وقف تصعيد الصراع الأوسع بين الولايات المتحدة وروسيا.

في الواقع، أصبحت قناة قادة الأمن هي المكان الوحيد تقريباً لحوار من هذا النوع ما بين روسيا والولايات المتحدة. وكانت شؤون الشرق الأوسط أبرز مواضيع الحوار. ففي حزيران/يونيو 2019، اجتمع في القدس سكرتير مجلس الأمن الفيدرالي الروسي نيكولاي باتروشيف مع مستشار الأمن القومي في الولايات المتحدة جون بولتون ورئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي. ناقش الثلاثة باستفاضة الوضع في سورية، والتطورات المتعلقة بإيران.

إدارة الخصوم

في 9 آيار/مايو 2018، قامت مسيرة يوم النصر في موسكو بمشاركة مليون شخص حاملين صوراً للأقارب الذين قاتلوا (أو ماتوا في معظم الأحيان) في الحرب الوطنية العظمى المسماة بمسيرة «الفوج الخالد»، تضمنت مشارِكاً نادراً؛ هو بنيامين نتنياهو. حمل رئيس الوزراء الإسرائيلي صورة ضابط يهودي سوفييتي؛ بوصفه بطل الاتحاد السوفييتي. مع ذلك، فإن نتنياهو لم يأت فقط للاحتفال بالانتصار على ألمانيا النازية، بل حاملاً وثائق كشفت للتو ما يخص البرنامج النووي الإيراني. كان يقصد بذلك إشراك الرئيس بوتين بمناقشة ما يمكن القيام به حيال هذه القضية، وكذلك حول نمو الجمهورية الإسلامية الإيرانية، والخطر الموجود في سورية من المنظور الإسرائيلي.

إن تفاصيل المحادثات لن تكون متاحة لعامة الناس. ومع ذلك، ففي غضون ساعات من اجتماع القادة، ضربت قوات الدفاع الإسرائيلية العشرات من الأهداف الإيرانية في سورية. فيما أصدرت موسكو بياناً شكلياً فقط يدعو جميع الأطراف إلى التحلي بضبط النفس وتجنب التصعيد.

لطالما حاول الروس تجاوز أحد أهم خطوط التصدع في الشرق الأوسط؛ تلك التي بين إسرائيل وإيران. ربما لم يكونوا متأثرين بتصريحات نتنياهو حول إيران التي كان هدفها إعطاء دونالد ترامب حجة جديدة لإخراج الولايات المتحدة من خطة العمل الشاملة المشتركة [الاتفاق النووي]. وفي الوقت نفسه، تبنّت القيادة الروسية المخاوف الإسرائيلية بشأن الوجود الإيراني على الأرض في سورية بشكل أكثر جدية. وكما لوحظ بالفعل، فإن موسكو وطهران تشتركان في بعض المصالح المهمة في سورية، لكن بالتأكيد ليست كلها. فعندما أطلق

الإيرانيون صواريخ على مرتفعات الجولان التي تحتلها إسرائيل، فإنهم قد ذهبوا بعيداً حسب التحليل الروسي، ويعتقد الروس أن إسرائيل أيضاً تتخطى الحدود بين الحين والآخر. كانت الضربات الصاروخية الإيرانية رداً على هجوم إسرائيلي على قاعدة إيرانية في سورية أُطلق عليها اسم T-4. من خلال الكشف العلني عن هوية المهاجم، من المحتمل أن روسيا أرسلت إشارة إلى إسرائيل، وربما أسفر تبادل الصواريخ الذي أعقب ذلك بين إيران وإسرائيل، والذي لم يتصاعد أكثر عن حالة من الردع المتبادل. أما بالنسبة لموسكو، فستستمر في البحث لتحقيق التوازن بين ما تعتبره المصالح الأمنية المشروعة لحليفها الآني طهران، وشريكتها القيّمة إسرائيل.

بخصوص قرار الرئيس ترامب في آيار/مايو 2018 بالانسحاب من خطة العمل الشاملة المشتركة، تعهدت روسيا بدعم الاتفاقية بدون أن تكون الولايات المتحدة حتى جزءاً منها. وكنتيجة لتحرك واشنطن، وجدت المملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا أنفسهم بصعوبة أقرب إلى روسيا من إدارة ترامب. فمن وجهة نظر موسكو، فإن ذلك يفتح النافذة أمام تعاون مثمر مع حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين والذين لم يعد ينظر إليهم كخصوم حقيقيين لروسيا، على عكس الولايات المتحدة؛ الخصم الرئيسي ثانية. ومع ذلك، لم يتم إنجاز الكثير في هذا المجال حتى الآن.

الشرق الأوسط كنقطة انطلاق لـلتأثير العالمي لروسيا

ساهم الانخراط في الشرق الأوسط منذ عام 2015 بصورة كبيرة في تشكيل التأثير الروسي العالمي الآخذ في الاتساع. وهناك عدد من الأسباب الوجيهة لذلك، وتشمل:

تزامناً مع التدخل في سورية، توقفت السياسة الخارجية الروسية عن كونها دفاعية إلى حدٍ بعيد، ومحدودة بشكل أساسي على نطاق دول الاتحاد السوفيتي السابق فقط. بينما في أوكرانيا، دخلت موسكو في رد فعل مضاد -كما رآه الكرملين- ضد التعديات الغربية على الجليد الاستراتيجي. وقامت روسيا في سورية بتنفيذ عملية هجومية، ونجحت بذلك كما أعلن بوتين لاحقاً[1] بما يتجاوز توقعاته الشخصية. ونتيجة لذلك، حسّنت روسيا بشكل

(1) «President Putin's Remarks during the Direct Line Phone-in Session,» Kremlin.ru, June 20, 2019.

http://en.kremlin.ru/events/president/news/60795.

ملحوظ من مكانتها عبر العالم العربي، من ليبيا إلى مصر إلى الخليج، وعززت علاقاتها مع تركيا وإيران.

تبنت روسيا مقاربة أكثر مرونة في سياستها الخارجية، مقارنة بالحقبة السوفيتية؛ فهي لا تتجاهل أي جهة فاعلة ذات صلة، بل تحتفظ باتصالات وثيقة مع الكل، بما يمكِّن موسكو أن تتعاون مع أي شخص بشرط أن تتوافق المصالح بشكل كافٍ وتكون شروط التعامل صحيحة. روسيا لم تنحز إلى أي طرف ولكن ببساطة تتبع مصلحتها الذاتية. لقد تعلمت التعامل مع الخصمين لبعضهما مثل إيران والسعودية، وحتى الأعداء مثل إسرائيل وإيران. ويمكن أن تستخدم هذا النهج في المناطق الأخرى المتنازع عليها، من أفغانستان إلى وسط وجنوب آسيا.

خلال الحملة على سورية، تعلمت روسيا فن تأسيس وإدارة تحالفات القرن الحادي والعشرين، والتي تختلف كثيراً عن التجربة السوفيتية الماضية وتجربة الولايات المتحدة الحالية. هذه التحالفات ديناميكية وليست ثابتة. يجب أن تكون مرنة، ومحدودة الوقت، ومقيدة إقليمياً، ولها أهداف محددة. لقد أثبتت تحالفات موسكو مع أنقرة، وطهران، ودمشق -والتي لم يكن أي منها تحالفاُ تاماً- فعاليتها إلى حدٍ ما كأدوات جيوسياسية وعسكرية.

سلّطت العملية السورية الضوء على مدى الاختلاف والنجاح الروسي في إعادة البناء العسكري. فللمرة الأولى منذ الانسحاب من أفغانستان عام 1989، أصبح للكرملين مرة أخرى قوة عسكرية قابلة للاستخدام تحت تصرفه. لم يكن عودة روسيا إلى المسرح العالمي ممكناً إلا عبر سورية من خلال انتصاراتها العسكرية. ونتيجة لذلك، نمت هيبة الأسلحة الروسية في كلٍ من بلدان المنطقة، بما في ذلك الخليج وما وراءه، من تركيا إلى الهند التي قررت شراء أنظمة أسلحة روسية كبرى متجاهلة تحذيرات الولايات المتحدة. كما أثبتت روسيا نفسها أنها شريك أمني في العديد من البلدان الأفريقية، من السودان إلى جمهورية أفريقيا الوسطى إلى الكونغو.

إن الإرادة السياسية القوية للكرملين، وعمله الحازم، ومشروعه الناجح من القرم إلى سورية، ودعمه الفعّال لحلفائه مثل الأسد أو نيكولا مادورو في فنزويلا أكسبه سمعة طيبة من حيث التأثير الكبير، وقابلية استثماره. إن ذلك يُشكّل تناقضاً حاداً مع الحرب الجارية داخل النخبة السياسية الأمريكية، وسلوك هزيمة الذات للطبقة الحاكمة في المملكة المتحدة بشأن

خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وعدم قدرة الاتحاد الأوروبي على العمل معاً في مجال السياسة الخارجية بشكل دائم، أو حتى التعامل بفعالية في البداية مع انتشار فيروس كورونا.

نما نفوذ روسيا العالمي أيضاً على خلفية خيبة أمل واسعة النطاق من العولمة والديمقراطية الليبرالية التي تقوم عليها. فقد فاقمت الأزمة التي أثارتها COVID-19 (جائحة كورونا) الوضع، إذ إن روسيا ليس لديها نموذج اجتماعي خاص بها، لكنها ظهرت بمظهر دولة قوية مع وعي ذاتي بما يتفق مع الاتجاه العالمي الحالي.

وبطبيعة الحال، لا تخلو السياسة الخارجية لروسيا من أخطاء، وبعضها أساسي. إحدى هذه الأخطاء واضح؛ وهو ضيق القاعدة الاقتصادية الروسية وضعفها النسبي. والمشكلة الكبرى الأخرى تأخرها من الناحية التكنولوجية ليس مقارنةً مع الغرب فقط، ولكن أيضاً تجاه الدول الصاعدة مثل الصين. ويمكن للمرء أن يضيف الركود الروسي إلى التركيبة السكانية السلبية. وفي الوقت الحالي، من المؤكد أن روسيا تلقي بثقلها عالمياً وإقليمياً على حد سواء.

حدود روسيا في الشرق الأوسط

يُسلط هذا الفصل الضوء على السمات البارزة للسياسة الخارجية الروسية في الشرق الأوسط بإلقاء نظرة عامة توضيحية إلى حد كبير. فقد انخرطت روسيا عسكرياً ودبلوماسياً في الخارج دعماً لمطالبتها بمكانة القوة العظمى. إنها تستمر بحكمة وبشكل عام فعّال جداً في استخدام ما تم إحياؤه حديثاً وإعادة بناء ما يمكن من القوة العسكرية التي لا تزال متواضعة للغاية بمعايير البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية). إنها تتبنى نهج *Realpolitik* (*السياسة الواقعية*) في العلاقات الدولية، وهو ما نجح بشكل جيد في الشرق الأوسط. لقد كانت قادرة على ردع الولايات المتحدة، مع القبول بالحاجة إلى ضبط النفس في أفعالها الخاصة. وكانت قاسية على خصومها في ساحة المعركة، لكنها وجدت أن التعامل في كل الجزئيات مع حلفائها، مثل بشار الأسد يشكل تحدياً بالنسبة لها. وقد تمكنت أيضاً من العمل عبر الانقسامات الصعبة في الشرق الأوسط، بالشكل الذي يعزّز مصالحها الخاصة.

من غير الواضح فيما إذا كان هذا الوضع مستداماً على المدى الطويل، فروسيا ليست القوة المهيمنة في المنطقة، والمسؤول الأمني المعترف به، ولا يسترعيها الطموح في أن تصبح كذلك. فإذا اندلع نزاع ودخلت إسرائيل وإيران في حرب حقيقية، وهو ما قد يعني

غارات جوية إسرائيلية على الأراضي الإيرانية، ورد انتقامي من قبل الجمهورية الإسلامية، أو وكلائها مثل حزب الله، فإن روسيا ربما تضطر إلى التنحي، ولابد أن تتدهور العلاقات مع كلٍ من القدس وطهران. مع ذلك، فإن جهود موسكو الحالية تهدف بالتحديد إلى منع مثل هذه الحالة من النشوء والمساعدة في إنشاء ردع متبادل بين هذين الخصمين، كما يتعيّن على روسيا التعامل مع لاعبين صعبين مثل المملكة العربية السعودية وإيران مع مراعاة مصلحتها الوطنية في إحدى القضايا المهمة لكنها أقل تشابكاً وهي مستقبل اتفاقية 2020 بين مجموعة أوبك + بشأن إنتاج النفط.

لذا يبدو إن على روسيا بالطبع التعامل مع عدد من القيود. لا تزال قاعدتها المالية والاقتصادية لسياستها الخارجية بشكل عام، وفي الشرق الأوسط على وجه التحديد غير كافية لتقدم نفسها مشروع دولة ذات قوة عظمى. ومن الواضح أن روسيا حالياً تتجاوز ثقلها الاسمي وهي تُقاس بمصطلحات الناتج المحلي الإجمالي (GDP)، لكن يعوض ذلك بمهارة النشاط الدبلوماسي، والنجاحات العسكرية، بالإضافة إلى مكانتها القوية كمنتج رئيسي للنفط. ومع ذلك، فإن تأثيرها محدود بسبب مكانتها الضعيفة إلى حدٍ ما في نطاق التجارة الخارجية للمنطقة؛ حيث لا تظهر بشكل بارز باستثناء كونها مُصدِّرة لبعض العناصر الأساسية مثل الأسلحة، والحبوب، والتكنولوجيا النووية. وتتخلف مصادر المعلومات الخاصة بها -بما في ذلك قناة التلفازRT العربية- كثيراً عن مثيلاتها في الدول الغربية، وبالتالي فإن موسكو تكاد تكون غير قادرة على تصحيح النظرة السلبية للغاية لسياستها السائدة في الشرق الأوسط المُقدّمة من قِبَل الإعلام الغربي. وأخيراً، فإن النهج الواقعي للغاية «المجزأ» الذي اتسمت به المعالجة الروسية لقضايا المنطقة أعاقها حتى الآن من مقاربة استراتيجية للشرق الأوسط. ويتطلب مثل هذا النهج تطوير نظرة بعيدة المدى لمكانة المنطقة ودورها في السياسة الخارجية العالمية لروسيا في القرن الحادي والعشرين من خلال وضع مجموعة من الاستراتيجيات الفرعية تجاه بلدان مختلفة تتراوح من تسوية نهائية في سورية إلى التعامل المستقبلي مع البرنامج النووي الإيراني بعد انسحاب الولايات المتحدة عام 2018 من خطة العمل الشاملة المشتركة إلى شراكات مستقرة مع تركيا، وإسرائيل، ومصر، وتنسيق تلك السياسات ضمن نهج أوسع على مستوى المنطقة. قد تتمكن روسيا إن حالفها الحظ من تطوير مثل هذه الاستراتيجية في المستقبل.

القسم الثاني

السياسة الروسية في قلب الحدث

الفصل 4

روسيا في سورية: تحليل عسكري

انطون لافروف

كان التدخل العسكري الروسي في الحرب الأهلية السورية هو أول عملية عسكرية خارجية على نطاق واسع حتى الآن نفذتها روسيا منذ سقوط الاتحاد السوفيتي. لقد كان لها بالفعل عواقب سياسية وعسكرية دائمة يتردد صداها في المنطقة بأكملها. لذا فمن الضروري تحديد أهداف ودوافع روسيا في الصراع السوري من أجل قياس نجاح التدخل. لقد منحت العملية بشكل عام فرصة فريدة لتقويم الجيش الروسي الذي تم إعادة تشكيله، والقدرات الجديدة في قلب الحدث، وإلقاء الضوء على كلٍ من نقاط القوة والضعف. بالنتيجة، تمكنت موسكو من استخلاص دروس قيمة من أداء قواتها المسلحة.

أهداف روسيا

كان الهدف الرسمي من وراء العملية العسكرية الروسية هو الحرب دولياً ضد الجماعات الإرهابية المعروفة بما يسمى داعش والنصرة. وكان لدى موسكو سبباً يدعو إلى القلق بشأن صعود التطرف الإسلامي؛ إذ لقد أثرت «الخلافة الإسلامية» المعلنة حديثاً عليها بشكل مباشر. ففي نهاية عام 2015، انضم ما يقرب من خمسة آلاف إلى سبعة آلاف شخص من روسيا الاتحادية ودول ما بعد الاتحاد السوفيتي إلى صفوف داعش[1]. وفي حزيران 2015، كانت أغلب مجموعات الجهاديين الإرهابيين في القوقاز الروسي، والشيشان، وداغستان قد حولت

(1) «Foreign Fighters in Syria and Iraq,» The Soufan Group, December 2015.
http://soufangroup.com/wp-content/uploads/201512//TSG_ForeignFightersUpdate3.pdf.

ولاءها من القاعدة إلى داعش[1]. ولكن منذ الأيام الأولى للتدخل السوري، بدأت القوات الجوية الروسية بضربات ضد الجماعات المتمردة الأخرى المناهضة للأسد، بما في ذلك أيضاً الميليشيات المدعومة من قبل الولايات المتحدة وتركيا[2]. وفي الواقع، كانت معظم الأهداف في البداية هي مجموعات منفصلة عن داعش[3]. ولم يكن ذلك مفاجأة كبيرة، فقد دعمت روسيا بشدة جهود الأسد لسحق الانتفاضة حتى قبل إرسال القوات في المنطقة. ففي هذه المرحلة من الحرب، هدد المتمردون وجود النظام السوري أكثر من مقاتلي داعش الذين يحتلون المناطق الصحراوية النائية.

بدأت روسيا تدخلها سعياً وراء أهداف ليست استراتيجية فحسب، بل أيضاً لتحقيق أهداف فورية وعملية؛ فقد كانت تهدف إلى قطع موجة تغيير النظام التي اجتاحت الشرق الأوسط في أعقاب الربيع العربي عام 2011، وإلى ضمان بقاء نظام الأسد. أي أن روسيا عملت على الحفاظ على النظام. إن الشروط الضرورية للدولة لقمع الإرهاب في نظر الكرملين أن تكون قوية، وموحدة، وعاملة. قال فلاديمير بوتين في مقابلة أُجريت في التلفزيون في اليوم السابق لبدء العملية العسكرية الروسية في سورية: «نحاول منع خلق فراغ سلطة في سورية بشكل عام لأنه بمجرد حدوث فراغ في السلطة في المؤسسات الحكومية في الدولة في بلدٍ ما تم تدميره، سرعان ما سيتم شغل هذا الفراغ بالإرهابيين. كان هذا هو الحال في ليبيا والعراق، وكان هذا هو الحال في بعض البلدان الأخرى»[4].

---

(1) «Vyhodtsy s Kavkaza v Ryadah IG (IGIL) [Peoples from the Caucasus in the Ranks of the IS (ISIS)],» Kavkazski Uzel, March 1, 2018.
http://www.kavkaz-uzel.eu/articles/251513/.

(2) «Official: Russia 'Deliberately Targeting' US-Backed Forces in Syria,» Fox News, October 14, 2018.
http://www.foxnews.com/politics/201514/10//official-russia-deliberately-targeting-us-backed-forces-in-syria-dozens-killed.html.

(3) «Four-Fift hs of Russia's Syria Strikes Don't Target Islamic State: Reuters Analysis,»Reuters, October 21, 2015.
https://www.reuters.com/article/us-mideast-crisis-syriarussia- strikes/four-fift hs-of-russias-syria-strikes-dont-target-islamic-state-reutersanalysis-idUSKCN0SF24L20151021.

(4) «Interview to American TV Channel CBS and PBS,» Kremlin.ru, September 29, 2015.
http://en.kremlin.ru/events/president/news/50380

وبالإضافة إلى هذه الأهداف الواضحة، كان لروسيا أيضاً سبباً آخر أقل وضوحاً للتدخل في سورية. فقد اعتقد العديد من السياسيين والمحللين الغربيين أن القيادة الروسية كانت تهدف إلى تشتيت الانتباه عن الصراع في أوكرانيا. وعلّق الرئيس اللاتيفي رايموندس فيجونيس في مقابلة تلفزيونية قائلاً: «في الوقت الذي تظاهرت فيه روسيا في تقليص جهودها في شرق أوكرانيا، بدأ الكرملين في استغلال الوضع في سورية لتحسين سمعته المحلية وصرف الانتباه الدولي عن أوكرانيا»[1]. نفى وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف مثل هذه المزاعم واعتبرها بأنها: «مادة تقدمها العقول المريضة لوسائل الإعلام»[2]. لكن كان هناك على الأقل بعض الحقيقة في رأي رئيس لاتفيا؛ فبالرغم من انتهاء معركة قتالية واسعة النطاق في منطقة دونباس في شرق أوكرانيا في شباط/فبراير 2015، فإن العواقب السياسية للصراع بالنسبة لروسيا لا تزال مؤلمة. استمرت المعضلة الأوكرانية تُلقي بظلالها على علاقاتها مع الغرب. علاوة على ذلك، كانت المحاولة التي تقودها الولايات المتحدة لعزل روسيا سياسياً عن بقية العالم بمثابة ضربة لغرور بوتين[3].

بهذا المعنى، آمنت روسيا بشكل معقول إن داعش تعتبر عدواً مناسباً. لقد أرادت التظاهر أنها من الممكن أن تكون شريكة مفيدة للغرب كونها دخلت الحرب ضد المنظمة الإرهابية، وكونها قادرة على حلّ المشاكل الدولية الأكثر إلحاحاً. لقد دعا الرئيس بوتين في حديثه في الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى تشكيل «تحالف دولي حقيقي واسع» لمحاربة داعش[4].

---

(1) «Latvian President: Russia Using Syria to Divert Attention from Ukraine,» Baltic Times, December 3, 2015.
https://www.baltictimes.com/latvian_president__russia_using_syria_to_divert_attention_from_ukraine/.

(2) «Sergey Lavrov's Press Conference Following Russia's Presidency of the UN Security Council, New York,» MID.ru, October 1, 2015.
http://www.mid.ru/en/foreign_policy/news//asset_publisher/cKNonkJE02Bw/content/id/1825252.8.

(3) «Obama: U.S. Working to 'Isolate Russia',» Time, March 3, 2014.
http://time.com/11900/obama-u-s-working-to-isolate-russia/.

(4) «Vladimir Putin of Russia Calls for Coalition to Fight ISIS,» New York Times, September 27, 2015.
https://www.nytimes.com/201529/09//world/europe/russiavladimir-putin-united-nations-general-assembly.html.

كان التدخل في سورية مقامرة خطيرة، لكن روسيا تمتعت بنجاح واضح منذ البداية الأولى. وقبل أيام من بدء الحملة الجوية الروسية، اضطرت الولايات المتحدة إلى استعادة العلاقات العسكرية مع روسيا بعد انقطاع دام عام ونصف لتجنب الحوادث[1]. حدث الاجتماع الأول منذ ضمّ القرم بين فلاديمير بوتين وباراك أوباما على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة في أواخر أيلول/سبتمبر 2015[2]، ولكن بينما ظلت الاتصالات مع الولايات المتحدة محدودة للغاية، تحسنت العلاقات مع معظم دول الشرق الأوسط بشكل كبير[3]، وتمكنت روسيا من الخروج من عزلتها السياسية، وتم تأجيل المسألة الأوكرانية في أوروبا أيضاً.

البصمة العسكرية الروسية في سورية

في البداية، لم تخطط القيادة الروسية للانجرار إلى صراع طويل الأمد. كان من المتوقع أن نشر موسكو لطائرات حديثة وأسلحة دقيقة جديدة سيحقق نصراً سريعاً للأسد، وقد ظَنَّ أليكسي بوشكوف رئيس لجنة الشؤون الخارجية في الدوما (مجلس النواب في الجمعية الاتحادية الروسية) أن تستمر العمليات الروسية في سورية «ثلاثة أو أربعة أشهر»[4]. وبعد عام تماماً، أعاد ميخائيل بوجدانوف نائب وزير الخارجية الروسي إلى الأذهان قوله: «عندما بدأت أعمالنا النشطة، وانضمت قواتنا الجوية إلى المعركة ضد الإرهابيين توقعنا أن تستمر العملية

(1) «DOD Puts Military-to-Military Activities with Russia on Hold,» U.S. Department of Defense, March 3, 2014.
http://archive.defense.gov/news/newsarticle.aspx?id=121759.

(2) «Obama and Putin's First Formal Meeting in Two Years Described as 'Businesslike' Despite Tensions,» ABC News, September 28, 2015.
http://abcnews.go.com/US/Obama-putin-set-rare-sit-meeting-amid-tensions/story?id=34094684.

(3) «Putin Is Filling the Middle East Power Vacuum,» Bloomberg, October 3, 2017.
https://www.bloomberg.com/news/articles/201703-10-/putin-is-now-mr-middle-east-a-job-no-one-ever-succeeds-at.

(4) «Interview with Alexey Pushkov,» Europe1, October 2, 2015.
http://www.europe1.fr/emissions/l-interview-politique/la-coalition-americaine-a-fait-semblant-debombarder-daech-pendant-une-annee-2523383

عدة أشهر»[1]. مثل تلك التقويمات كانت لإثبات التفاؤل المفرط. لكن روسيا كانت قادرة على التكيّف مع الواقع الجديد للصراع طويل الأمد، ومع الدعم الناجح للقوة الاستكشافية الصغيرة في سورية على مدى فترة طويلة من الزمن.

واعتماداً على الوضع الاستراتيجي، تذبذب عدد الطائرات في القاعدة الروسية في سورية من أكثر من أربعين طائرة حربية في أوائل عام 2016 ونهاية عام 2017 إلى أربع وعشرين طائرة فقط خلال فترة هدوء صيف 2016. وتم تسجيل الحد الأدنى في تشرين الثاني/نوفمبر 2018، بـ 18 طائرة حربية فقط. كان هناك حوالي عشرين طائرة مروحية روسية هجومية وللنقل في سورية في كل الأوقات. وبالإضافة إلى القوات المتمركزة في أنحاء الدولة، هاجمت السفن البحرية والغواصات أهدافاً في سورية بصواريخ كروز من البحر المتوسط وبحر قزوين. ونشرت روسيا سرباً من عشرات القاذفات بعيدة المدى من طراز Tu-22M3 في القاعدة الجوية الحدودية في موزدوك (أوسيتيا الشمالية) التي نفذت ضربات جوية حاشدة في سورية بقنابل تتساقط بحرّيّة. واُستخدمت القاذفات الاستراتيجية من طراز Tu-160 وTu-95MS في مجموعات صغيرة تنطلق من قواعدها في روسيا، وتهاجم أهدافاً بـصواريخ كروز، لكن مهماتها لم تكن عديدة، والغرض منها هو التدريب وإظهار القوة.

شاركت في التدخل وحدات صغيرة من القوات البرية، من أجل حماية المحيط الخارجي للقاعدتين الروسيتين. وشارك في القتال الفعلي فقط مجموعة المدفعية التجريبية ومجموعات من مقاتلي قوات العمليات الخاصة. كما تم تعيين مستشارين عسكريين روس في جميع وحدات الجيش النظامي السوري تقريباً من مستوى كتيبة إلى أعلى. وتألف المستشارين من عدة ضباط، ومراقبي المدفعية، ومراقبي الطيران، والمترجمين، وموظفي الدعم[2].

ونشرت روسيا للمرة الأولى شرطتها العسكرية في الخارج، وقد تم تشكيلها فقط قبل أشهر قليلة من بدء العملية الروسية في آذار/مارس 2015. ومن خلالها ساعدت روسيا الحكومة

(1) «Bogdanov: Operatsiya VKS v Sirii Dolzhna Byla Prodlitsya Neskoliko Mesyatsev [Bogdanov: The Operation of the VKS in Syria Was Expected to Last Several Months],» RIA Novosti, September 26, 2016.
https://ria.ru/syria/20160926I477859123/.html.

(2) «Interview with Chief of Russian General Staff,»Komsomolskaya Pravda, December 27, 2017. https://www.kp.ru/daily/267753808693//.

في دمشق لاستعادة أجزاء من الأراضي، وزادت وحدات الشرطة العسكرية الروسية، وتوسع الدور الذي لعبته. يقال أنه بحلول منتصف عام 2017، كان هناك 1200 جندي من الشرطة العسكرية الروسية في سورية[1]. وتم تعزيز هذه الوحدات بثلاثمائة جندي إضافي في عام 2019[2]. وإذا كان أمام الشرطة العسكرية تأمين الأمن الداخلي للمنشآت العسكرية الروسية بشكل أساسي في السابق، فإنه اعتباراً من عام 2016 فصاعداً، شاركت هذه الوحدات في توفير أمن القوافل، وتوزيع المساعدات في الأراضي التي تسيطر عليها الحكومة، ومراقبة مناطق خفض التصعيد، وأُستخدمت الشرطة العسكرية الروسية لتعزيز القوة الناعمة لروسيا، لكنها تعرضت في عدة مناسبات للهجوم وأُضطرت إلى استخدام أسلحة مميتة[3].

وفي دور استباقي كبير، تم استخدام الشرطة العسكرية خلال عملية نبع السلام التركي عام 2019. ففي البداية، ساعدت حكومة الأسد على بسط سيطرتها الجزئية فوق الأراضي الكردية، ثم أطلقت باتفاق مع أنقرة دوريات مشتركة مع الجيش التركي في المنطقة الأمنية في المناطق الكردية على طول الحدود بين تركيا وسورية. وفي آذار/مارس 2020، تم استخدام الشرطة العسكرية الروسية لوقف تقدم المسلحين المدعومين من تركيا في إدلب[4].

لم تُفصح ولا تزال وزارة الدفاع الروسية عن العدد الإجمالي لوحدات القوات الروسية. ولكن بناءً على المعلومات غير المباشرة حتى في أوقات الذروة، فإنها كانت تتألف من حوالي خمسة آلاف شخص فقط. وأصبح تعدادها أقل بعد تخفيض القوات الروسية في كانون الأول/ديسمبر 2017. وفي الانتخابات الرئاسية في روسيا في آذار/مارس 2018، أُدرج بين قوائم

(1) Mark Galeotti, «Not-So-Soft Power: Russia's Military Police in Syria,» War on the Rocks, October 2, 2017.
https://warontherocks.com/201710//not-so-soft -power-russias- military-police-in-syria/.

(2) «More Russian Military Police Arrive in Syria After Moscow-Ankara Deal,» RFL, October 25, 2019.
https://www.rferl.org/a/more-russian-military-police-arrive-insyria-After -moscow-ankara-deal/30236285.html.

(3) «Breaking of Idlib Siege Leaves Three Russian Servicemen Wounded,» ITAR-Tass, September 20, 2017.
https://tass.com/defense/966624.

(4) «Russian Military Police Deployed to Saraqeb,» ITAR-Tass, March 2, 2020. https://tass.com/defense/1125825.

الناخبين 3840 مواطناً روسياً في سورية[1]، كان معظمهم عسكريين، لكن هذا العدد شمل أيضاً عدداً ضئيلاً من المدنيين المتعاقدين، والموظفين الدبلوماسيين.

لم تصرح السلطات الروسية رسمياً عن أعداد الضحايا كما في النزاعات السابقة، لكن الخسائر ظلت قليلة، بالنظر إلى حقيقة أن الجيش الروسي يكاد لا يشارك في القتال البري المباشر. فمن المعروف أن 109 جندياً روسياً قُتلوا في سورية في السنوات الثلاثة الأولى من العملية، وحوالي نصف هذه الوفيات كانت مرتبطة بالقتال، وكان من بين الضحايا طواقم طائرات تحطمت وأُسقطت، ونخبة من جنود سبيتسناز الذين وجهوا الإسناد الجوي القريب (CAS) وقاموا بتنفيذ المراقبة الجوية الأمامية، والموظفون الاستشاريون الذين عملوا في الخطوط الأمامية. وقُتِل معظم من تبقى من الضحايا في حادثتين لطائرتين: في تحطم طائرة An-32 أثناء هبوطها في حميميم، وفي طائرة استطلاع IL-20 أسقطها الدفاع الجوي [2]. إذاً تظل الخسائر على هذا المستوى مقبولة لدى الرأي العام الروسي. وعلاوة على ذلك، فإن من قُتل كان من الأفراد العسكريين المحترفين -الضباط والجنود المتعاقدين– أما المجندون فلا يتم إرسالهم إلى سورية.

وحتى الآن (من أيلول/سبتمبر 2015 إلى نيسان/أبريل 2020)، فقدَ الجيش الروسي خلال التدخل ثمان طائرات واثنتي عشرة طائرة هليكوبتر[3]، وأسقط مقاتلون معادون من الأرض طائرة روسية واحدة فقط من بين أكثر من خمس وأربعين ألف طلعة قتالية، وفُقدت قاذفة أخرى في حادث وقع مع تركيا في تشرين الثاني/نوفمبر 2015 [4]، وتحطمت خمسة منها (بما في ذلك طائرتي نقل جنود) بسبب مشاكل تقنية وأخطاء الطاقم. كانت الغارات تُشنّ بشكل

(1) Official Data by the Central Election Commission of the Russian Federation, March 2018. http://www.foreign-countries.vybory.izbirkom.ru/region/foreign- countries?action=show&global=true&root=994001256&tvd=499400168175&vrn=100100084849062&prver=0&pronetvd=null&region=99&sub_region=99&type=226&vibid=499400168175.

(2) «Chto Izvestno o Pogibshih v Sirii Rossiiskih Voennyh [What Is Known about Russian Military Personnel Killed in Syria],» Kommersant, May 27, 2018. https://www.kommersant.ru/doc/3460282.

(3) Calculated by the author based on media reports.

(4) «Turkey's Downing of Russian Warplane—What We Know,» BBC News, December 1,2015. http://www.bbc.com/news/world-middle-east-34912581.

شبه حصري من مسافة تصل إلى أكثر من أربعة وخمسين كيلومتر، حيث ظلت الطائرات المقاتلة الروسية محصنة ضد أنظمة الدفاع الجوي المحمولة على الكتف (MANPADS)، ونيران المدافع المضادة للطائرات من العيار الصغير.

كانت طائرات الهليكوبتر تحلِّق في طلعات جوية أقل من الطيران الحربي، لكن كان عليها أن تعمل على ارتفاعات منخفضة وغالباً خلال النهار. وبالتالي فإن خسائرها نتيجة النيران المعادية تكون أعلى؛ لذا فقد تم إسقاط أو تدمير ست طائرات هليكوبتر على الأرض بالصواريخ من أصل أسطول يتألف من 12 طائرة هليكوبتر. احترقت أربع مروحيات هجومية روسية بعد قصف بالهاون على مدرج طيران في قاعدة T4 الجوية من قبل مقاتلي داعش في آيار/مايو 2016 [1]. وكانت الخسائر في المعدات البرية غير ذات أهمية، حيث تم تدمير عدة شاحنات فقط، وفُقدت عربة مدرعة «تايجر» في هجوم نادر على شكل كمين قُتل فيه أربعة ضباط روس[2].

بصرف النظر عن التدخل الرسمي للقوات النظامية الروسية في سورية، فقد كانت الشركات العسكرية المرتزقة الروسية موجودة أيضاً. لقد كانت ظاهرة جديدة إلى حدٍ ما ظهرت في العامين 2014-2015 أثناء القتال في شرق أوكرانيا[3]. إن الوضع القانوني لهذه «الشركات» لا يزال غير واضح حتى في روسيا، ووجودها ذاته حتى الآونة الأخيرة تم دحضه من قبل السلطات الروسية. لقد عملت في سورية بمباركة خفية من وزارة الدفاع الروسية، وأحياناً بالتعاون معها، ولكن خارج تسلسل هرم القيادة العسكرية[4].

(1) «Isis ‘Destroys’ Syrian Airbase and Four Russian Helicopters,» Independent, May 24, 2016. https://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/isis-destroys-syrianairbase-and-four-russian-helicopters-a7046646.html.

(2) «Zhertvoi Fugasa Stal Rossiiskii General [The Russian General Fell Victim of IED],»Kommersant, March 6, 2017.
https://www.kommersant.ru/doc/3235107

(3) «Proekt ‘Myasorubka’. Rasskazyvaiut Tri Komandira ‘ChVK Vagnera’ [Project ‘Meat Mincer’. Three Commanders of ‘PMC Wagner’ Speak Out],» Radio Svoboda, March 7, 2018.
https://www.svoboda.org/a/29084090.html.

(4) «Russian Mercenaries: Vagner Commanders Describe Life Inside the ‘Meat Grinder’,»Radio Free Europe, March 14, 2018.
https://www.rferl.org/a/russian-mercenariesvagner-commanders-syria/29100402.html.

وإذا قلنا إن هذه الشركات مرتزقة بالمعنى القديم، وتذكّرنا بعصر النهضة في إيطاليا، فإنها في الوقت الحاضر أقرب إلى الشركات العسكرية الغربية الخاصة (PMCs) الحالية. وهي تحصل على المال وحتى المعدات العسكرية الثقيلة من نخبة سورية وروسية، وتقاتل لحماية مصالحها التجارية.

وصف أحد القادة التكتيكيين دورها الأولي بأنه توسيع مناطق التأثير بدلاً من الانخراط في عمليات عسكرية واسعة النطاق: «تجعل المنطقة تحت السيطرة -كقاعدة، وحقول النفط والغاز- ثم حراسة هذه المناطق ويتم الدفع لهم لهذه الغاية... لكن من المستحيل السيطرة على حقل نفطي إذا كان هناك مقاتلون معادون على بعد 500 متر، لذا يتعين عليهم إجبارهم على الانسحاب»[1].

وفي عام 2017، شارك المرتزقة الروس في الأعمال القتالية للاستيلاء على المدن وحقول النفط من «الخلافة الإسلامية» المنهارة[2]، وأدت مشاركة هؤلاء «المتعاقدين» في قتال متلاحم إلى خسائر أكبر بكثير مما كانت عليه في القوات الروسية «الرسمية»، إلا أنه لا توجد أرقام دقيقة، وتتذبذب التقديرات بشكل كبير من العشرات إلى الآلاف. وتتحدث التقديرات الأكثر موثوقية إن أعداد الضحايا بينهم بالمئات. والاحتجاج العام على خسائر هؤلاء «المتطوعين» أخف من الغضب على خسارة موظفي وزارة الدفاع.

وتشير الخسائر العسكرية المحدودة إلى أن سورية لم تصبح «مستنقعاً» لروسيا كما توقع باراك أوباما، حتى لو لم تحقق روسيا النصر السريع وهو ما كان يأمله الكرملين في البداية[3]. وعلاوة على ذلك، لم يكن تدخلاً مكلفاً للغاية بالنسبة لروسيا. فقد حددت أجرأ التقديرات

---

(1) Ibid.

(2) «Bolishoe Interviu Chlenov ChVK Vagnera [A Big Interview with Wagner's PMC Members],» Onpress.info, November 2017.
https://onpress.info/bolshoe-yntervyu-chlenov-chvk-vagnera-112488.

(3) «No Sign of Obama's Predicted 'Guagmire' as Russia's Engagement in Syria Escalates,» Washington Post, September 30, 2016.
https://www.washingtonpost.com/world/no-sign-of-obamas-redicted-quagmire-as-russias-engagement-in-syriaescalates/20165/30/09/b3e4d1811-8723-e6-ac72-a29979381495_story.html..

التكلفة الإجمالية لأول عشرين شهراً من العملية في سورية بحوالي 2.4 مليار دولار فقط[1]، ولم يشكّل ذلك ضغطاً كبيراً على50 مليار دولار من الميزانية السنوية لوزارة الدفاع. ويبدو أن الجيش الروسي يمكن أن يستمر بالوجود في سورية دون صعوبة كبيرة، خاصة بعد تخفيض القوة. السؤال الأكثر صعوبة هو ماذا سنفعل بعد نهاية الحرب؟ من الواضح أن التكلفة الفلكية لإعادة إعمار سورية تفوق قدرة ميزانية روسيا الاتحادية.

الإنجازات والدروس المستفادة

بحلول منتصف عام 2018 بعد سلسلة الانتصارات، كانت روسيا قد أنجزت مهمتها في دعم حكومة الأسد. وبدت هزيمة النظام في نهاية المطاف غير ممكنة مع التدخل الروسي. ففي حين كان سُدس أراضي الدولة فقط تحت سيطرة الحكومة عام 2015[2]، فإنه اعتباراً من ربيع 2020، أصبح الأسد هو المسؤول عن أكثر من 70 % من أراضي البلاد، بعد أن كان أكثر من 70 % من سكانها يعيشون تحت سيطرة معاقل المتمردين الرئيسية المُحكمة -شرق حلب والغوطة الشرقية[3]. وقد بسط الأسد بعض السيطرة على ربع آخر من سورية تسيطر عليه القوات الكردية، ويهدد إدلب آخر محافظة يسيطر عليها المتمردون.

لكن على الرغم من المحاولات العديدة، فشلت روسيا في تشكيل حكومة فعّالة قادرة على قتال القوى على الأرض والتصرف معها بشكل مستقل. تم إثبات ذلك في (نيسان/أبريل– حزيران/يونيو) 2019 خلال محاولة لأفضل قوات الأسد تسيير قوافل جديدة باتجاه إدلب وشمال حماة في منطقة سهل الغاب. تم إجراء العملية بأقل قدر ممكن من الدعم من القوة الروسية التي تم تقليصها بشكل ملحوظ، ولكن فشلت قوات الأسد في إحراز تقدم مهم على الرغم من الخسائر الفادحة المستمرة التي أُلحقت بهم.

---

(1) «Opposition Party's Report on Russia's Syria Campaign Costs Dismissed by Government,» The Jamestown Foundation, July 31, 2017.
https://jamestown.org/program/opposition-partys-report-on-ussias-syria-campaign-costs-dismissed-bygovernment

(2) «Syrian Government Loses 56/th of Territory, IHS Says,» IHS Market, August 22, 2015.
http://news.ihsmarkit.com/press-release/aerospace-defense-ecurity/syrian-government-loses-56th-territory-ihs-says.

(3) «Syria Death Toll 384,000 After Nine Years of War: Monitor,» RFI, March 14, 2020.
http://www.rfi.fr/en/wires/202000314-syria-death-toll-384000-After -nine-years-war-monitor.

يستحوذ المتمردون المناهضون للأسد، والجماعات الإسلامية المتطرفة في إدلب مثل هيئة تحرير الشام (خليفة النصرة) مجتمعين على أقل من 11 % من الأراضي[1]؛ لكن حتى في حال تحقيق نصر عسكري كامل عليهم، ستبقى سورية مجزأة من ثلاث إلى أربع مناطق تسيطر عليها قوى أجنبية مختلفة؛ إذ تسيطر (SDF) وحدات قوات سورية الديموقراطية التي يهيمن عليها الأكراد(قسد) تقريباً على ربع البلاد بدعم من الولايات المتحدة[2]، وتحتل تركيا وجيشها بالوكالة من المتمردين والإسلاميين عدة مساحات شاسعة. لذا، فإن احتمال إعادة توحيد سورية يبدو بعيداً. لقد منعت روسيا سقوط الأسد لكنها لم تكن قادرة على استعادة البلاد كلها له.

في البداية، لم تصر روسيا على إبقاء الأسد في السلطة، وكانت جاهزة لشكلٍ ما من أشكال الانتقال السياسي، تماشياً مع بيان جنيف 2012 بشأن سورية[3]، ولكن حالياً بعد سلسلة الانتصارات العسكرية الحكومية، يبدو أن روسيا ملتزمة بشدة ببقاء الأسد في السلطة.

وفي مقابل مساعدة روسيا، وقّعت دمشق اتفاقاً مع موسكو، يسمح لروسيا باستخدام القواعد الجوية والبحرية في البلاد لمدة تسعة وأربعين عاماً القادمة. وللحفاظ على هذه الاتفاقيات والتي هي بداية جسورها الوحيدة في المنطقة، يجب أن تتأكد روسيا من أن الحرب الأهلية ستنتهي، إما بالنصر العسكري الكامل للأسد وحلفائه أو بحل دبلوماسي مصحوب بشروط مواتية لروسيا. ويبدو أن بقاء الأسد في السلطة هو الطريقة المباشرة الأقوى للمحافظة على النفوذ والقواعد الروسية.

لقد مكّن طول الصراع الجيش الروسي من الحصول على رؤية ومهارات قيمة، فأصبحت سورية أرض اختبار مثالية للأسلحة الجديدة والتكتيكات الروسية. فلم يتم استخدام العديد من أسلحة الجيل الجديد في سورية للمرة الأولى فقط في ظروف القتال الحقيقية، ولكن أيضاً تم تحسينها لاحقاً بواسطة الشركات المصنِّعة بعد تقويم أدائها، ثم إعادة اختبارها

(1) «Map of Control and Infl uence in Syria: February 16, 2018,» Omran Center for Strategic Studies.
https://omranstudies.org/publications/reports/map-of-control-ndinfluence-syria-16-february-2018.html.

(2) Ibid.

(3) «Russia Stance on Assad Suggests Divergence with Iran,» Reuters, November 3, 2015.
https://www.reuters.com/article/us-mideast-crisis-syria-russia/russia-stance-on-assad-suggests-divergence-with-iran-idUSKCN0SS0TY20151103.

مرة أخرى. وتم إخضاع أكثر من 359 قطعة سلاح جديدة حتى الآن للاختبارات والتقييمات في سورية[1].

ويتضمن هذا الرقم العديد من العينات التي تم قبولها بالفعل سابقاً في الخدمة مثل جيل جديد من الذخيرة الدقيقة للطائرات المقاتلة والمروحيات. ويتضمن أيضاً العديد من النماذج التي مازالت في مرحلة التطوير والنماذج الأولية: المقاتلات Su-57، والطائرات بدون طيار متوسطة الارتفاع طويلة التحمل (MALE-class)، والمركبات الجوية الصغيرة بدون طيار (UAVs) مع محددات الهدف بالليزر للمدفعية والطيران، وصواريخ الدفاع الجوي الحديثة، ومعدات الحرب الإلكترونية (E.W)، بل تم تجربة تصميمات أكثر غرابة، مثل الروبوت المدجج بالسلاح والذي يبلغ وزنه اثني عشر طناً Uran-9، والهياكل الخارجية غير الفعالة للمهندسين القتاليين.

تم قيادة العملية العسكرية الروسية في سورية للمرة الأولى بواسطة مقر العمليات المشتركة. وتراقب قاعدة حميميم الجوية الروسية الوجود الروسي بشكل متزامن بالبر والجو والبحر في سورية فضلاً عن التنسيق مع الحلفاء الأجانب على الأرض. وقد أشرف على العملية على المستوى الاستراتيجي للقيادة مركز الدفاع الوطني الجديد في موسكو (Natsionalny tsentr upravleniya obrony) مركز مراقبة الدفاع الوطني، الذي تم تأسيسه مؤخراً في كانون الأول/ديسمبر 2014. لقد حسّن نظام التحكم الجديد التفاعل بين القوات بشكل جذري، والذي كان تاريخياً نقطة ضعف في الجيش الروسي. إن ضباط الجيش الروسي قادرون على صقل مهاراتهم القتالية والتكتيكية في سورية، فهم يعملون في هذا البلد في فترات ليست قصيرة، تمتد من شهرين إلى ثلاثة أشهر، وهذا ما سمح لأكثر من 68,000 ضابط وجندي محترف من اكتساب الخبرة في سورية على مدى ثلاث سنوات. لذلك، كل قادة المناطق العسكرية في روسيا على سبيل المثال قد تناوبوا على رئاسة قيادة العمليات المشتركة في حميميم. فبحلول أوائل عام 2019، تناوب حوالي 60 % من الشرطة العسكرية الروسية في سورية[2].

(1) «Rossiya Protestirovala v Sirii Yeshche 43 Obraztsa Novogo Oruzhiya [Russia Tested 43 More Types of New Weapons in Syria],» RIA Novosti, December 24, 2019. https://ria.ru/20191224/1562776515.html.

(2) «Over Half of Russian Military Police Have Syrian War Experience—Official,»Moscow Times, February 18, 2019. https://www.themoscowtimes.com/2019/02/18/over-half-of-russian-military-police-have-syrian-war-experience-official-64532.

كما عمل حوالي 87-97 % من أطقم الطيران القتالي في مناوبات في سورية مرة على الأقل[1].

ربما كان أخطر تحدٍ واجه القوات المسلحة الروسية في ميدان الحرب السورية هو على الصعيد الاستطلاع التكتيكي؛ إذ يعتبر تحديد الأهداف مهمة أكثر صعوبة من ضربها على أرض الواقع بأسلحة عالية الدقة. ولا تزال قدرات استطلاع الأقمار الصناعية الروسية غير فعالة بشكل كامل، وقد تم تعويض ذلك جزئياً باستخدام العديد من الطائرات بدون طيار الخفيفة ولكن طويلة التحمل، مثل طائرة الاستطلاع بدون طيار Orlan-10، حيث تم استعمال العشرات منها في سورية. ونفذت المركبات الجوية الصغيرة بدون طيار UAVs أكثر من ألف طلعة جوية في الشهر، وقضت ساعات عديدة في الهواء أكثر من الطائرات المقادة[2]. لقد أُستخدمت ليس فقط للاستطلاع ولكن أيضاً من أجل تقويم نتائج الضربات الجوية في الوقت الفعلي وتعديل تصويب نيران المدفعية. وعلى الرغم من أنها لا تزال بعيدةً عن المثالية فقد نمت قدرات الاستخبارات التكتيكية الروسية، بشكل ملحوظ بفضل الطائرات بدون طيار (UAVs).

أظهر الطيران الروسي قدرات محسّنة بشكل جذري، عندما يتعلق الأمر بضرب أهداف ثابتة، ويرجع الفضل في ذلك إلى استخدام أنظمة الاستهداف الرقمي الجديد من طراز Gefest للقنابل العادية، والاستخدام الأقصى للأسلحة الدقيقة. لكن لا يزال هناك صعوبات في عمليات البحث والتدمير ضد الأهداف المتحركة صغيرة الحجم. وكانت هناك مشاكل جسيمة في الأشهر الأولى حتى مع الإسناد الجوي القريب CAS في ساحة المعركة. ومنذ عام 2017، طرأ تحسنٌ ملحوظ لكنه لا يزال غير كاف، فالقاذفات الروسية والمقاتلات غير مجهزة بتقنيات المشاهدة أو الاستطلاع المتطورة بدرجة كافية لتحديد مواقع الأهداف الصغيرة بشكل مستقل، إلى جانب عيب خطير أيضاً وهو عدم وجود طائرات بدون طيار مسلحة من طراز

(1) «V Minoborone Raskryli Chislo Uchastnikov Voennoi Operatsii VS RF v Sirii [The Defense Ministry Revealed the Number of Participants in the Military Operation in Syria],» Zvezda, January 3, 2019.
https://tvzvezda.ru/news/forces/content/201901031142-b4d1.htm.

(2) «Rossiiskie Bespilotniki Vedut Kruglosutochnyi Kontroli v Sirii, Zayavil Shoigu [Russian Drones Are Conducting Round-the-Clock Observation in Syria, Shoigu Said,],» RIA Novosti, October 27, 2017.
https://ria.ru/syria/20171027150766957l/. html.

MALE-class، ومن بين ثلاث طائرات بدون طيار ثقيلة قيد التطوير كانت طائرة Orion (أوريون) فقط، ووزنها طن واحد جاهزة للتجربة القتالية في سورية عام 2019 في النسخة المسلحة.

لا يزال ضرْب مثل هذه الأهداف وتقديم CAS (الدعم الجوي القريب) للقوات الأرضية على خط الجبهة الأمامي في الجيش الروسي من المهام المتخصصة لطائرات الهليكوبتر. ولكن حتى طائرات الهليكوبتر الأحدث Mi-28N و52-Ka المنتشرة في سورية لم تثبت نجاحها الكبير في المهام الليلية، وقد أدى ذلك إلى اتباع برنامج طوارئ لتسريع عملية تحديثها[1].

كان النشر الفاشل لحاملة الطائرات الروسية الأدميرال كوزنتسوف في الشواطئ السورية في شتاء 2017/2016 مصدر خيبة أمل عميقة للكرملين؛ فقد كانت هذه هي المرة الأولى منذ عقود التي أتيحت فيها للبحرية الروسية الفرصة لتثبت نفسها في قتال حقيقي، وتؤكد الحاجة إلى حاملات طائرات في صفوفها. لكن فعالية حاملة الطيران كانت أقل بكثير من فعالية القوات الجوفضائية على الشاطئ. علاوة على ذلك، فمن بين 154 طلعة جوية فقط أُطلقت من الحاملة[2]، فُقدت طائرتان مقاتلتان في حوادث.

لكن البحرية تمكنت من استرداد سمعتها إلى حدٍ ما مع الإطلاق الناجح لما يزيد عن مئة صاروخ كروز من طراز كاليبر من فرقاطات (سفن حربية)، وطرادات صغيرة، وغواصات تعمل بمحركات ديزل. تم اختبار هذا السلاح الجديد في المعركة للمرة الأولى خلال التدخل الروسي في سورية. وباستخدامه، أصبحت السفن قادرة الآن على مهاجمة أهداف أرضية على بعد 1,500 كيلومتر من الساحل، وهي قدرة مفيدة لم تكن البحرية الروسية تمتلكها سابقاً.

وعلى الرغم من أن القوات التي نشرها الجيش الروسي كانت صغيرة، إلا أنه كان من

(1) «Rossiiskie MI-28 Osnastili Provalinoi Elektronikoi [Russian Mi-28 Equipped with Subpar Electronics],» Lenta.ru, November 30, 2017.
https://lenta.ru/news/201730/11//mi28/.

(2) «Russia Steps up Military Presence in Syria, Despite Putin Promise,» Fox News, January 11, 2017.
http://www.foxnews.com/world/201711/01//russia-steps-pmilitary- presence-in-syria-despite-putin-promise.html.

الضروري تسليم أكثر من 1.6 مليون طن من البضائع إلى سورية عن طريق البحر والجو في أول عامين ونصف[1]. كان ذلك يعني ضرورة رفع سقف الخدمات اللوجستية العسكرية الروسية إلى الحد الأقصى، واضطرت البحرية أيضاً لشراء سفن مدنية قديمة للنقل العسكري[2]. وهذا يُظهر أن القدرات الاستكشافية لروسيا محدودة للغاية، إلى الحد الذي بات ليس واضحاً ما إذا كانت روسيا تستطيع -إذا لزم الأمر- الاحتفاظ بكتيبة خارجية في سورية تزيد عن بضعة آلاف شخص وخمسين طائرة.

سورية ومستقبل القوات المسلحة الروسية

ستحدد الخبرة القتالية المكتسبة في سورية كيفية عمل القوات المسلحة الروسية في المستقبل المنظور. لقد تأخر اعتماد برنامج الدولة الجديد للتسليح *Gosudarstvennaya programma vooruzheniya*))، ولم يُبرم إلا في شباط/فبراير 2018 من أجل الاستفادة من الدروس المستخلصة من الحملة السورية. ومن المعروف أنه سيزيد التركيز على التطوير وشراء كميات كبيرة من الأسلحة الدقيقة[3]، وزيادة دقة وفعالية المدفعية، وسيكون هناك استثمار كبير في تطوير القوات البرية لأسطول عفا عنه الزمن من المركبات المدرعة.

تُعطى الأولوية لتقوية الطيران الاستراتيجي، والذي يمكنه الآن من استخدام صواريخ كروز بعيدة المدى غير نووية. لقد نقص تمويل المشتريات البحرية بشكل ملحوظ، بالمقارنة مع البرنامج السابق، وتم اعتبار الاستثمار في أسطول المحيط «المياه الزرقاء» غير فعّال من حيث التكلفة في ضوء قيود الميزانية العسكرية الجديدة، ولا توجد خطط للبدء ببناء طائرات

---

(1) «Operatsiya v Sirii Pokazala Silu Rossii [Operation in Syria Showed the Strength of Russia],» Red Star, January 31, 2018.
http://redstar.ru/operatsiya-v-sirii-pokazala-silu-rossii/.

(2) «Rossya Privlekla dlya Perevozki Gruzov v Siriu Desyati Grazhdanskih Sudov [Russia Contracted Ten Civil Vessels for Cargo Transportation to Syria],» RBC, November 15, 2015.
https://www.rbc.ru/politics/15561/2015/10/fb5539a79471d00663b1e.

(3) «Russia's New Armament Program to Focus on Precision Weapons,» ITAR-Tass, December 27, 2017.
http://tass.com/defense/983376.

جديدة في السنوات العشر المقبلة[1]. إن الأفضلية للقوات الجوية بدلًا من البحرية لكونها أداة لاستعراض القوة خارج حدود روسيا. لكن لا توجد أيضاً مؤشرات على التوسع للقدرات الاستكشافية إلى ما بعد سفينتين هجوميتين برمائيتين مخطط لهما. ستظل القوات الروسية التقليدية تركز على الدفاع عن الأراضي الروسية، وتستعرض قوتها أمام «الدول الأجنبية المتغلغلة».

أصبحت الحرب الأهلية في هذا البلد الشرق أوسطي فرصة لموسكو لمراقبة التحركات العسكرية للولايات المتحدة ودول الناتو عن كثب. وقد سمح هذا لروسيا بإلقاء نظرة فاحصة على التكتيكات والأسلحة الغربية الحديثة، وقياس فعاليتها، ومقارنة أداء أسلحتها الخاصة مع تلك المستخدمة من قبل القوى المنافسة ضد الأهداف نفسها. كان الجيش الروسي أيضاً قادراً على المراقبة عن قرب للعديد من الضربات الشاملة بصواريخ كروز التي أطلقتها دول الناتو، واكتساب خبرة أولية عن فعالية العصر السوفيتي والدفاعات الجوية الروسية الأكثر حداثةً ضد مثل هذا التهديدات. فيما حملت المبارزة بين الطائرات بدون طيار الهجومية التركية وأنظمة الدفاع الجوي الروسية الصنع التي استعملها الأسد خلال عملية الهجوم على إدلب في (شباط/فبراير- آذار/مارس) 2020 دروساً مهمة في هذا الصدد. إن الحصول على مثل هذه الرؤى والمعلومات يحتل أهمية حاسمة للتطوير المستقبلي الناجح للأسلحة والقوات المسلحة الروسية.

---

(1) «Russia's State Armament Programme 2027: A More Measured Course on Procurement,» IISS Military Balance Blog, February 13, 2018.
https://www.iiss.org/en/militarybalanceblog/blogsections/2018-f256/february-1c17/russia-state-armament-programme-d453.

الفصل 5

الامتناع عن حرب داعش

فلورنسا جوب

أعطت الحملة العسكرية الروسية في سورية درساً بليغاً في التضليل الاستراتيجي. فقد ظهرت موسكو في وقت متأخر في المنافسات الدولية ضد داعش (ISIS) بعد عام كامل من انطلاق التحالف بقيادة الولايات المتحدة، بناء على طلب رسمي من الحكومة السورية للتدخل. وقوّضت الحملة العسكرية التي شنتها روسيا لاحقاً في سورية بشكل فاعل الحملة التي شنّها التحالف الدولي. على الرغم من أن الرئيس بوتين قد أعلن بجرأة إلى حدٍ ما قبل أشهر فقط أن داعش «لا تشكل تهديداً مباشراً لروسيا»[1]. كما صرحت روسيا الآن أن أهدافها في سورية هي تأمين «وبشكل حصري دعم جوي للقوات المسلحة السورية في قتالها ضد داعش»[2].

وتم تصوير التدخل العسكري في سورية في وسائل الإعلام الروسية على أنه حرب على الإرهاب الإسلامي، في تناقض صارخ مع الطريقة التي تقود بها روسيا بالفعل العمليات على الأرض. لقد دحضت أدلة واسعة النطاق -تم جمعها من خلال مصادر دقيقة وتحليل معروف المصدر- ادعاء روسيا بأنها كانت تقصف داعش: ففي الواقع، استهدفت أكثر من 90 % من غاراتها الجوية متمردين غير جهاديين. ولم تستهدف حتى عدو داعش -جبهة النصرة الموالية للقاعدة. وإذا كان ذلك ليس دليلاً كافياً، فإن داعش كانت تخسر الأراضي فقط في المناطق التي لا تنشط فيها روسيا عسكرياً.

(1) Official website of the President of Russia, «Direct Line with Vladimir Putin,» April 16,2015. http://en.kremlin.ru/events/president/news/49261.

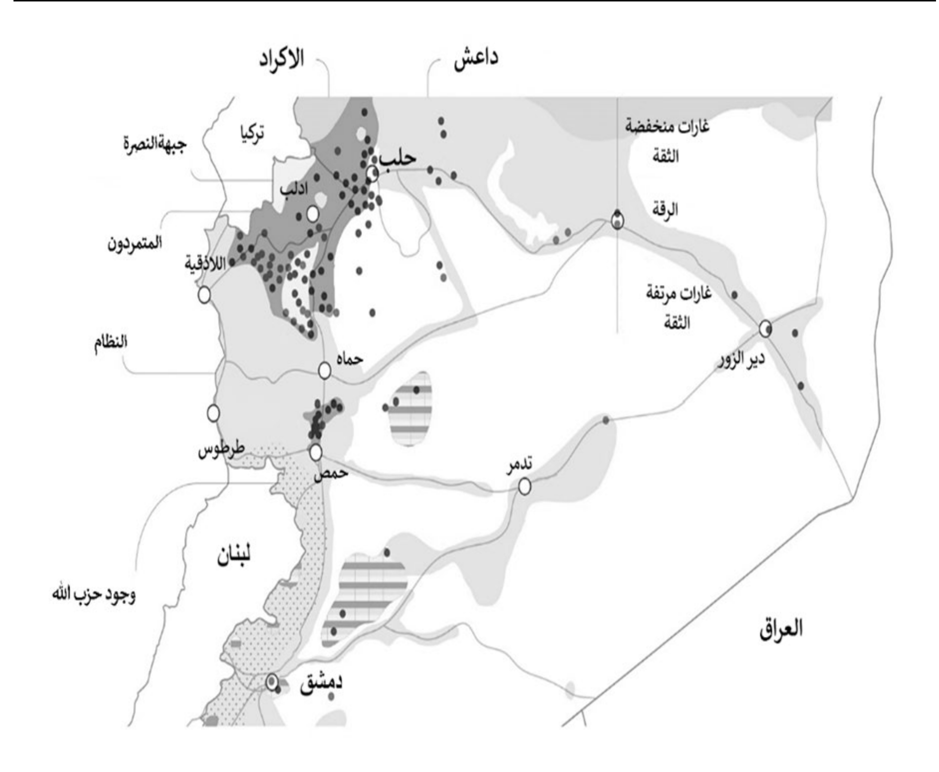
(2) «Russian Air Strikes on Syrian Targets Raise ‘Grave Concerns’ in US,» Financial Times, September 30, 2015.
https://www.ft.com/content/a72cee0a-674e-11e5-a57f-21b88f7d973f.

بدلاً من هزيمة داعش، كانت موسكو تساعد النظام السوري في سحق البديل السياسي الوحيد الباقي القابل للتطبيق -وهو مجموعة واسعة من الميليشيات العاملة تحت مظلة الجيش السوري الحر. كانت القوات السورية قادرة في النهاية بدعم من الغطاء الجوي الروسي من العودة إلى الأراضي الواقعة في غرب البلاد والتي فُقدت سابقاً، وفي استعادة حلب في نهاية المطاف. ولأن ذلك هو الهدف الحقيقي للحملة، فقد كان من المنطقي أن يعلن بوتين أن «المهمة أُنجزت» في ربيع 2016 عندما كانت داعش لا تزال تحتفظ بمساحة مساوية للأرض التي كان يسيطر عليها النظام السوري في ذلك الوقت[1]. واستمرت العمليات الروسية بالطبع، وأعلن بوتين في مناسبتين أخريين أن أهداف البعثة قد تحققت، معلناً النصر على داعش في كانون الأول/ديسمبر2017.

وعلى الرغم من أن كل الأدلة تشير إلى عكس ذلك، فقد حافظت موسكو على روايتها التي تقول إلى إنها جاءت لتحارب داعش، وليس لمجرد تغطية عملياتها في إطار حماية شرعية النظام؛ إذ سيؤدي التكرار المستمر للأكاذيب وتعرض العامة المتكرر لمعلومات كاذبة إلى قبولها لديهم على أنها الحقيقة- أو على الأقل تخلق عنصراً قوياً من الشك كما يظهر من الممارسة في نهاية المطاف، بغض النظر عن عدد المرات التي تم دحضها بفضل ظهور البيانات الموثقة بشكل كامل.

وفيما يأتي (الخريطة 5.1) التي تعطي تقدير الغارات الجوية الروسية في سورية من 30 أيلول/سبتمبر إلى 28 تشرين الأول/أكتوبر 2015، وتوضّح أن روسيا استهدفت بضرباتها المتمردين أكثر من داعش.

(1) «'More Than 90%' of Russian Airstrikes in Syria Have Not Targeted Isis, US Says,» The Guardian, October 7, 2015.
https://www.theguardian.com/world/2015/oct/07/russiaairstrikes-syria-not-targetting-isis; «Lawmakers Authorize Use of Russian Military Force for Anti-IS Airstrikes in Syria,» ITAR-Tass,September 30, 2015.
http://tass.ru/en/politics/824795; Atlantic Council, «Distract Deceive Destroy: Putin at War in Syria,» April 2016.
http://publications.atlanticcouncil.org/distract-deceive-destroy/assets/download/ddd-report.pdf.



المصدر: الاتحاد الأوروبي معهد الدراسات الأمنية ومعهد دراسة الحروب (EUISS).

ومع الترديد اللانهائي أن المعارضة السورية كانت تتواطأ مع داعش، فإن الخيارات في سورية كانت إما الأسد أو الإرهابيين الإسلاميين على رأس البلاد، وإن داعش كانت من صنع غربي في المقام الأول وتتمتع بدعم الغرب في جميع أحوال الصراع السوري، وإن روسيا كانت الدولة الوحيدة المستعدة لتدميرها؛ لذا فبالتأكيد كان لكل ذلك تأثير استراتيجي: فقد أزال مصداقية المعارضة السورية، وقلل من تعقيدات الحرب السورية، ووضعها أمام خيارين لا ثالث لهما، بين نظام الأسد واستيلاء المتطرفين الإسلاميين عليها، وأُسيء للدعم العام الأوروبي والأمريكي لتغيير النظام في سورية حينما كان اللاجئون فيه يتدفقون على أوروبا، وتمّ تصوير الحكومات الأوروبية والأمريكية على أنها مسؤولة عن إراقة الدماء. باختصار: كانت هذه حيلة تهدف إلى تغيير السياسة الغربية تجاه سورية، وتجاه روسيا نفسها التي كانت تعاني من العزلة بعد ضمّ شبه جزيرة القرم عام 2014 والحرب في دونباس.

الخطوة الأولى: المعارضة؟ أي معارضة؟

كانت الضحية الأولى لرواية داعش الروسية ولا تزال هي المعارضة السورية بالطبع؛ على الرغم من أن هدف الحملة الأساسي الناس في أوروبا أنفسهم، والولايات المتحدة - وفي الواقع في روسيا، التي يحتاج شعبها أيضاً للإقناع[1].

ومع أن تصريحات الكرملين بشأن الحملة العسكرية الروسية أظهرت بوضوح أن داعش هي الهدف، إلا أن اللغة الرسمية المستخدمة من قبل الحكومة ووسائل الإعلام سرعان ما بدأت تطمس الخطوط، مشيرةً إلى جميع الفصائل النشطة في سورية بـأنهم «متطرفين»، و«إسلاميين»، و«إرهابيين»[2]. وأصبحت المنظمات أيضاً مثل أصحاب الخوذ البيضاء المخصصة لإنقاذ المدنيين من مناطق القتال هدفاً لحملتها، لأنها اتهمتهم بصلتهم بالقاعدة[3]. كان ذلك تناقضاً صارخاً مع اللغة التي كانت مستخدمة من قبل: ففي السنوات الأولى من الحرب، لا بوتين ولا غيره من الموظفين الروس أشار إلى المعارضة بأكملها بهذه الأوصاف. وأشار بوتين في مقال رأي أنه على الرغم من تباعد أهداف الكرملين عن أهداف المعارضة منذ البداية، فالحديث كان عن عدم الاستقرار الذي طال أمده والتغيير السلمي، والرغبة بوضوح في منع الغرب من التدخل في سورية، والذي لن يؤدي إلا إلى الإرهاب. إذن في هذه المرحلة، كانت الرواية الروسية متناقضة مع رواية النظام التي صوّرت الانتفاضة منذ بداية الصراع على أنها من عمل الإرهابيين[4]. لكن ظهور داعش على ساحة المعركة السورية أدى إلى تغيير الخطاب

(1) Levada Center, «Syria and the Plane Crash in Egypt,» November 23, 2015. https://www.levada.ru/en/201523/11//syria-the-plane-crash-in-egypt/; Levada Center, «Syria,» July 10, 2016. https://www.levada.ru/en/201610/06//syria-2/.

(2) «Russian Anti-Terrorist op in Syria,» RT. https://www.rt.com/trends/russia-syria-op/; «Syria War: What the Mainstream Media Isn't Telling You about Eastern Ghouta,» RT, March 5, 2018. https://www.rt.com/op-ed/420521-syria-eastern-ghouta-aleppo-media/.

(3) «How Syria's White Helmets Became Victims of an Online Propaganda Machine,»The Guardian, December 18, 2017. https://www.theguardian.com/world/2017/dec/18/syria-white-helmets-conspiracy-theories; BBC Monitoring, «Syrian President Condemns West, Vows to Survive Protests,» January 11, 2012.

(4) Vladimir Putin, «A Plea for Caution From Russia,» New York Times, September 11,2013. https://www.nytimes.com/201312/09//opinion/putin-plea-for-caution-romrussia-on-syria.html.

في موسكو اعتباراً من 2014 فصاعداً، حيث أُعتُبرت جميع جماعات المعارضة المسلحة إما إسلامية أو متعاونة مع الإسلاميين. وقد خدمت هذه الرواية هدفين: الاستفادة من المشاعر العالمية، وخلق الاشمئزاز ضد داعش، وبالمثل، ضرب مصداقية تلك القوات التي يمكن أن تشكل تهديداً لنظام الأسد، لأنها لا تمثل بديلاً سياسياً موثوقاً به.

في الوقت نفسه تقريباً، ظهر اتجاه ثانٍ من الرواية: تصوير الصراع السوري تقريباً بمصطلحات مانوية (المانوية السياسية: تقسيم الأفكار أو الناس إلى مجموعتين: أولئك الذين ينتمون إلى الجانب الصالح، والآخر إلى الجانب السيئ بشكل غير قابل للاختزال تقريباً) كخيار بين نظام الأسد وداعش. لقد تم إقصاء المعارضة السورية الآن من النقاش نتيجة دمجها مع داعش، ولم تعد تظهر كخيار في هذه الرؤية للأمور. قال بوتين: «الناس لا يهربون من نظام بشار الأسد -إنهم يهربون من «الدولة الإسلامية»[1]. حتى أن وزير خارجيته سيرغي لافروف ادعى بأن «كل شركائنا الغربيين - بدون استثناء- يخبروننا أنهم يفهمون جيداً تماماً طبيعة التهديد الرئيسي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. انه - ليس نظام الأسد، بل الدولة الإسلامية»[2]. لم يكن أي من البيانين صحيحاً، بل لم يكن هذا هو الهدف، مثلما كان دوماً من بين المعلومات المضللة[3]. وبدلًا من ذلك، كان هذا الخطاب موجّهاً لإخراج المعارضة من المعادلة، وعرض الحرب السورية على أنها معركة بين نظام علماني وكيان إرهابي وحشي. وأشار موقع RT الإعلامي الروسي: «أن بشار الأسد في سورية ليس قائداً مثالياً، لكنه بالتأكيد

(1) Official website of the President of Russia, «Vladimir Putin Answered Russian Journalists' Questions,» September 4, 2015.
http://en.special.kremlin.ru/events/president/transcripts/50234.

(2) The Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation, «Foreign Minister Sergey Lavrov's Interview with Voskresnoye Vremya TV Programme, September 13, 2015,»September 13, 2015.
http://www.mid.ru/en/web/guest/foreign_policy/news/-/assetpublisher/cKNonkJE02Bw/content/id/1744777.

(3) «Assad Poses Bigger Threat to Syrians Th an Isis, Warns Think tank,» The Guardian,September 15, 2015.
https://www.theguardian.com/world/2015/sep/15/syrianpresident-bashar-al-assad-bigger-threat-than-isis; Charles Lister, «The West Is Walking into the Abyss on Syria,» September 28, 2015. https://www.brookings.edu/blog/markaz/201528/09//the-west-is-walking-into-the-abyss-on-syria/.

أفضل من الدولة الإسلامية»[1]. كان للرواية الروسية أيضاً تأثير على رؤية القادة الغربيين الذين تمّ تصويرهم على أنهم منافقون يقولون شيئاً في السر وآخر في العلن.

في النهاية، كان للتكرار المستمر لهذا الخطاب سطوته على الرأي العام الأوروبي والأمريكي بشأن الصراع السوري. فبحلول تشرين الأول/أكتوبر 2015، صرّح 70 % من الشعب الأمريكي بأن إدارته ليس لديها استراتيجية في سورية، واعتبر 53 % أن «بوتين له اليد العليا في سورية». حتى أن بعض وسائل الإعلام الغربية تبنت بشكل غير نقدي الرواية الروسية: أشارت صحيفة British Express (بريتيش إكسبريس) على سبيل المثال إلى أن 71 % من الناس قالوا، رداً على استطلاع نظمته الصحيفة، أنهم «يدعمون حملة القصف التي يشنها فلاديمير بوتين في سورية، والتي تستهدف عدداً كبيراً من المباني والمركبات المملوكة للدولة الإسلامية»- بينما كانت الطلعات الجوية الروسية في الواقع لا «تستهدف فقط» داعش[2].

بدأ الذين كانوا في الأصل داعمين للانتفاضات العربية عام 2011، وواضعي السياسات، والجمهور يرددون الروايات الروسية على حدٍ سواء. فعلى سبيل المثال، أعلن فرانسوا فيلون -رئيس وزراء فرنسي سابق ومرشح لرئاسة الجمهورية عام 2017- أن بشار الأسد كان حصناً ضد الإرهاب الإسلامي وحامي المسيحيين في الشرق الأوسط[3].

(1) «Syria's Bashar Assad Is Not a Perfect Leader, But Certainly Better Than Islamic State,»RT, March 31, 2017.
https://www.rt.com/op-ed/382958-assad-turkey-us-rex-tillerson/.

(2) Fox News Poll, «Syria, Benghazi and the US Economy,» October 14, 2015. http://www.foxnews.com/politics/interactive/201514/10//fox-news-poll-syria-benghazi-and-useconomy.html; «More Than 70 % Support for Vladimir Putin's Bombing Campaign Despite Middle East Tensions,» Express, October 13, 2015.
https://www.express.co.uk/news/uk/611495/Vladimir-Putin-bombing-campaign-poll-support-syria-middle-east.

(3) «Pour Bachar Al-Assad, la Position de Francois Fillon Sur la Syrie Est 'Une Tres Bonne Chose',» Le Monde, January 9, 2017.
https://www.lemonde.fr/electionpresidentielle-2017/article/201709/01//pour-bachar-al-assad-la-positionde-francois-fillon-sur-la-syrie-est-une-tres-bonne-chose_5059694_4854003.html#57QmCkAtQhPxfZ92.99.

وتبنّى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي فكرة أن جميع جماعات المعارضة في سورية يمكن وصفها معاً أنها إرهابية: «لقد سافرتُ في جميع أنحاء البلاد وتبيّن لي أن الفكرة التي انتهى إليها السوريون مراراً وتكراراً هو أن المتمردين أو المعارضة بالنسبة لهم كلهم إرهابيون»[1]، تناغماً مع الآراء التي عبّر عنها الرئيس بوتين في تشرين الأول/أكتوبر 2015، حيث صرّح: «لا داعي للعب بالكلمات وتقسيم الإرهابيين إلى معتدلين وغير معتدلين. أود أن أعرف ما هو الفرق»[2]. انضمت القائدة مارين لوبان من أقصى اليمين الفرنسي إلى الجوقة، فقالت: «السؤال يعود إلى الاختيار: هل تريد أن يكون هناك شكل من أشكال الدولة على الأقل أو داعش؟»[3].

وسرعان ما تغلغلت نظرة الأبيض والأسود للصراع في الرأي العام الغربي كذلك. وكررت وسائل الإعلام الأمريكية الرواية الروسية: «يظل دعم الأسد هو المسار الواقعي الوحيد الذي سيعيدنا إلى الاستقرار النسبي في أيام ما قبل الربيع العربي، وهذا سيهزم داعش. لا أحد أكثر تحمساً لهزيمة داعش من الأسد»[4]. وعندما دعا نائب فرنسي إلى التقارب مع الأسد في الحرب ضد داعش تساءلت إحدى الصحف الوطنية الرائدة: «هل علينا الاختيار بين الأسد

(1) «For Average Syrians, All Members of Opposition Are Terrorists— State Senator Richard Black,» RT, January 27, 2017. https://www.rt.com/op-ed/375287-syria-draft -constitution-rebels/.

(2) «Vladimir Putin Accuses US of Backing Terrorism in Middle East,» The Guardian, October 22, 2015.
https://www.theguardian.com/world/2015/oct/22/vladimir-putin-accuses-us-backing-terrorism-middle-east.

(3) «Le Pen Says Assad May Be Lesser of Two Evils for Syria's Future,» Bloomberg, February 20, 2017.
https://www.bloomberg.com/news/articles/201720-02-/le-pen-says-assad-may-be-lesser-of-two-evils-for-syria-s-future.

(4) «Accept the Uncomfortable Truth: It's Time to Support Assad,» National Review, January 7, 2016.
https://www. nationalreview.com/201601//supporting-assad-bestoption/; RTL, «Syrie: 'Il Faut se Rapprocher de Bachar al-Assad Pour Mieux Detruire Daesh', Dit Thierry Mariani,» May 22, 2015.
http://www.rtl.fr/actu/international/syrieil-faut-se-rapprocher-de-bachar-al-assad-pour-mieux-detruire-daesh-dit-thierrymariani-7778439575.

وداعش؟»[1]. بدأت مراكز الفكر أيضاً في الميل لصالح سياسة قبول بقاء الأسد في السلطة[2]. وفي نهاية المطاف، اعترف مبعوث الأمم المتحدة في سورية أيضاً ستافان دي ميستورا أن الأسد كان «جزءاً مهماً من الحل»، في حين تم اعتباره في الأصل جزءاً أساسياً من المشكلة[3]. وبدأت كل من فرنسا والولايات المتحدة في التراجع عن مطلبهم الأصلي بتنحي الأسد حتى قبل أن تبدأ المرحلة الانتقالية في سورية. بالطبع، لم يكن ذلك نتيجة المعلومات المضللة الروسية فقط، ولكن التمسك بتقديم روسيا للوضع على أنه في حالة غليان للاختيار بين الأسد والجهاديين.

كان ما اختفى من النقاش هو السبب الجذري للصراع السوري الذي لا علاقة له بداعش، بل كلياً مع الأسد.

الخطوة الثانية: لوم الغرب

كانت أوروبا والولايات المتحدة الهدف الثاني لهجمات الدعاية الروسية بعد المعارضة السورية. وتألفت هذه الرواية من شقين رئيسيين كما هو الحال مع الحملة ضد المعارضة: فقد أُتهم الغرب بتكوين إسلاميين في المقام الأول والتعاون الخفي معهم[4]. كلا الشقين من

(1) «Faut-il Choisir Entre Bachar el-Assad Et l'Etat Islamique?,» Le Figaro, May 26, 2015. http://www.lefigaro.fr/vox/monde/201520150526-31002/26/05/ARTFIG00196-faut-ilchoisir-entre-bachar-el-assad-et-l-etat-islamique.php.

(2) Jeremy Shapiro, «Bashar al-Assad Is a Monster. But Getting Rid of Him Won't Fix Syria,» European Council on Foreign Relations, March 3, 2016. https://www.ecfr.eu/article/commentary_bashar_al_assad_is_a_monster_bu_ getting_rid_of_him_wont_fix_sy; Michael E. O'Hanlon, «Deconstructing Syria: A New Strategy for America's Most Hopeless War,» Brookings, June2015 ,30 . https://www.brookings.edu/blog/order-from-chaos/201530/06//deconstructing-syria-a-new-strategy-for-americas-most-hopeless-war/.

(3) «U.N. Envoy Says Assad Is Crucial to Defusing Conflict in Syria,» New York Times,February 13, 2015. https://www.nytimes.com/201514/02//world/middleeast/un-envoy-to-syria-says-assad-is-crucial-to-hopes-to-end-war.html.

(4) «Reports on US Training 'Ex-Terrorists' in Syria Concerning,» RT, December 25, 2017. https://www.rt.com/news/414189-syria-terrorists-training-lavrov/; ITAR-Tass, «Washington Uses Terror Groups in Syria for Its Own Goals,» TASS, November 21, 2017. http://tass.com/politics/976604.

الرواية يصب في تصورات معينة، يميل إليها الجمهور في الشرق الأوسط وروسيا، وعلى أي حال، فمن المحتمل أنها مصممة بشكل أساسي ليتبنوها[1].

للردّ على ذلك، أولاً، إن الإسلامية ظاهرة خلقتها الدول الغربية هي فكرة منسوجة، تدور حول «الخطيئة الأصلية» المتمثلة في الدعم الأمريكي لطالبان خلال الغزو السوفيتي لأفغانستان. بينما كان الصحيح أن القوى الغربية ساعدت المجاهدين المعارضين لموسكو في ذلك الوقت، فإن الاتحاد السوفيتي هو الذي أغرق أفغانستان في أربعة عقود من الحرب الأهلية، وزعزع استقرار البلد بأكمله، وحشد الشبكات الإسلامية من جميع الأنواع في جميع أنحاء المنطقة. ومع ذلك، فإن هذا المفهوم يتماشى بدقة مع وجهة النظر التي سادت ذلك الحين بأن غزو العراق عام 2003 هو الذي مهّد الطريق لظهور داعش، كما ادعى الرئيس بوتين «إنها الولايات المتحدة التي أنشأت داعش، دعهم يفهموا أنهم فعلوا ذلك عن عمد». وفيما يتعلق بسورية، كانت هذه الرواية معززة بمزاعم في وسائل الإعلام الروسية بأن إدارة أوباما قامت بتسيير أمور التسلح لـ «تمرد عرفوا أنه مرتبط بالقاعدة من أجل الإطاحة بالحكومة السورية. لقد قامت القاعدة ببناء أكبر فرع لها في التاريخ كنتيجة مباشرة لسياسة تغيير النظام الأمريكية المتهورة هذه». وفي المقال نفسه، ادعت RT بأن الدول الغربية «أطالت المذبحة وعززت القاعدة»[2]. كان لهذه الاتهامات تأثير تدريجي على الرأي العام الأوروبي أيضاً: فقد بيّن استطلاع للرأي أن حوالي 31 % من المواطنين الفرنسيين يعتقدون أنه « تم التلاعب بالمنظمات الإرهابية الجهادية مثل القاعدة وداعش في الواقع من قبل أجهزة المخابرات الغربية»[3].

الجزء الثاني من الرواية هو أن الغرب لم يُطلق العنان للوحش فحسب، بل تواطأ مع الجهاديين في سورية أيضاً، كما ادعى وزير الخارجية الروسي لافروف. ووفقاً لهذا التفسير للأحداث، فإنه يفعل ذلك بالامتناع عن استهدافهم بضربات جوية، وعرقلة جهود النظام السوري

(1) Levada Center, «Syria,» October 22, 2014. https://www.levada.ru/en/201422/10//syria/.

(2) «Syria War: What the Mainstream Media Isn't Telling You about Eastern Ghouta,» RT, March 5, 2018. https://www.rt.com/op-ed/420521-syria-eastern-ghouta-aleppo-media/.

(3) IFOP, «Enqueˆte Sur le Complotisme,» December 2017, 69. https://jean-jaures.org/sites/default/files/redac/commun/productions/2018115158/0108/_-_rapport_02.01.2017.pdf.

لمحاربة داعش[1]. على سبيل المثال، ادعى بوتين أن التحالف قصف الرقة - «العاصمة» المعلنة من قبل داعش، ليس لهزيمة داعش، ولكن لعرقلة القوات الموالية للحكومة[2]. وفي كانون الأول/ديسمبر 2017، أعلن بوتين، بعد سقوط معاقل داعش في الموصل والرقة (حيث لم تقصف روسيا أياً منهم): «لقد هزمنا داعش». لقد حدث العكس في الحقيقة؛ فبينما بالكاد قصفت روسيا داعش، فإن معظم المعارك التي نجحت في انتزاع الأراضي السورية والعراقية من سيطرة التنظيم الإرهابي قامت بها القوات الكردية، والحكومة العراقية مع دعم جوي، واستخباراتي غربي وثيق، وحتى بعض القوات الخاصة الغربية على الأرض. وعندما أعرب وزير الخارجية الفرنسية جان إيف لودريان عن دهشته من هذا الادعاء الروسي، أشار إلى أن النظام السوري إذا كان هو من هزم داعش، فما زال لا يقدم الامتنان للجهود الغربية[3].

رواية مقنعة؟

وظّفت روسيا الاستياء الدولي من الفظائع التي ارتكبتها داعش لثلاثة أغراض أساسية: تحقيق هدفها الاستراتيجي المتمثل في ضمان بقاء النظام السوري، وتشويه الجهود الغربية ليس فقط في سورية فحسب، ولكن في المنطقة عموماً، وتعزيز الدعم لاستراتيجيتها وسياساتها. وتم قبول «رواية داعش» الروسية بشكل أساسي في روسيا نفسها؛ حيث لم يكن تأثيرها في أوروبا والولايات المتحدة عميقاً كفاية، لكنها مهمة بما يكفي لإحداث تصدعات في شبه إجماع سابق عن الحرب السورية باعتبارها انتفاضة مبررة أخلاقياً ضد نظام قمعي

(1) «US Protecting Syria Jihadist Group—Russia's Lavrov,» BBC News, September 30,2016. http://www.bbc.com/news/world-europe-37520793; «Russia Accuses US of Training ex-ISIS Fighters in Syria,» New York Post, December 27, 2017. https://nypost.com/201727/12//russia-accuses-us-of-training-former-islamic-state-fighters-in-syria/.

(2) «'Go Back to Raqqa & Bury Bodies': Putin Calls for Investigation into Strikes on Civilians in Syria,» RT, March 10, 2018.
https://www.rt.com/news/420923-raqqacrimes-investigation-putin/; «US Destroying Syrian Cities Liberated from ISIS to Obstruct Pro-Assad Forces–Analyst,» RT, October 15, 2017. https://www.rt.com/news/406751-mayadeen-syria-liberation-isis/.

(3) Official website of the president of Russia, «Meeting with President of Syria Bashar al-Assad,» December 11, 2017. http://en.kremlin.ru/events/president/transcripts/56353; «Russia Bewildered at France's Statement on Syria,» AMN, December 10, 2017. https://mobile.almasdarnews.com/article/russia-bewildered-frances-statement-syria/.

ووحشي. ومع ذلك، لم تنجح الاتصالات الاستراتيجية الروسية في تغيير كل من السياسات الأوروبية أو الأمريكية تجاه سورية - لكنها نجحت على أي حال في الوقت الحالي، بإيصال الجهود الدولية للاتفاق على الانتقال عبر التفاوض في سورية إلى شبه توقف.

على أية حال، كان ما فشلت فيه روسيا هو إقناع سكان الشرق الأوسط بهذه القصة: حيث يرى ثلثا العرب أن دور روسيا في الصراع السوري سلبي، وفقاً لاستطلاعات مختلفة. ويرى ثلاثة من كل أربعة عرب في المتوسط بأن روسيا مصدرٌ رئيسيٌ لعدم الاستقرار في سورية - ترتيبها على بعد بضع نقاط فقط من الولايات المتحدة باعتبارها جانياً أولياً[1]. وإجمالًا، فإن 66 % من المواطنين العرب لديهم تصور سلبي عن روسيا، بينما 75 % لديهم وجهة نظر سلبية تجاه الولايات المتحدة، و69 % يقولون أن روسيا تشكل خطراً على الاستقرار العربي[2]. وعلى الرغم من أن الكثير كتب عن «عودة روسيا إلى الشرق الأوسط»، لكن يبدو أن هذا يتعلق أكثر بقوة الإسقاط الإعلامي من الواقع الحقيقي.

وباختصار، يمكن استخلاص بعض الدروس المهمة من استخدام روسيا لداعش كأداة اتصال استراتيجي: الأول هو أن التكرار وحده يكفي في كثير من الأحيان لخلق وهم الحقيقة، وغالباً ما تكون الجهود المبذولة لدحض مثل هذه الادعاءات بلا جدوى. يطرح ذلك تحديات لصنّاع السياسة الغربيين الذين يسعون لاستبدال الأخبار المزيفة بالأخبار الحقيقية. الثاني هو أنه في حين أن الاتصال وحده لا يكفي لتغيير سياسة الدولة، فمن الممكن أن يقوّض جهودها بشكل كبير؛ إن الرواية الروسية في سورية قد غيّرت ديناميكيات حكايات الحرب لصالحها على الرغم من عدم نجاحها أساساً بالقدر الذي كان يُخشى منها. ثالثاً، تنبني الرواية الروسية على المظالم التاريخية مثل الدعم الغربي المزعوم لطالبان أثناء الحرب بين الاتحاد السوفيتي وأفغانستان في الثمانينيات، وغزو العراق، وحملة الناتو في ليبيا، لتعزيز حجتها وبناء أكبر حالة معادية للغرب. ونتيجة لذلك، أصبحت قصتها أكثر تصديقاً وبالتالي أعظم صدىً. رابعاً

(1) Zogby Research Services, «Middle East 2016: Current Conditions and the Road Ahead,» November 2016.
https://static1.squarespace.com/static/52750dd3e4b08c252c723404/t/58509580ff7c5039b9505e671481676164948//SBY2016+FINAL.pdf.

(2) Arab Center Washington DC, «2016 Arab Opinion Index,» 11; Zogby Research Services, «Sir Bani Yas Forum—Public Opinion 2017,» 7.

وأخيراً، استخدمت روسيا داعش للتقليل من تعقيدات الحرب في سورية، والانتقال إلى خيار حاسم بين نظام الأسد والإرهاب الإسلامي. وهذه النسخة من الأحداث يتوق إلى تصديقها الجمهور الذي سئم من الحرب.

إن التأثير التراكمي لهذه العوامل هو أنه بينما كانت روسيا قدمت تدخلها في سورية في خريف عام 2015 كعملية لمكافحة الإرهاب، وكان من المفترض أن يؤدي إلى تحالف مع الغرب (وبالتالي إلى فك العزلة عن روسيا بعد الحرب في أوكرانيا والتخفيف من العقوبات)، فقد انتهى عدم حرب موسكو على داعش إلى التصعيد - وليس التخفيف - من التوترات مع الغرب.

الفصل 6

صادرات الأسلحة الروسية في الشرق الأوسط

تيموفي بوريسوف

كانت روسيا واحدة من أكثر اللاعبين نشاطاً في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على صعيد تجارة الأسلحة منذ منتصف القرن العشرين، باستخدام صادرات للسلاح كأداة لسياسة خارجية فعّالة.

كان أول اختراق رئيسي في هذا المجال هو صفقة الأسلحة التشيكية المصرية لعام 1955 التي أمّنت توريد دفعة كبيرة من الأسلحة السوفيتية بقيمة 250 مليون دولار لمصر[1]. وبدأ الاتحاد السوفيتي بتورد المبيعات إلى سورية خلال الفترة نفسها. وبحلول السبعينيات وسّع بشكل كبير وجوده في سوق السلاح الإقليمي، مُضيفاً مجموعة من العملاء من الدول العربية الاشتراكية: الجزائر، والعراق، وليبيا، واليمن الجنوبي. مع مرور الوقت، تجاوزت واردات تلك الدول الخمس من السوفيت واردات أقرانه من أعضاء حلف وارسو[2]. وتضمنت قاعدة عملاء روسيا في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أيضاً الأردن، والكويت، والسودان (حتى أوائل السبعينيات)[3].

أدت الحالة العامة للاقتصاد والمشاكل السياسية الداخلية في روسيا بعد انهيار الاتحاد

(1) Mikhail Barabanov, Konstantin Makienko, Ruslan Pukhov, and Aleksandr Rybas, «Voenno-Tehnicheskoe Sotrudnichestvo Rossiis Zarubezhnymi Gosudarstvami: Analiz Rynkov [Military-Technical Cooperation between Russia and Foreign Countries: A Market Analysis],» Centre for Analysis of Strategies and Technologies (Moscow: Nauka, 2008), 42–3.

(2) Ibid.

(3) Robert O. Freedman, Soviet Policy towards the Middle East since 1970 (New York: Praeger, 1982).

السوفيتي إلى انخفاض حاد في صادرات الأسلحة في جميع الاتجاهات، بما في ذلك منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وعانت شركات الصناعات الدفاعية من قلة الاستثمار والتسويق المحلي، واضطر العديد منها إلى تبديل خطوط إنتاجها باتجاه السلع المدنية أو حتى باتجاه تصفية الشركات. وعلى الرغم من عقود توريد BMP-3 مركبات قتال المشاة (IFVs) و Smerch لأنظمة إطلاق الصواريخ المتعدد (MLRS) إلى الكويت والإمارات العربية المتحدة، والتي كانت ثانوية من منظور سياسي وتسويقي، فإن الوجود الروسي في سوق الأسلحة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من التسعينيات حتى منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين غير مهم، وبدت موسكو وكأنها في مكان آخر. وخلال تلك الفترة، شكّلت الصين والهند معاً من60 إلى 80 % من جميع الإمدادات الروسية[1]. ومع ذلك، بدأ ذلك يتغير منذ عقد أو نحو ذلك.

تم عقد أول صفقة أسلحة كبيرة مع إحدى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام 2006؛ إذ وقّعت موسكو مع الجزائر على حزمة من الاتفاقات بقيمة 7.5 مليار دولار، وهي تشتري في هذه الأيام أسلحتها بشكل أساسي من روسيا. لقد اشترت الجزائر من عام 2009 إلى عام 2011 أسلحة روسية أكثر من الصين، وشمل ذلك MIG 34 (ميج)، و29 طائرة مقاتلة خفيفة الوزن من طراز SMT /UMT، و28 طائرة مقاتلة ثقيلة متعددة الأغراض من طراز (Su-30MKI A)، و16 من طائرات التدريب النفاثة المتقدمة من طراز Yak-130، و8 مجموعات من طراز (S-300PMU-2 SA-20) أنظمة صواريخ بعيدة المدى أرض-جو (SAMs)، و18 دبابة قتال رئيسية MBTs من طراز T-90SA. كما وقّعت عقوداً مع روسيا لتحديث 250 دبابة من طراز T-72M و40 IFVs (مركبة قتال المشاة) من طراز BMP-1، وتسليم Metis-M1 وKornet-E وهي أنظمة صواريخ موجهة مضادة للدبابات(ATGMs) [2].

(1) «Interviu Zamestitelya Direktora FSVTS Rossii M.V. Petuhova [Interview with Mikhail Petukhov, Deputy Director of the Federal Service for Military-Technical Cooperation of Russia],» August 26, 2010.
http://www.fsvts.gov.ru/materials/26795A8 AD42B3137C325778B0042FB8B.html.

(2) «Aljir Priobretiot v Rossii Eshio Dve Podlodki [Algeria Will Acquire Two More Submarines in Russia],» Kommersant, May 18, 2006.
https://www.kommersant.ru/doc/674444.

أعطت الصفقة الجزائرية دفعة مهمة لصادرات الأسلحة الروسية في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، على الرغم من أنها لم تؤدّ على الفور إلى تعزيز مكانة روسيا في سوق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. علاوة على ذلك، أعاقت العديد من التطورات التي لم يكن لدى الكرملين السيطرة الكاملة عليها طموحات روسيا في هذا الصدد. فخلال الأعوام 1989-1991 وقّعت روسيا وإيران عدة عقود بقيمة 5.1 مليار دولار. وعلى مدى السنوات التالية، تلقت طهران كميات كبيرة من الأسلحة، بما في ذلك مقاتلات من طراز 29-MiG، وطائرات هجومية من طرازSu-24MK، وأنظمة SAM S-200VE (SA-5)، وغواصات أصلية من فئة Kilo (مشروع 877EKM)[1]. كما وافقت روسيا على المساعدة في تنظيم ترخيص إنتاج دبابات من طراز T-72S وBMP-2 IFVs في إيران، ولكن في أواخر التسعينيات وتحت ضغط الولايات المتحدة، تعهدت الحكومة الروسية بإتمام جميع الشحنات وفق العقود القائمة بحلول نهاية عام 1999، ثم توقف مبيعات الأسلحة لإيران. ولم يتم استئناف التعاون إلا بقدرٍ محدود بعد عام 2000؛ ومع ذلك، قررت روسيا عام 2010 مرة أخرى قطع إمدادات الأسلحة عن إيران كجزء من تنفيذ UNSCR (قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (رقم 1929 المعتمد في 9 حزيران/يونيو 2010)، وتجميد الاتفاقية المبرمة سابقاً لتسليم أنظمة SAM من طراز PMU2 (SA-20) [2]. وفي وقت لاحق من عام 2011، صوّتت موسكو أيضاً لصالح حظر الأسلحة الذي تفرضه الأمم المتحدة على ليبيا (قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة 1970)، مما أدى إلى خسارة أرباح متوقعة تصل إلى 7 مليارات دولار[3]. لقد شوّهت هذه الأحداث سمعة روسيا باعتبارها مورداً موثوقاً للأسلحة بصرف النظر عن الخسائر المالية المتكبدة.

ومع ذلك، أصبحت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في السنوات الأخيرة واحدة

(1) According to NATO's classification the Kilo-class refers to Russian-made attack submarines powered by diesel-electric propulsion.

(2) «Ukaz Prezidenta Rossiiskoi Federatsii no.1154 [Decree of the President of the Russian Federation no.1154],» Kremlin.ru, September 22, 2010. http://kremlin.ru/acts/bank/31772.

(3) «Ukaz Prezidenta Rossiiskoi Federatsii no.286 «O Merah po Vypolneniu Rezoliutsii Soveta Bezopasnosti OON 1970 ot 26 fevralia 2011 g. [Decree of the President of the Russian Federation no. 286 on Measures to Implement UN Security Council Resolution No. 1970 from 26 February 2011],» Rossiiskaya Gazeta, March 11, 2011. https://rg.ru/201111/03//livia-site-dok.html.

من أكبر المناطق الحاصلة على الأسلحة الروسية. ويرجع ذلك في بعض المقاييس على الأقل إلى نجاح الحملة العسكرية الروسية في سورية. ففي عام 2015، شكّلت المنطقة 36 % من جميع صادرات الأسلحة الروسية، لتصبح ثاني أهم سوق بعد آسيا والمحيط الهادئ، التي تمثل 48 %[(1)]. وفي عام 2017، تجاوزت المعدات العسكرية الروسية 15 مليار دولار[(2)]. وأصبحت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الآن أكبر متلقٍ للأسلحة الروسية، أي ما يقرب من 50$ من إجمالي الصادرات. علاوة على ذلك، هناك عقود مع ثلاث وعشرين دولة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بقيمة 8 مليار دولار أو 20 % من محفظة الطلبات، وفقاً لألكسندر ميخيف المدير العام لـ Rosoboronexport (روسوبورون اكسبورت)؛ وهي وكالة تصدير الأسلحة التابعة للدولة الروسية[(3)].

وفي شباط/فبراير 2019 قال ديمتري شوغاييف، رئيس القسم الفيدرالي للتعاون الفني العسكري لصحيفة *Komersant* (كوميرسانت): إن سوق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كان شديد الأهمية بالنسبة لروسيا، وإن هناك عشر دول (بشكل أساسي من الشرق الأوسط) مهتمة بشراء أنظمة S-400[(4)]. وفي وقتٍ لاحق من الشهر نفسه، قال الرئيس التنفيذي لشركةRostec CEO سيرغي تشيميزوف في IDEX (آيدكس) 2019- معرض الدفاع الدولي في أبو ظبي: أن صادرات الأسلحة الروسية إلى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد وصلت في عام 2018

(1) Andrey Frolov, «Itogi Voenno-Tehnicheskogo Sotrudnichestva Rossii s Inostrannymi Gosudarstvami v 2015 godu [The Results of the Military-Technical Cooperation of Russia with Foreign States in 2015],» CAST, January 2016. http://cast.ru/products/articles/itogi-voenno-tekhnicheskogo-sotrudnichestva-rossii-s-inostrannymigosudarstvami-v-2015-godu.html

(2) «Meeting of Commission for Military-Technical Cooperation with Foreign States,» Kremlin.ru, March 5, 2018. http://en.kremlin.ru/events/president/news/56981.

(3) «Rosoboroneksport Polnostiu Vypolnit Godovoi Plan po Eksportu Vooruzhenia [Rosoboronexport Will Fully Implement the Annual Plan for Arms Exports],» ITARTass, November 15, 2017. http://tass.ru/armiya-i-opk/4731347.

(4) «Direktor FSVTS Dmitri Shugaev o Sushestvuiushih Slozhnostiyah i Otkryvaiushihsya Perespektivah Oruzheinogo Eksporta [Director of FSMTC Dmitry Shugaev on the Existing Difficulties and the Emerging Prospects of Arms Exports],» Kommersant, February 6, 2019. https://www.kommersant.ru/doc/3874641.

إلى 6 مليارات دولار[1]. ومن المحتمل أن يُعزى هذا الرقم إلى مبيعات روسوبورون اكسبورت فقط [شركة التصدير والتوريد الروسية للأسلحة]، في حين أن الحجم الإجمالي يتضمن قطع الغيار والصيانة بقيمة 7.2 مليار دولار أي حوالي 45 % من إجمالي مبيعات الأسلحة الروسية خلال ذلك العام[2]. وبحسب شوغاييف، تشكّل الطائرات وأنظمة الدفاع الجوي ما يقرب من 40 % من إجمالي صادرات الأسلحة الروسية إلى المنطقة[3].

إن الجزائر هي واحدة من أكبر مستوردي الأسلحة الروسية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إذ تلقت في2007-2009 ثمان وعشرين مقاتلة متعددة الأدوار من طراز (Su-30MKIA)) تحت عقد 1.5 مليار دولار لعام 2006، وفي 2011-2012 استحوذت على عقد ست عشر طائرة أخرى بقيمة 0.9 مليار دولار. وفي عام 2015، تم توقيع العقد الثالث لأربع عشرة مقاتلة من طراز Su-30MKI A، وقد تم تسليم أول ثمانية منها في كانون الأول/ديسمبر 2016[4]. وخلال السنوات الأخيرة، قامت روسيا أيضاً بتزويد الجزائر بأنظمة سام متوسطة المدى (17-Buk-M2E SA)، وأنظمة سام/مدفع قصيرة المدى (Pantsir-S1 SA-22)، وطائرات هليكوبتر هجومية من طراز Mi-28NE، ومروحيات ناقلة ثقيلة من طراز Mi-26T2. ويمكن أن تتضح أهمية سوق السلاح الجزائري بالنسبة لروسيا من حقيقة أنها كانت الدولة الثانية التي اشترت نظام الصواريخ الباليستيّة (القذائفيّة) قصيرة المدى (-SS

(1) Alexey Nikolsky, «Blizhnii Vostok Stanovitsya Krupneishim Rynkom dlya Rossiiskih Vooruzhenii [Middle East Is Becoming the Largest Market for Russian Weapons],» V edomosti, February 18, 2019.
https://www.vedomosti.ru/politics/articles/2019794445-/18/02/blizhnii-vostok-stanovitsya-krupneishim-rinkomvooruzhenii.

(2) Ibid.

(3) «Glava FSVTS Dmitrij Shugaev o potenciale eksporta rossijskogo vooruzheniya [«Dmitry Shugaev, the Head of the FSMTC, on the Potential on the Prospects of Russian Arms Exports],» RT, November 21, 2019.
https://russian.rt.com/russia/article/689034-dmitrii-shugaev-intervyu-vystavka-dubai-airshow-2019.

(4) «Aljir Poluchil Pervye Vosemi Istrebitelei Su-30MKI(A) po Tretiemu Kontraktu [Algeria Received the First Eight Su-30MKI(A) Fighters under the Th ird Contract],» BMPD, January 1, 2017.
https://bmpd.livejournal.com/2355958.html.

26 Iskander-E) بعد أرمينيا، وهي عضو في (CSTO) منظمة معاهدة الأمن الجماعي مع روسيا[1]. وهناك مثال آخر هو العقد الموقع عام 2014 بترخيص إنتاج لمائتي دبابة من نوع T-90SA MBTs بتكلفة تقديرية 1 مليار دولار، مما يجعلها واحدة من أكبر الصفقات في السوق العالمية بخصوص هذا النوع من الأسلحة[2]. وتلقت الجزائر في المجموع العام منذ عام 2006 أكثر من خمسمئة دبابة T-90SA. (في المقابل، تمتلك فرنسا، وألمانيا، والمملكة المتحدة بين 200 و250 دبابة لكل منهم). وفي كانون الأول/ديسمبر 2019، ذكر موقع *MENA Defense* (مينا ديفينس) أن القوات الجوية الجزائرية وقعت عقوداً لشراء أربع عشرة طائرة من طرازSu-57 من مقاتلات الجيل الخامس، وأربع عشرة قاذفة قنابل من طراز Su-34، وأربع عشرة مقاتلة متعددة الأدوار من طراز Su-35، ويجب أن تكتمل عمليات التسليم بحلول عام [3]2025. بشكل عام، تبيع روسيا إلى الجزائر المعدات المتطورة تقنياً، والتي لا تأتي فقط بعائدات أكبر ولكن تجلب أيضاً هيبة ونفوذاً جيوسياسياً في المنطقة.

من يشتري أيضاً أسلحة روسية في المنطقة؟

المتلقي الرئيسي الآخر هو العراق، فعلى الرغم من أنه كان في الفترة بين عامي 2003-2012 موجَّهاً بشكل رئيسي تجاه واردات الأسلحة من الولايات المتحدة، لكنه وقّع في عام 2012 اتفاقية شاملة بقيمة 4.2 مليار دولار مع روسيا، والتي كانت أكبر صفقة أسلحة لموسكو في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في ذلك الوقت، وفي عام 2014، أصبح العراق

(1) «Rossya Postavila OTRK Iskander-E v Odnu iz Stran Severnoi Afriki [Russia Has Delivered Iskander-E Ballistic Missile Systems to a Country in the MENA region],» RIA Novosti, November 15, 2017.
https://ria.ru/defense_safety/201711151508832294/.html.

(2) Alexey Nikolsky, «Zakliuchen Kontrakt po Litsenzionnomu Proizvodstvu Tankov T-90 v Aljire [The Contract on Licensed Production of T-90 Tanks in Algeria Concluded],» Vedomosti, February 20, 2015.
https://www.vedomosti.ru/newspaper/articles/201520/02//tank-alzhirskoi-sborki.

(3) «Algeria Is the First Export Client for the Russian Su-57 Stealth Fighter and the Su-34 Bomber,» MENA Defense, December 27, 2019.
https://www.menadefense.net/nonclasse-en/algeria-is-the-first-export-client-for-the-russian-su-57-stealth-fi ghter-andthe-su-34-bomber.

ثاني أكبر مستورد للمعدات العسكرية الروسية بعد الهند، وخلال ذلك العام، استلمت بغداد تسع طائرات هجومية من طراز Su-25، واثنتي عشرة من أنظمة قاذفات اللهب الثقيلة من طراز TOS-1A، وست طائرات هليكوبتر من طراز Mi-28NE، وما يصل إلى عشر طائرات هليكوبتر هجومية من طراز Mi-35M؛ كما بدأت عمليات تسليم أنظمة Pantsir-S1، تقدر كلها بـ1.7 مليار دولار[1]. وفي المجموع العام، تلقى العراق خمس عشرة طائرة هليكوبتر هجومية من طراز Mi-28NE، وثمان وعشرين طائرة هليكوبتر هجومية من طراز Mi-35M. وفي عام 2014 تم توقيع عقد توريد BMP-3 IMVs، ولكن تأخر التنفيذ بسبب مشاكل مختلفة، وأول التسليمات كانت فقط في آب/أغسطس 2018[2]. ووفقاً لألبرت باكوف -نائب رئيس شركة Concern Tractor Plants (منتج BMP-3)، فإن العدد الإجمالي للمركبات المطلوبة هو خمسمئة[3]. وفي شباط/فبراير 2018، اشترى العراق ستاً وثلاثين دبابة T-90S MBTs ومن المتوقع تسليم سبع وثلاثين أخرى بحلول أواخر نيسان/أبريل[4]، وهو يعتبر الآن أحد المتلقين المحتملين لأنظمة سام S-400 (SA-21)[5]. وفي أيار/مايو 2019، أعلن حيدر منصور هادي -سفير جمهورية العراق لدى روسيا الاتحادية أن الحكومة العراقية اتخذت قراراً وأنها تريد شراء S-400s، لكن لم يكن هناك اتفاقية موقعة أو أي وثيقة رسمية أخرى لإبرام الصفقة[6].

(1) Elena Chernenko, Sergey Goryashko, and Ivan Safronov, «Bagdad Vyshel v Chislo Liderov po Zakupkam Vooruzhenii u Moskvy [Baghdad Was among the Leaders in Arms Procurement from Moscow],» Kommersant, March 28, 2015. https://www.kommersant.ru/doc/2697125.

(2) «V Irak Dostavlena Pervaya Partya BMP-3 [The First Batch of BMP-3's Delivered to Iraq],» BMPD, August 29, 2018.
https://bmpd.livejournal.com/3322045.html.

(3) «Irak i Saudovskaya Aravya Hotyat Kupiti Pochiti 1,5 tysyachi BMP-3 [Iraq and Saudi Arabia Want to Buy Almost 1500 BMP-3's],» ITAR-Tass, September 30, 2015. https://tass.ru/armiya-i-opk/2302766.

(4) «Iraqi Defense Ministry Receives T90S Tanks from Russia,» ITAR-Tass, February 19,2018. http://tass.com/defense/990795.

(5) «Bondarev Rasskazal o Vozmozhnyh Pretendentah na Pokupku S-400 [Bondarev Told about Possible Candidates for the Purchase of S-400],» Ria Novosti, January 2018.
https://ria.ru/defense_safety/201801231513157260/.html.

(6) «Iraq to Purchase Russia's S-400 Missile Systems,» ITAR-Tass, May 15, 2019. https://tass.com/defense/1058382.

مصر التي كانت لديها صفقة أسلحة ضخمة مع الولايات المتحدة، كجزء من اتفاق كامب ديفيد مع إسرائيل، هي شريك مهم آخر لروسيا. ففي عام 2013، وقعت الدولتان اتفاقيات بقيمة تزيد عن 3 مليارات دولار لتوريد (15-Tor-M2E (SA)، وأسلحة نارية، وذخيرة. وفي عام 2015، تم التوقيع على عقد آخر لست وأربعين طائرة من طراز MiG-29M /M2 بتكلفة تقديرية بلغت 2 مليار دولار[1]. كانت مصر أيضاً أول بلد طلب طائرات هليكوبتر هجومية من طراز Ka-52s؛ فوقّعت عقداً لشراء ست وأربعين طائرة من طراز Ka-52s في عام 2015، وتم تسليم أولى الشحنات في حزيران/يونيو 2017. وفي آذار/مارس 2018، ذكرت صحيفة كوميرسانت نقلاً عن اثنين من كبار المديرين من صناعة الدفاع الروسية أن روسيا ومصر وقعتا اتفاقية لتوريد أكثر من عشرين من مقاتلات Su-35 متعددة الأغراض، تبلغ قيمتها حوالي 2 مليار دولار. كان من المتوقع أن تبدأ عمليات التسليم في 2020-1. في وقتٍ لاحق دحض مسؤولو روسوبورون اكسبورت هذه المعلومات قائلين إن روسيا مستعدة لذلك لكن لم يتم توقيع أي عقد[2].

هل تُنشِّط الحملة السورية صادرات الأسلحة الروسية؟

كان للحملة السورية تأثيراً أيضاً على كيفية متابعة روسيا وسعيها لاستراتيجية تصدير أسلحتها إلى الشرق الأوسط. هذا التأثير ليس قابل للقياس الكمي على الفور ولكنه موجود. وقد كان لتورط روسيا في الصراع السوري عدة نتائج فيما يتعلق بالترويج لمنتجاتها العسكرية والمنتجات ذات الاستعمال المزدوج.

الأثر الأول والأكثر وضوحاً هو تسويق أنظمة الأسلحة الروسية. لقد اختبرت موسكو خلال تدخلها في سورية حوالي ثلاثمائة نوع جديد من الأسلحة والمعدات العسكرية في ظروف

(1) Alexey Nikolsky, «Soglasovan Kontrakt na Postavku 46 Istrebitelei MiG-29 v Egipet [The Contract for the Supply of 46 MiG-29 Fighters to Egypt Signed],» Vedomosti,May 24, 2015. https://www.vedomosti.ru/politics/articles/2015593348-/25/05/soglasovan-kontrakt-na-postavku-46-istrebitelei-mig-29-v-egipet.

(2) «Rosoboroneksport Oproverg Nalichie Kontrakta na Postavku Su-35 Egiptu [Rosoboronexport Denied the Signing of a Contract for the Supply of Su-35 Fighters to Egypt],» Interfax, March 26, 2019.
https://www.interfax.ru/russia/655788.

القتال الحقيقية[1]، وأكد الرئيس بوتين نجاح الجيش الروسي في استخدامه الأول للأسلحة بعيدة المدى عالية الدقة، وهي صواريخ كاليبر المُطلقة من البحر، وصواريخ كروز 101-K المُطلقة من الجو[2]. وأظهرت العديد من الأنظمة أداءً جيداً، ومن المحتمل أن تكون جاذبيتها قد زادت للمشترين المحتملين. تضمنت هذه الأنظمة: قاذفات 34-Su، ومقاتلات متعددة المهام -Su 30SM و35-Su وطائرات الهليكوبتر Mi-28N و52-Ka، على سبيل المثال لا الحصر. في الوقت نفسه، كشفت العملية من حين لآخر عن أوجه قصور معينة في أنظمة أسلحة محددة، وقدمت معلومات يمكّن المهندسين الروس في ضوئها من إجراء مزيد من التحسينات.

أما التأثير الثاني، الذي ربما يكون الأكثر أهمية، فهو أن روسيا قد أظهرت أنها فاعل أمني مهم يستحيل تجاهله، علاوة على ذلك، فإن الدعم الروسي العسكري والسياسي للحكومة السورية في مثل هذه الفترة الصعبة يمكن أن يتم تقويمه من قبل القادة السياسيين للقوى الإقليمية الأخرى أنه مؤشر على أن موسكو شريك مسؤول وموثوق.

يمكن أن تسهم هذه العوامل مجتمعة في تعزيز الأسلحة الروسية والمعدات العسكرية في جميع أنحاء المنطقة. فقد تم رصد إحدى المؤشرات على هذا التأثير في كانون الأول/ ديسمبر 2015: حينما تم إحياء المفاوضات على توريد قاذفات 32-Su (نسخة تصدير من 34-Su) إلى الجزائر بعد ما يقرب من ثمان سنوات على بدئها، حسبما ذكرت وسائل الإعلام، على الرغم من أنه لم يتم توقيع هذا العقد بحلول نهاية عام 2019. إن التكلفة التقديرية لاثنتي عشرة طائرة 32-Su كانت حوالي 500-600 مليون دولار[3]. وفي نيسان/أبريل 2018، وصف ألكسندر ميخيف مدير شركة روسوبورون اكسبورت تأثيرات الحملة السورية على تصدير السلاح الروسي على النحو التالي:

---

(1) «Rossia Protestirovala v Sirii 316 Obraztsov Vooruzhenya [Russia Tested in Syria 316 Types of Military Hardware],» RIA Novosti, March 11, 2019. https://ria. ru/20190311551688108/. html.

(2) «Putin Zayavil o Primenenii v Sirii 215 Sovremennyh Vidov Vooruzhenii [Putin Noted Th at Russian Forces Used Some 215 New Types of Advanced Weapons Systems in Syria],» Interfax, January 30, 2018.
http://www.interfax.ru/russia/597769.

(3) Ivan Safronov, «Kakim Sprosom Polizuetsya Rossiiskoe Oruzhie posle Sirii [What Is the Demand for Russian Weapons After Syria?],» Kommersant, March 28, 2016. https://www. kommersant.ru/doc/2932551.

«نشعر باهتمام متزايد من شركائنا الأجانب بالأسلحة والمعدات العسكرية التي أثبتت تميّز أدائها في ظروف القتال خلال عملية مكافحة الإرهاب في سورية. إن هذا ينطبق على الطائرات المقاتلة، وطائرات الهليكوبتر، والعربات المدرعة، والأسلحة البحرية، والجوية، والأرضية. نعم، يوجد اهتمام بجميع أنظمة الأسلحة الروسية تقريباً. هل هناك أي طلبات محددة، وهل تنمو محفظتنا من الطلبات؟ كلاهما صحيح، ولكن دعونا لا نتسرع»[1].

العملاء المحتملون

أبدت المملكة العربية السعودية، المستوردة التقليدية للأسلحة الأمريكية، اهتمامها بالتعاون مع روسيا. فخلال زيارة العاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود إلى موسكو في تشرين الأول/أكتوبر 2017 وصلت الدولتان إلى مرحلة أولية لاتفاقية بقيمة 3.5 مليار دولار شملت أنظمة سام S-400، وأنظمة TOS-1A، وKornet-EM ATGMs، وقاذفات القنابل الآلية، وإنتاج البنادق الهجومية الكلاشينكوف من طراز AK-103 في المملكة العربية السعودية[2]. وفي نيسان/أبريل 2019، استلمت المملكة العربية السعودية الدفعة الأولى من أنظمة TOS-1A بموجب العقد المذكور أعلاه. ووفقاً للمتحدثة باسم المركز الفيدرالي للتعاون العسكري التقني ماريا فوروبييفا: تم إنجاز جميع المشاريع الأخرى في هذا المجال، بما في ذلك أكثر القضايا صعوبة في ترخيص الإنتاج «وفقاً للاتفاقيات التي تم التوصل إليها مسبقاً»[3]. هناك شكوك بين الخبراء الروس بشأن نجاح المفاوضات على صواريخ S-400s، نظراً لأن شراء هذه الأنظمة يبدو زائداً عن الحاجة، مع الأخذ في الاعتبار العدد الكبير من أنظمة الدفاع الجوي الأمريكية الأصل التي تمتلكها المملكة العربية السعودية بالفعل في

(1) «Glava Rosoboroneksporta: v 2018 godu Prodadim Oruzhiya Bolee Chem na $13 mlrd [The Head of Rosoboronexport: in 2018 We Will Sell Weapon on More Th an $13 billion],» RIA Novosti, April 16, 2018.
https://ria.ru/20180416151858874O/.html.

(2) Alexandra Dzhordzhevich and Ivan Safronov, «Rossya i Saudovskaya Aravya Kak Nikogda Sblizilisi v Voprosah Postavok S-400 [Russia and Saudi Arabia Brought Together Their Views on the Supply of S-400 Systems as Never Before],» Kommersant, October 6, 2017.
https://www.kommersant.ru/doc/3429985.

(3) «Rossia Postavila Saudovskoi Aravii Vooruzhenie i Voennuiu Tehniku [Russia Supplied Weapons and Military Equipment to Saudi Arabia],» Interfax, June 27, 2019. https://www.interfax.ru/russia/666791.

ترسانتها[1]. لكن البقية تتوافق مع المطالب الحالية لاحتياجات القوات المسلحة للبلاد، ولديها فرص جيدة لتحقيقها. علاوة على ذلك، قال ديمتري شوغاييف –بغض النظر عن المزيد من التفاصيل: « لقد زاد اهتمام العديد من دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وبالأخص المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة بأنظمة الدفاع الجوي الروسية بعد الهجوم بالطائرات المسيرة بدون طيار على منشآت معالجة النفط التابعة لشركة أرامكو السعودية في أبقيق وخريص في أيلول/سبتمبر 2019 [2].

إن روسيا حريصة على دخول السوق في الخليج الذي كان يتعذر الوصول إليه تقريباً في السابق. لقد أثمر التعاون مع الإمارات العربية المتحدة بالفعل؛ فقد وقعت الإمارات في أغسطس 2000 اتفاقية شراء وتمويل جزئي لأبحاث روسية، وتطوير الجهود في مشروع (Pantsir-S1 SA-22)، مما ساعد على إنشاء نظام أسلحة حديث ومرغوب تجارياً. يناقش البلدان اليوم التحديث المحتمل لأنظمة الدفاع الجوي التي تم تسليمها مسبقاً، وإنشاء مراكز صيانة متخصصة[3]. في عام 2017، وقعت دولة الإمارات العربية المتحدة رسالة لرغبتها لشراء مقاتلات Su-35، واتفق البلدان أيضاً على التطوير المشترك لمقاتلة جديدة من الجيل الخامس من الطائرة المقاتلة MiG-29 ذات المحركين[4]. وخلال العام نفسه، زار وزير الدفاع الروسي سيرغي شويغو قطر حيث تم توقيع اتفاقية بين الحكومتين بشأن التعاون العسكري التقني،

(1) Konstantin Makienko, «Rossiiskii Eksport Vooruzhenii v 2014–2018 gg.: Stagnatsya, Rost Riskov, Uhudshenie Vneshnei Sredy [Russian Arms Exports in 2014–2018: Stagnation, Increased Risks, External Factors],» Export Vooruzheniy 2 (2019): 9.

(2) Ivan Safronov and Svetlana Bocharova, «Ataka Dronov Pomozhet Rossii Prodat' Sistemy PVO Stranam Persidskogo Zaliva [Drone Attack Will Help Russia Sell its Air Defense Systems to Gulf Countries],» Vedomosti, October 2019.
https://www.vedomosti.ru/politics/articles/2019814508-/23/10/ataka-dronov-pomozhet-rossii.

(3) «Glava FSVTS Dmitrij Shugaev o Potenciale Eksporta Rossijskogo Vooruzheniya [«Dmitry Shugaev, the Head of the FSMTC, on the Potential on the Prospects of Russian Arms Exports],» RT, November 21, 2019. https://russian.rt.com/russia/article/689034-dmitrii-shugaev-intervyu-vystavka-dubai-airshow-2019.

(4) «Russia's Rostec to Co-develop 5th-gen Fighter with UAE,» Defense News, February 20, 2017. https://www.defensenews.com/digital-show-dailies/idex/201720/02//russia-s-rostec-to-co-develop-5th-gen-fi ghter-with-uae.

وقد أبرمت موسكو اتفاقية مماثلة مع البحرين عام 2016، كما تجري محادثات بين روسيا وقطر بشأن احتمال تسليم مقاتلاتSu-35 [1].

في شباط/فبراير2019، أفادت الأنباء أن هناك مفاوضات جارية بين روسيا وقطر على أنظمة S-400 أيضاً[2]. وفي يونيو 2019، وقّع فلاديمير بوتين مرسوماً لإنشاء مكتب ملحق عسكري بالسفارة الروسية بدولة قطر[3]، يهدف هذا التحرك إلى تحسين الاتصالات العسكرية بين البلدين، وربما أيضاً إلى المساهمة في الترويج للأسلحة الروسية بشكل عام.

ومن أبرز التطورات المهمة في مجال صادرات الأسلحة الروسية في السنوات الأخيرة كان ظهور تركيا كعميل كبير، فعلى الرغم من كل التوترات السياسية التي حدثت بين البلدين، وقّعت موسكو وأنقرة في عام 2017، عقد تسليم أربع بطاريات لأنظمة S-400 بقيمة 2.5 مليار دولار، مع قيام روسيا بتقديم قروض لتغطية 55 % من المبلغ الإجمالي[4]، وقد كان هذا العقد في جزء كبير منه ناجماً عن العوامل السياسية التي نتجت عن محاولة الانقلاب التركي لعام 2016 ضد الرئيس رجب طيب أردوغان، وتدهور العلاقات الأمريكية التركية.

في الوقت نفسه، تعمل تركيا بنشاط على تطوير صناعة الدفاع الخاصة بها، وتتزايد صادراتها من الأسلحة، لا سيما إلى الدول الإسلامية مثل قطر، والبحرين، وتونس. إن العلاقات الثقافية والدبلوماسية طويلة الأمد بين تركيا وبلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالتوازي مع المنتجات التنافسية لصناعة الدفاع التركية قد تصبح تحدياً لروسيا التي تهدف إلى دخول هذا السوق الجديد.

---

(1) «Rossya i Katar Vedut Peregovory po Vozmozhnym Postavkam Su-35 [Russia and Qatar Are Negotiating the Possible Supplies of Su-35 Fighters],» ITAR-Tass, March 1, 2018. http://tass.ru/armiya-i-opk/4999532.

(2) «V FSVTS Zayavili o Peregovorah s Katarom po Postavkam S-400 [FSMTC Announced Talks with Qatar on the Delivery of the S-400's],» ITAR-Tass, February 19, 2019. https://tass.ru/armiya-i-opk/6133932.

(3) «Putin Podpisal Ukaz ob Ucherezdenii Voennogo Attashata pri Posolistve Rossii v Katare [Putin Signed a Decree on the Establishment of a Military Attache Office at the Russian Embassy in Qatar],» ITAR-Tass, June 24, 2019. https://tass.ru/armiya-i-opk/6584844.

(4) «Russia to Supply Turkey with Four S-400 Missile Batteries for $2.5 Billion,» Reuters,December 27, 2017. https://www.reuters.com/article/us-russia-turkey-missiles/russiato-supply-turkey-with-four-s-400-missile-batteries-for-2–5-billion-kommersantidUSKBN1EL0H6.

إيران شريك جذّاب آخر. ففي عام 2015، وقّع الرئيس فلاديمير بوتين على مرسوم رفع الحظر المفروض ذاتياً على تسليم أنظمة سام S-300 إلى طهران، وكان ذلك علامة فارقة مهمة في العلاقات الثنائية(1). علاوة على ذلك، فإن UNSCR (قرار مجلس الأمن) رقم 2231 ينصّ على رفع الحظر على مبيعات الأسلحة التقليدية لإيران بحلول عام 2020. إن روسيا حريصة على الاستفادة من تلك الفرصة السانحة، وقد تم التفاوض بالفعل على احتمال تكثيف عمليات نقل الأسلحة(2). وصرّح الناطق الصحفي للمركز الفيدرالي الروسي للتعاون العسكري الفني في حزيران/يونيو 2019 قائلاً: «نحن منفتحون على المناقشات بشأن تسليم أنظمة الدفاع الجويS 400-Triumph، بما في ذلك إيران، لا سيما أن هذه المعدات لا تخضع للقيود المنصوص عليها في قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الصادر في 20 حزيران/يونيو 2015. ولم نتلق طلباً رسمياً من شركائنا بهذا الأمر حتى الآن»(3).

العوامل المعيقة

هناك عاملان رئيسيان قد يعوقان صادرات الأسلحة الروسية إلى جميع أنحاء العالم، وإلى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على وجه الخصوص، هما: أسعار النفط، والعقوبات الأمريكية. شهدت السنوات الأخيرة عدة فترات من الانخفاض الشديد في أسعار النفط؛ الأمر الذي أثّر سلبياً على قدرة العديد من العملاء الروس على الدفع. لذلك، في عامي 2015-2016 كانت هناك حالات تأخير في سداد مدفوعات المستوردين المعتمدين على النفط

(1) «Vneseno Izmenenie v Ukaz o Merah po Vypolneniu Rezoliutsii Soveta BezopasnostiOON No.1929 [President of Russia, Amendment to Executive Order on Measures for Implementing UN Security Council Resolution no. 1929],» Kremlin.ru, April 13, 2015. http://en.kremlin.ru/events/president/news/49248.

(2) United Nations, «Security Council Resolution 2231 (2015),» July 20, 2015. http://www.un.org/en/ga/search/view_doc.asp?symbol=S/RES/2231 (2015).

(3) «Rossya Gotova Postaviti Iranu S-400, Zayavili v FSVTS [Russia Ready to Deliver S-400 to Iran, Declared Federal Service for Military-Technical Cooperation of Russia],» RIA Novosti, June 28, 2019. https://ria.ru/201906281556012154/.html.

مثل إيران وأذربيجان[1]. كما أثار الانخفاض الحاد في أسعار النفط تصعيداً اقتصادياً وسياسياً للأزمة في فنزويلا، التي كانت لفترة طويلة من أكبر المستوردين من الروس، مما قوّض قدرتها على الحصول على أسلحة جديدة. لكن هذا العامل نسبي بشكل خاص بالنسبة لدول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، حيث يعتمد الكثير منها على عائدات تصدير الهيدروكربونات.

مشكلة أخرى كبيرة لصادرات الأسلحة الروسية هي تنفيذ قانون العقوبات القاسية لخصوم أمريكا - (CAATSA) كاتسا، الذي أقره الكونغرس الأمريكي عام 2017، فقد ألزمت المادة 231 من القانون من الرئيس فرض عقوبات فيما يتعلق بالأشخاص الذين يشاركون في «معاملات مهمة» مع قطاعي المخابرات أو الدفاع لحكومة روسيا الاتحادية[2]. وفي آذار/مارس 2019، قال أنور المزيدي رئيس هيئة التسليح والمعدات في الجيش الكويتي: «إن عملية شراء دباباتT-90MS /MSK من روسيا قد تم تأجيلها (على الرغم من عدم إلغائها)، ومن المفترض أن ذلك جاء بسبب عقوبات CAATSA[3]. وجاء الرد في نيسان/أبريل 2019، من مايك بومبيو وزير الخارجية الأمريكي على التقرير المذكور سابقاً عن بيع محتمل لمقاتلات Su-35 لمصر، إذ حذر من أنه: «إذا تم شراء هذه الأنظمة، فإن قانون كاتسا سيفرض عقوبات على النظام»[4]. ونشبت حالة أخرى هي الخلاف بين الولايات المتحدة وتركيا حول استحواذ أنقرة على أنظمة S-400 الروسية، فقد أزالت واشنطن تركيا من برنامج إنتاج مقاتلات Lockheed Martin F-35 Lightning II[5]،

(1) Makienko, «Rossiiskii Eksport Vooruzhenii v 2014–2018 gg.: Stagnatsya, Rost Riskov, Uhudshenie Vneshnei Sredy [Russian Arms Exports in 2014–2018: Stagnation,Increased Risks, External Factors],» 7.

(2) «Countering America's Adversaries through Sanctions Act, H.R. 3364,» February 8,2017. https://www.congress.gov/bill/115th-congress/house-bill/3364/text.

(3) «Kuwaiti Army Offi cer Says Russian Tanks Purchase Postponed,» Xinhua, March 5, 2019. http://www.xinhuanet.com/english/201905/03-/c_137871438.htm.

(4) «Egypt Faces Sanctions If It Buys Su-35s from Russia, U.S. Warns,» Jane's Defence Weekly, April 10, 2019. https://www.janes.com/article/87808/egypt-faces-sanctions-if-it-buys-su-35s-from-russia-us-warns.

(5) Idrees Ali and Phil Stewart, «U.S. Removing Turkey from F-35 Program After Its Russian Missile Defense Purchase,» Reuters, July 18, 2019. https://www.reuters.com/article/us-turkey-security-usa-idUSKCN1UC2DD.

ولم يتمكن الطيارون الأتراك أيضاً على التدريب لدى الولايات المتحدة لمطاردة الشبح المقاتل الجديد.

باختصار، قد يكون لـقانون كاتسا تأثير كبير على صادرات الأسلحة الروسية إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على المدى المتوسط، لكن فعاليته ستعتمد على القدرة على المساومة للدول المتلقية مع مقابل الولايات المتحدة.

روسيا من جانبها ستحاول الالتفاف هذا القانون، ففي أيلول/سبتمبر 2018، قال نائب رئيس الوزراء يوري بوريسوف: إن روسيا تحولت بالفعل إلى العملات الوطنية في بعض عقود تصدير الأسلحة[1]. فعلى سبيل المثال، اتفقت روسيا والهند على آلية المدفوعات اعتماداً على العملات الوطنية، والتي ستفرج عن شحنات الأسلحة التي تم تعليقها مؤقتاً في عام [2]2018. لاحقاً، في حزيران/يونيو 2019، أُفيد أن روسيا قد تخلت عن الدولار وعن نظام سويفت SWIFT (منظومات الدفع الالكتروني) في صفقات الدفاع[3].

الخاتمة

إجمالاً، بعد أن تغلبت روسيا بنجاح على عقبات ونكسات التسعينيات، قامت بتوسيع وجودها في سوق الأسلحة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة. ويبدو أن هذا يتماشى مع التوجه العام لسياسة روسيا الخارجية الهادفة إلى تحسين صورتها كشريك موثوق به، وزيادة تأثيرها، وتوطيد شراكات طويلة الأمد مع دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وتركز موسكو على زيادة تطوير العلاقات العسكرية والتقنية

(1) «Rossia Perevela Nekotorye Oruzheinie Eksportnye Kontrakty na Rashiot v Nationalnyh Valiutah [Russia Switched Some Arms Export Contracts for the Calculation in National Currencies],» ITAR-Tass, September 14, 2018. https://tass.ru/politika/5564237.

(2) 51. Aleksey Nikolskii, «Gosbanki Rossii i Indii Obespechiat Raschioty za Rossiiskoe Oruzhie v Natsionalinyh valiutah [Russian and Indian State Banks Will Ensure Payments for Russian Weapons in the National Currencies],» V edomosti, July 16, 2019. https://www.vedomosti.ru/politics/articles/2019806604-/15/07/gosbanki-rossii-i-indii-obespechat-rascheti-za-oruzhie.

(3) «Rossya Ushla ot Ispolizovaniya SWIFT i Dollara po Oruzheinym Kontraktam [Russia Abandoned the Use of SWIFT and Dollar in Arms Contracts],» Interfax, June 26, 2019. https://www.interfax.ru/business/666701.

مع القوى الإقليمية الكبرى، وتتوقع دخول أسواق جديدة، معتبرة أن مبيعات الأسلحة ليس هدفاً نهائياً، ولكنه أداةً لتعزيز مجالات التعاون الأخرى مثل النفط، والغاز، والطاقة النووية، وتجارة السلع، وهلم جراً. إن هذه الاستراتيجية بالتأكيد لن تكون سهلة التنفيذ؛ فسوق الأسلحة العالمية يزيد تنافسية أكثر فأكثر، وستتعرض روسيا كذلك للمنافسة الشديدة في سوق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. إن التطور الأخير للعلاقات مع الدول المستوردة التقليدية للأسلحة من الولايات المتحدة وأوروبا لا يعني بالضرورة أنهم سيتحولون إلى روسيا، ولكن يعكس تطلعهم للاستفادة من هذه المنافسة بين كبار مصدري الأسلحة، وتخفيف تعرضهم للمخاطر السياسية من خلال تنويع مصادر الأسلحة. وهكذا، فبينما أُتيحت فرصة سانحة لروسيا، وقد استغلت بالفعل ميزاتها، فإن البيئة السياسية المتغيرة بسرعة في المنطقة قد تفرض فيما بعد تعديلاتها الخاصة.

الفصل 7

دبلوماسية الطاقة الروسية في الشرق الأوسط

كارول نخلة

نبّهت «استراتيجية الطاقة لروسيا للفترة حتى عام 2030»، والتي نُشرت في عام 2010 إلى وجوب «تعزيز المواقف الاقتصادية الخارجية للبلاد» باعتبارها واحدة من الأولويات الرئيسية للحكومة الروسية[1]. وسعى الكرملين إلى دبلوماسية الطاقة بشكل أكبر منذ ذلك الحين، ولا سيما مع الدول الرئيسية المنتجة للهيدروكربونات، في مسعىً لتحقيق هذا الهدف.

تشير دبلوماسية الطاقة عادةً إلى جهود الدولة المستهلكة للوصول إلى مصادر الطاقة من البلدان المنتجة، بهدف ضمان *أمن التوريد*. وتندرج علاقة الطاقة بين الاتحاد الأوروبي وروسيا ضمن هذا النموذج، حيث تُتهم روسيا كثيراً بالاستفادة من مواردها الغازية لتحقيق أهداف سياسية في القارة الأوروبية. وقد تشير دبلوماسية الطاقة أيضاً إلى مساعي الدولة المنتجة لتأمين الوصول إلى الأسواق بهدف تحقيق *أمن الطلب*. بهذا المعنى، ومن منظور المنتجين، تحمل دبلوماسية الطاقة معنى مختلفاً: بعد كل شيء، يبيع المنتجون المنتج نفسه، ويتنافسون على حصة السوق؛ فما تخسره إحدى الجهات الفاعلة الاقتصادية هو عادة ما يتم الاستيلاء عليه من قبل منافس آخر.

يشمل *التقارب* المتزايد بين روسيا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا مجال دبلوماسية الطاقة. ويتجلى ذلك في تعزيز التفاعل والتنسيق بين الدول المنتجة للنفط والغاز لتحقيق المصالح المشتركة من ناحية، في حين أن الطاقة النووية من ناحية أخرى، تندرج تحت الفئة

(1) Ministry of Energy of the Russian Federation, Energy Strategy of Russia for the Period Up to 2030, November 2009.
http://www.energystrategy.ru/projects/docs/ES-2030_(Eng).pdf.

التقليدية لدبلوماسية المنتج-المستهلك. وفي كلتا الحالتين، يسهّل التعاون الوثيق ويدعم التطلعات التجارية والسياسية الأوسع لروسيا.

التحديات المشتركة

تشكّل روسيا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا معاً 60 % و63 % من احتياطيات النفط والغاز الطبيعي المؤكدة في العالم، وعلى التوالي، تنتج نصف النفط العالمي، وما يقرب من 40 % من غازه[1]. إن أيّ تعاون بين هذين اللاعبين العملاقين سيكون له تداعيات كبيرة على أسواق الطاقة العالمية.

تواجه روسيا ومنتجو النفط في المنطقة اليوم تحديات مماثلة تجعل قضية التعاون بينهم جذابة بشكل خاص. على المدى القصير، عليهم أن يتنافسوا مع بيئة سعرية أقل نسبياً، مقارنةً بالسنوات القليلة الماضية: في الفترة من 2011 إلى 2014 على سبيل المثال، كانت أسعار النفط تتأرجح حول 110 دولارات للبرميل الواحد. علاوة على ذلك، أدى صعود النفط الصخري الأمريكي[2] والمنافسة المتزايدة منه إلى خلق ديناميكيات جديدة في السوق، نظراً لقدرته على الاستجابة السريعة لتغيرات الأسعار. فعندما ترتفع أسعار النفط على سبيل المثال، هناك ارتفاع مقابل في إنتاج النفط الصخري، مما يساعد على تغطية أية زيادات أخرى في الأسعار. في المقابل، مع النفط التقليدي (المُنتج من قبل روسيا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، فإن المعيار هو في التأخير لعدة سنوات بين اتخاذ قرار الاستثمار والإنتاج الأول. هذا هو ما يصفه الاقتصاديون *بالإمداد غير المرن*. لذلك يواجه منتجو النفط التقليدي بشكل مستمر خطر فقدان حصتهم في السوق لمورّد أكثر مرونة، كلما ارتفعت أسعار النفط بما يكفي لتدفع باتجاه استثمار وإنتاج النفط الصخري.

على المدى الطويل، إذا تحققت فعلاً تنبؤات تغير المناخ العنيفة بشكل صحيح، يمكن

(1) BP, BP Statistical Review of World Energy, 2018. https://www.bp.com/content/dam/bp/en/corporate/pdf/energy-economics/statistical-review/bp-stats-review-2018-fullreport.pdf.

(2) Tight oil «is a type of oil found in impermeable shale and limestone rock deposits...;extracted using hydraulic fracturing, or fracking.» «What Is Tight Oil?,» UCSUSA.org, March 3, 2015. https://www.ucsusa.org/resources/what-tight-oil.

أن تجعل الموارد الهيدروكربونية في الأرض عديمة القيمة بغض النظر عن التكلفة التي يمكن أن تكون. فعلى سبيل المثال، في قمتهم السنوية عام 2015، وافق قادة G7 مجموعة السبع (عبارة عن منظمة تضم 7 دول من أكبر اقتصادات العالم: الولايات المتحدة، وكندا، وألمانيا، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، واليابان) (على الرغم من أن موقف الولايات المتحدة قد تغير منذ ذلك الحين) على التخلص التدريجي من استخدام الوقود الأحفوري بحلول نهاية القرن، في حين أعلنت دول مثل فرنسا، والمملكة المتحدة أنهم سيحظرون بيع محركات البنزين والديزل اعتباراً من بداية عام 2040. وكلما اتسعت بسرعة المكافحة ضد اشتداد الاحتباس الحراري، وتطوير مصادر بديلة من الطاقة، أصبحت آفاق الطلب على النفط غير مؤكدة بشكل متزايد. إذاً تهدد مثل هذه التغييرات على المدى الطويل استقرار الاقتصادات التي تعتمد بشكل كبير على النفط والغاز. في روسيا، يمثل النفط والغاز حوالي النصف من إيرادات الميزانية الاتحادية، ويمكن أن يتجاوز هذا الاعتماد 90 % في دول الشرق الأوسط مثل العراق[1].

ومع أخذ هذه التحديات بعين الاعتبار، تصبح معضلة هؤلاء المنتجين في ذلك الوقت هي: كيفية إنتاج ما يكفي من النفط لحماية قاعدة إيرادات هامة مع حماية حصة السوق، والحفاظ على الأسعار إلى مستويات «مناسبة» للحد من التوسع في النفط الصخري، وإطالة عمر مدخراتهم القيمة لأقصى مدى ممكن، وردع نمو مصادر الطاقة البديلة. يكمن الجواب في النهاية بالتعاون، والذي يتم تسييره من خلال دبلوماسية الطاقة.

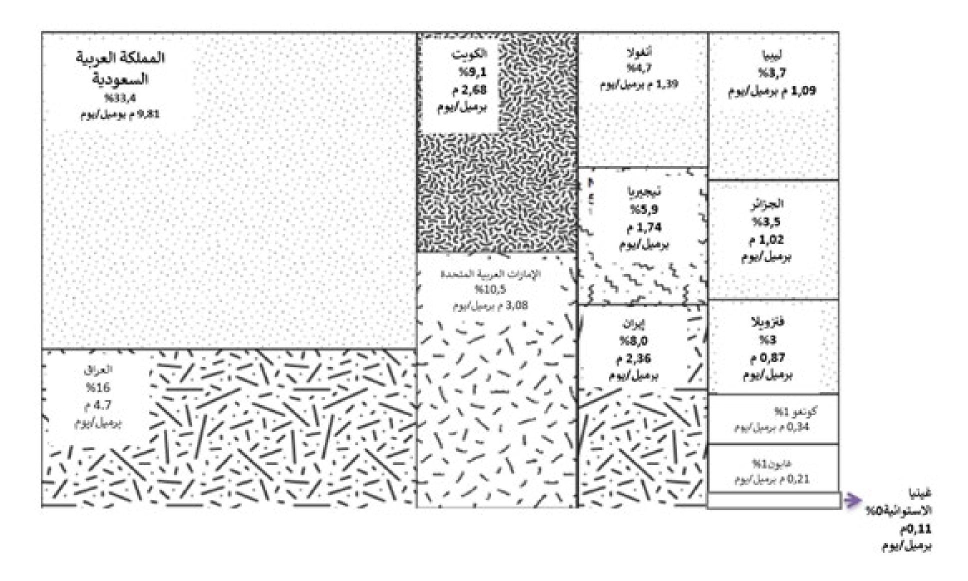
التوقيت المناسب

على الرغم من أن روسيا ليست غريبة على منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إلا أن وجودها هناك أصبح واضحاً بشكل متزايد خلال السنوات العشر الماضية، ويبدو أن هذا الاتجاه سيستمر. ففي عام 2014، أدى حدثان متتاليان إلى تسريع سعي موسكو لتحقيق ذلك *التقارب* مع دول المنطقة، حيث سعت إلى تنويع علاقاتها في مجال الطاقة والصادرات بسبب تدهور العلاقات مع الغرب.

(1) Jennifer Gnana, «Iraq's Dependence on Oil to Continue as Reform Pace Slows, Says Moody's,» The National, October2019 ,3 . https://www.thenational.ae/business/economy/iraq-s-dependence-on-oil-tocontinue-as-reform-pace-slows-says-moody-s-1.918725.

أولاً، دفع ضمّ القرم في آذار/مارس 2014 الحكومات الغربية بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لفرض عقوبات على روسيا مستهدفة قطاعات الدولة في مجال المالية، والطاقة، والسلاح. لقد قيّدت هذه العقوبات قائمة انتقائية من قدرة البنوك والشركات الروسية على زيادة رأس المال، ووصولها إلى الأسواق المالية الدولية.

ثانياً، بين (حزيران/يونيو وكانون الأول/ديسمبر) 2014، تراجعت أسعار النفط من أكثر من 110 إلى أقل من 60 دولاراً للبرميل الواحد. أثّر مزيج العقوبات والانهيار في أسعار النفط بشدة على الاقتصاد. وفي عام 2015، تقلص الناتج المحلي الإجمالي لروسيا بنسبة 2.8% وغرق الاقتصاد في ركود[1]. وفي الشكل الآتي يمكن تحديد إنتاج أعضاء أوبك من النفط الخام بالمليون برميل في اليوم وبالحصة داخل أوبك (كانون الثاني/يناير 2020).



الشكل 7.1 نصيب أوبك من إنتاج النفط الخام حسب الدولة (كانون الثاني/يناير 2020). المصدر: تقرير وكالة الطاقة الدولية(IEA) الشهري عن سوق النفط، كانون الثاني/يناير 2020.

(1) World Bank, From Recession to Recovery: Russia Economic Report, May 2017. http://documents.worldbank.org/curated/en/782451497437509084/Russia-economic-report-2017-from-recession-to-recovery.

دفعت هذه التطورات روسيا إلى إدخال سياسات جديدة لتحقيق استقرارها الاقتصادي، مثل تخفيض قيمة عملتها الروبل، على سبيل المثال، الذي سهّل الانتعاش الاقتصادي للبلد. ولكن لم تعد بعض البنوك والشركات الروسية الكبرى قادرة على زيادة رأس المال في الأسواق العالمية، بسبب العقوبات، فكانت هناك الحاجة إلى وجود بديل؛ ولهذا فإن ارتفاع سعر النفط سيكون بالطبع مفيد جداً.

كان من المفترض أن يأتي الفعل من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا جزئياً، ولا سيما من خلال منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك). نصف أعضاء أوبك الثلاثة عشر هم أعضاء من المنطقة[1]، يمثلون ما يقرب من 83 % من إنتاج نفط المنظمة، ومعظم الطاقة الاحتياطية، مع احتلال المملكة العربية السعودية مرتبة المنتج الأول بينهم (الشكل 7.1)[2].

صفقة أوبك +

أدت روسيا دوراً لسنوات لإنضاج فكرة تعاونها مع أوبك علناً، لكن بقي دعمها مقتصراً على التصريحات المتعاطفة التي لم ترق إلى مستوى الدعم السياسي. وتم تغيير الموقف بعد أحداث 2014.

وبعد فترة طويلة من المفاوضات، تم الإعلان عن الاتفاق التاريخي بين أوبك وبين المنتجين من خارجها، والذي أصبح يُعرف باسم أوبك + في فيينا في كانون الأول/ديسمبر 2016. كان الهدف المعلن هو «إعادة توازن» السوق. ومع ذلك، يؤكد الاقتصاديون أنه يمكن للأسواق أن تقوم بذلك بنفسها. والأمر الذي حصل يناقض ذلك، فالذي أرادته أوبك + أن تفعله هو إعادة توازن السوق لصالح الدول الموقعة، أي على مستوى أعلى أسعار تفوق ما كان يمكن أن تحدده سوق تعمل بحرية كاملة في ذلك الوقت.

تطلبت الاتفاقية في الأصل خفضاً تراكمياً قدره 1.8 مليون برميل يومياً (1.2 مليون برميل

(1) In January 2019, Qatar left OPEC After being a member for about sixty years. Julia Kollewe, «Qatar Pulls Out of OPEC to Focus on Gas Production,» The Guardian, December 3, 2018. https://www.theguardian.com/business/2018/dec/03/qatar-pulls-out-of-opec-to-focus-on-gas-production.

(2) International Energy Agency, Monthly Oil Market Report, January 2020. https://www.iea.org/reports/oil-market-report-january-2020.

في اليوم من أوبك، و600 ألف برميل إضافية في اليوم من خارج أوبك)، تبدأ فعاليته اعتباراً من كانون الثاني/يناير 2017، ومحددة لمدة ستة أشهر. التزمت أذربيجان، والبحرين، وبروناي، وغينيا الاستوائية، وكازاخستان، وماليزيا، والمكسيك، وعُمان، والسودان، وجنوب السودان، بخفض الإنتاج بالتنسيق مع أعضاء أوبك، ولكن كانت روسيا هي المساهم الرئيسي الذي جعل الاتفاق ممكناً، وتعهدت بخفض إنتاجها بنسبة 300 ألف برميل في اليوم[1]. علاوة على ذلك، يُعتقد أن الوساطة الروسية على أعلى مستوى قد ساهمت في وضع خلافات المملكة العربية السعودية وإيران جانباً، وبالتالي ضمان نجاح الصفقة[2].

على مدى السنوات الثلاثة التالية، تم تعديل هذه الصفقة، وتمديدها، وتعديلها مرة أخرى في عدة مناسبات، مرةً لامتصاص تراكم المخزونات في السنوات السابقة المنخفضة السعر، ومرةً لتعويض الزيادة المستمرة في النفط الصخري الأمريكي. وعلى الرغم من الشكوك الأولية بين مراقبي السوق، أثبتت روسيا أنها شريك موثوق به حتى بدء التداعيات قصيرة الأمد في آذار/مارس 2020.

وحتى عام 2020، نجحت استراتيجية أوبك+ لخفض الإنتاج: تعافى سعر النفط من أدنى مستوياته في عام 2016، ونجح التعاون في وضع مستوى أدنى لأسعار النفط. كانت الأسعار تتجه قبل الاتفاق إلى أقل من 40 دولاراً للبرميل الواحد، وبعد صفقة أوبك + وحتى أوائل عام 2020، تم تداولها فوق 60 دولاراً. ومع ذلك، لم يكن هذا يسيراً أو سهلاً بالنسبة لأوبك ككل، فقد تم تنفيذ معظم التخفيضات من قبل أعضاء المنظمة الذين تقلّصت حصتهم في السوق بشكل ملحوظ خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من أن حصص السوق للمملكة العربية السعودية وروسيا ظلت مستقرة إلى حد ما (حوالي 13 %)[3].

(1) Commitments of other non-OPEC parties have not been meaningful or credible, with the exception of Oman. For example, Mexican production had been on a strong downward trend, so the promised cuts had already been fully reflected in market expectation. And Kazakhstan actually increased its production by 260 kb/d from 2016 to 2018.

(2) Commitments of other non-OPEC parties have not been meaningful or credible, with the exception of Oman. For example, Mexican production had been on a strong downward trend, so the promised cuts had already been fully reflected in market expectation. And Kazakhstan actually increased its production by 260 kb/d from 2016 to 2018.

(3) «BP Statistical Review of World Energy 2019,» 68th edition, 2019. https://www.bp.com/content/dam/bp/business-sites/en/global/corporate/pdfs/energy-economics/statistical-review/bp-stats-review-2019-full-report.pdf.

بالنسبة لروسيا، كانت الفوائد واضحة؛ ففي غضون عام، استقر الاقتصاد الروسي وتحول من «الركود إلى الانتعاش» كما أوضح ذلك عنوان تقرير البنك الدولي[1]. ووفقاً للبنك، تحوّل إجمالي الناتج المحلي لروسيا من انخفاض قدره 2.8 % في عام 2015 إلى نمو بنسبة 1.7 % في عام 2017، وتغيرت ميزانيتها الفيدرالية من العجز إلى الفائض خلال الأشهر التسعة الأولى من عام 2017، وتم تحقيق إيرادات أعلى من ضرائب النفط بفضل ضريبة الملكية المفروضة على نطاق متدرج يتغير (بشكل أساسي) مع سعر النفط. لعبت هذه الأرقام دوراً جيداً قبل الانتخابات الرئاسية عام 2018. علاوة على ذلك، زادت الصفقة من نفوذ روسيا في الشرق الأوسط. وهكذا، فإن اتفاقية أوبك + تؤتي ثمارها على الصعيدين الاقتصادي والجيوسياسي.

خلال عام 2019، كانت هناك محادثات حول إضفاء الطابع المؤسسي على أوبك + بشكل رسمي في منظمة تجمع بين روسيا وأوبك، إلا أن هناك عدة تحديات حالت دون هذا الطموح. أهمها هو حقيقة أنه قد لا يمكن الدفاع عن استراتيجية أوبك + بشكل متزايد في ضوء التوسع المستمر في الإنتاج الأمريكي: فكلما كان الاتفاق عام 2016 أكثر نجاحاً في الحفاظ على الأسعار منخفضة، كان النمو أسرع في إنتاج الولايات المتحدة. تقدم هذه الآلية تحدياً وجودياً للتعاون تحت أوبك +. بالإضافة لذلك، تتباعد المصالح التجارية لروسيا وأوبك، وعلى وجه الخصوص المملكة العربية السعودية بشكل كبير، مما يزيد من التشكيك في مستقبل التحالف. ومع ذلك، قد تكون السياسة هي الأكثر تأثيراً.

تعد التداعيات بين روسيا وأوبك في آذار/مارس 2020 خير دليل على المخاطر التي تواجه شراكتهم، على الرغم من أن أزمة (COVID-19كوفيد-19/فيروس كورونا) طغت عليها. ففي آذار/مارس 2020، اجتمع قادة أوبك في فيينا واقترحوا خفضاً إضافياً بمقدار1.5 مليون برميل في اليوم الواحد للفترة المتبقية من العام. رفضت روسيا القبول وللمرة الأولى منذ تشكيلها، ولم تتوصل أوبك + إلى اتفاق. أعلنت المملكة العربية السعودية على الفور أنها ستطرح في السوق 2.6 مليون برميل إضافي في اليوم زيادة على أرقام شهر آذار/مارس (حيث بلغ إجمالي الإنتاج 12.3 مليون برميل في اليوم الواحد في نيسان/أبريل) وتخفّض بشكل كبير أسعار تصديرها. (أعلنت الإمارات العربية المتحدة على الفور أيضاً أنها ستزيد الإنتاج بحوالي 1 إلى 4 مليون برميل في اليوم الواحد). وصفت وسائل الإعلام هذه الخطوة بأنها «حرب»

(1) World Bank, From Recession to Recovery, 2017.

أسعار أدركتها وأطلقتها المملكة ضد روسيا، أو النفط الصخري الأمريكي، أو كإحدى نظريات المؤامرة العديدة من قبل المملكة وروسيا بشكل مشترك ضد النفط الصخري الأمريكي[1]. ومع ذلك، كانت هذه الخطوة أقصر من أن تبرر الهدف، أو الجهود الموضوعة في شرحها. فبعد الإدراك المتأخر، يبدو أن كلاً من روسيا والمملكة العربية السعودية فاجأتا بعضهما البعض، وتجاهلا عواقب أفعالهما.

لقد ثبت أن الجمع بين حرب الأسعار والجائحة الناشئة ضار؛ إذ نتيجةً لذلك، كانت أسعار النفط في حالة سقوط حر؛ حيث انهارت بأكثر من 50 % بين 1 و18 آذار/مارس 2020، والوصول إلى أدنى مستوى لها عند 20 دولاراً للبرميل الواحد في الأول من نيسان/أبريل، وهو أدنى مستوى منذ أواخر شباط/فبراير 2002[2]. تدخلت الولايات المتحدة، أكبر منتج للنفط في العالم، وطالبت أوبك + لتجتمع مجدداً في وقت كانت فيه كل من السعودية وروسيا تريان صعوبة حصول ذلك؛ لكن التحدي غير المسبوق الذي شكلته جائحة كوفيد-19 أجبر المملكة العربية السعودية وروسيا لإعادة النظر، وتم التوصل إلى اتفاق في نيسان/أبريل.

فبموجب اتفاقية نيسان/أبريل 2020، ستخفض أوبك + 9.7 مليون برميل في اليوم الواحد على مدار عامين اعتباراً من نيسان/مايو 2020. وذلك يعادل نسبة 23 % لكل عضو في التحالف باستثناء روسيا والمملكة العربية السعودية، حيث تم معادلة الأرقام بدقة (افتراض أن كليهما سيخفّض 2.508 مليون برميل في اليوم الواحد من الإنتاج المقدّر لـ 11 مليون برميل في اليوم الواحد)[3].

---

(1) Joshua Yaff a, «How the Russian-Saudi Oil War Went Awry—for Putin Most of All,» New Yorker, April 15, 2020.
https://www.newyorker.com/news/dispatch/how-the-russian-saudi-oil-war-went-awry-for-putin-most-of-all.

(2) Energy Information Administration, 2020.
https://www.eia.gov/dnav/pet/pet_pri_spt_s1_d.htm.

(3) من الواضح أن تحديد سقف الـ 11 مليون برميل يومياً لكلا المنتجين الرئيسيين كان بمثابة حلّا وسطاً يهدف إلى الإشارة إلى القدر نفسه من الاهمية والتضحية. وفي الواقع، أُعطيت ميزة طفيفة للمملكة العربية السعودية، التي هددت بزيادة الإنتاج إلى 12.3 مليون برميل في اليوم بعد التداعيات في أوائل آذار/مارس؛ إذ تم اعتبار ذلك كمعيار، علماً إن التخفيضات السعودية أعلى من تخفيضات روسيا التي تنتج حوالي 11.3 مليون برميل في اليوم. ومن ناحية أخرى، كان إنتاج المملكة العربية السعودية حوالي 9.7 مليون برميل في اليوم فقط قبل تداعيات شهر آذار/مارس، حيث أصبح إنتاجاها أكبر من المطلوب، في حين كان إنتاج روسيا طوال الفترة بأكملها مستقراً نسبياً عند حوالي 11.5 مليون برميل في اليوم، لأنها لم تلتزم بأحدث أهداف الإنتاج المتفق عليها داخل أوبك + في كانون الاول/ديسمبر.

الاقتصاد مقابل السياسة

إن الشراكة بين روسيا والمملكة العربية السعودية هي الأساس الذي دعم استراتيجية أوبك+ (لمزيد من المعلومات حول العلاقات الروسية السعودية، انظر فصل 11 لـ«فرولوفسكي في هذا الكتاب»). وبينما توافقت مصالح البلدين حتى الآن، تبقى الاختلافات الأساسية التالية:

• في حين أن روسيا والمملكة العربية السعودية لديهما طاقة إنتاجية مماثلة، إلا أن موسكو تفتقر إلى قدرة السعوديين على تغيير مستويات الإنتاج بسرعة وبتكلفة منخفضة بسبب الخزانات المعقدة والمناخ الصعب. لهذا السبب، فإن خفض الإنتاج الروسي يتم تنفيذه دائماً بشكل تدريجي على مدى أشهر بدلاً من أسابيع؛ لذا فهي ليست المنتج الحقيقي البديل الذي لديه القدرة على إضافة أو سحب كميات من السوق العالمية بسرعة من أجل تحقيق توازن الأساسيات. على مدار العقود الماضية، تم الاضطلاع بهذا الدور التقليدي من المملكة العربية السعودية، التي اتخذت بوصفها القائد الفعلي لأوبك منذ فترة طويلة خياراً استراتيجياً للحفاظ على قدرة فائضة كبيرة[1]، مما يسمح للبلد بإدارة السوق من خلال زيادة الإنتاج صعوداً وهبوطاً في غضون أسابيع.

• تتضاءل احتياطيات النفط الروسية مقارنة بالسعودية وغيرها من دول أوبك الرئيسية، وتوقفت عند 106 مليار برميل، وتمثل الاحتياطيات الروسية المؤكدة ستاً وعشرين سنة من الإنتاج المتبقي (ما يسمى بنسبة الاحتياطيات إلى الإنتاج (R /P)) مقابل إحدى وستين سنة للسعودية وخمساً وثمانين لأوبك ككل[2]. هذا يعني أن تركيز موسكو بالضرورة أقصر مدى من تركيز شركائها في أوبك (الشكل 7.2).

• لا يعتمد الاقتصاد الروسي على عائدات النفط مثل اقتصاد المملكة العربية السعودية والمنتجين الرئيسيين الآخرين في أوبك. فوفقاً لتقديراتIMF (صندوق النقد الدولي)، فإن

---

(1) تُعرف إدارة معلومات الطاقة الفائضة على أنها حجم الإنتاج الذي يمكن تحقيقه في غضون ثلاثين يوماً، واستمراره لمدة تسعين يوماً على الأقل.

https://www.eia.gov/fi nance/markets/crudeoil/supply-opec.php.

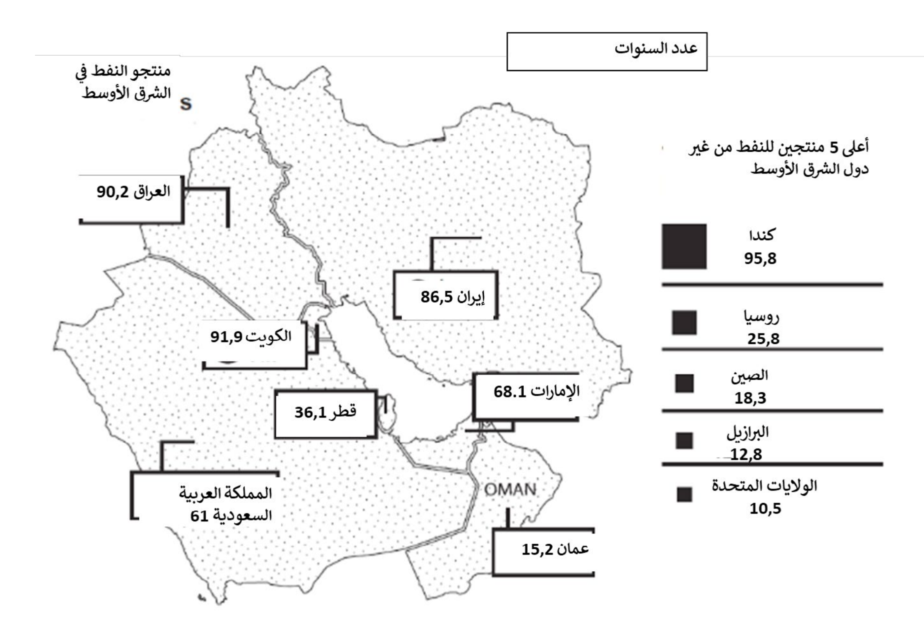
(2) BP, BP Statistical Review, 2018.

التعادل المالي لسعر النفط [1] للمملكة العربية السعودية حوالي 80 دولاراً للبرميل الواحد[2] على عكس العديد من منتجي أوبك؛ لأن روسيا نفّذت بنجاح بعض الإصلاحات الاقتصادية وأظهرت الحذر الاقتصادي الكبير بعد أزمة 2014. وأعلنت دول الأوبك - وعلى وجه الخصوص من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا- عن إصلاحات جريئة للتقليل من تعرضهم لتقلبات أسعار النفط ولكن بنجاح محدود. إن مرونة سعر الصرف في روسيا ووجود صناعات محلية متطورة في حقل النفط أبعد روسيا أكثر عن الآثار السلبية لانهيار الأسعار. وانخفض المعادل المالي لسعر النفط من حوالي 100 دولار للبرميل الواحد عام 2014 إلى 50 دولاراً للبرميل الواحد عام 2018 [3]. وتستخدم الحكومة الروسية سعراً محافَظاً عليه للنفط قدره 42 دولاراً للبرميل الواحد لأهداف تخطيطها للميزانية. وتم استخدام عائدات النفط الإضافية عندما كانت أسعار النفط أعلى لتجديد موارد الصندوق الوطني للثروة. وفي يأتي توضيحاً **لنسبة الاحتياطيات إلى الإنتاج عام 2017.**

(1) سعر التعادل المالي للنفط هو الحد الأدنى لسعر النفط اللازم للوفاء بالتزامات الإنفاق لبلد مُصدِّر للنفط مع موازنة الميزانيات العامة.

(2) IMF, Regional Economic Outlook: Middle East and Central Asia, November 2018. https://www.imf.org/en/Publications/REO/MECA/Issues/201802/10//mreo1018.

(3) S&P Global, Hooked on Oil: Is Russia Breaking, March 2019. Free? https://www.allnews.ch/sites/default/files/files/Hooked %20on %20Oil_Is %20Russia %20 Breaking %20Free_14 %20 March %202019.pdf.



الشكل 7.2 نسبة الاحتياطيات إلى الإنتاج، 2017. المصدر: BP، 2018.

• وحيث أن كل النفط السعودي من إنتاج شركة أرامكو السعودية؛ وهي شركة نفط وطنية، يأتي الإنتاج الروسي من عدة شركات مستقلة تابعة للسلطات. في الحقيقة، إن أكبر منتجي النفط الروسي (مثل: Rosneft (روسنفت) وGazpromNeft (غازبروم نفت)) يخضعون لسيطرة الدولة، والبقية المملوكة للقطاع الخاص (مثل: Lukoil (لوك أويل)) فمن غير المرجح أن تتحدى أمراً حكومياً مباشراً، ولكن كل منهم لديه استراتيجيات مختلفة، ومساهمون، ودائنون مختلفون للتعامل معهم. ويجعل قانون الضرائب الروسي شركات النفط أكثر عرضة لارتفاع أسعار النفط كباقي العقود الخاضعة لمقياس متدرج يختلف باختلاف الأسعار.

نتيجة لذلك، كان لا بد أن يلقى فرض كل خفض للإنتاج على الصناعة معارضة الرؤساء التنفيذيين ذوي الثقل السياسي. كان إيغور سيتشين، نائب رئيس الوزراء السابق، الذي أصبح الآن الرئيس التنفيذي لشركة روسنفت وعضو في الدائرة المقربة من بوتين، صريحاً بإعرابه عن استيائه من الاتفاق مع المنتجين الدوليين الآخرين. وفي عام 2014، قال إن أوبك «توقفت عملياً عن الوجود»، وأكد على الموقف نفسه بعد ست سنوات من خلال وصف التعاون مع أوبك بأنه «لا معنى له»، ويشتكي من أن الصفقة سمحت للولايات المتحدة بأن تصبح المنتج

الأكبر في العالم. ووفقاً لسيتشين، ارتفعت الصادرات الأمريكية إلى السوق الهندية عشرة أضعاف، وإلى الأسواق الأوروبية ستة أضعاف، من خلال قاعدة التخفيض، التي يجب أن يُنظر إليها على أنها تتحرك في الاتجاه الخاطئ. إن مخاوف روسيا بشأن التوسع في حصتها في السوق الأمريكية طويلة الأمد، ويفسر قرارها في أوائل شهر آذار/مارس، ومع ذلك يمكن للمرء أن يقول بأن الروس لم يتوقعوا العواقب[1].

بشكل عام، كان من الصعب قبل كوفيد-19، أن ترى كيف يمكن لأوبك إبقاء روسيا ضمن اتفاقيات الإنتاج لمدة أطول، بناءً على حجج السوق وحدها. لقد أعطى الانهيار في أسعار النفط بسبب الوباء أوبك + شريان حياة بعد تداعياتها الوجيزة في آذار/مارس 2020، لكن التحديات ستعاود للظهور بمجرد انتهاء الأزمة وتحسن الأسعار.

ومع ذلك، لا تزال هناك أسباب سياسية لروسيا لاتخاذ قرار بالبقاء لفترة أطول مع شركائها في أوبك. قد يكون التعاون مع المملكة العربية السعودية جزءاً من الأجندة (جدول الأعمال) السياسية الخارجية للكرملين في الشرق الأوسط. من الممكن أن تقرر روسيا الحفاظ على شراكة أوبك + مقابل الدعم في أماكن أخرى في المنطقة (على سبيل المثال: في سورية). يمكن رؤية اهتمام الرياض الواضح بالاستثمار في مشروع غاز القطب الشمالي الطبيعي المسال الروسي (LNG) من منظور العلاقات السياسية أيضاً.

الصفقات الثنائية

قدّمت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يد العون للاقتصاد الروسي، بفضل إعادة تدوير البترودولار، مما ساعد على تراكم الاحتياطيات المالية الكبيرة من العديد من المنتجين العرب في الصناديق السيادية. على الرغم من أن القيمة الحقيقية لهذه الأخيرة (الاحتياطات) غير معروفة علناً، ووفقاً لمعهد صندوق الثروة السيادية، هناك ما يقرب من 3 تريليون دولار محجوزة في مختلف الصناديق السيادية والاستثمارية في جميع أنحاء المنطقة، حيث يبحث مديروها عن خيارات مربحة للاستثمار فيها[2]. كانت إحدى هذه الوجهات صندوق الاستثمار المباشر الروسي (RDIF)، وهو مؤسسة مملوكة للدولة، ومصممة لجذب الأموال الأجنبية للبلد.

(1) Joshua Yaff a, «How the Russian-Saudi Oil War Went Awry-for Putin Most of All.»

(2) Sovereign Wealth Fund Institute, Sovereign Wealth Fund Rankings, 2018. https://www.swfinstitute.org/sovereign-wealth-fund-rankings/.

أُسّس صندوق الاستثمار المباشر الروسي في عام 2011، وقد نجح في جذب 30 مليار دولار من الخارج إلى الاقتصاد الداخلي، حيث يتم استثمار الأموال بشكل مباشر في البنية التحتية وحقوق ملكية الشركات. وأقام الصندوق شراكات مع العديد من الهيئات الاستثمارية في الخليج، فعلى سبيل المثال، شركة «مبادلة» في أبو ظبي، وشركة «ممتلكات» في البحرين، وهيئة الاستثمار الكويتية (KIA)، والقابضة القطرية، وصندوق الاستثمارات العامة السعودية (PIF)، وموانئ دبي العالمية (الإمارات العربية المتحدة). كانت هيئة الاستثمار الكويتية (KIA) أول صندوق ثروة سيادي (SWF) تتخذ من الخليج مقراً لها، وتقوم بالاستثمار المشترك مع صندوق الاستثمار المباشر الروسي في عام 2012 [1].

فيما بعد 2014 وحتى 2020، ارتفع تدفق الأموال من دول الخليج العربي إلى روسيا بشكل واضح. وفي عام 2015، وخلال زيارة نائب ولي العهد آنذاك الأمير محمد بن سلمان لموسكو كشف أن السعودية ستستثمر 10 مليار دولار في صندوق الاستثمار المباشر الروسي. كما تم ذكر ذلك في «برنامج صندوق الاستثمارات العامة» بالمملكة، كجزء من رؤية [2] 2030. ووفقاً للبرنامج، دخل صندوق الاستثمارات العامة السعودية مع صندوق الاستثمار المباشر الروسي في عدد من الاتفاقيات الخاصة بالمشاريع المشتركة تصل قيمتها إلى 10 مليار دولار خلال الفترة 2018-2020، مع استثمار مليار دولار بالفعل في التصنيع، وتجارة التجزئة، والبنية التحتية، والخدمات اللوجستية [3]. كانت هناك أيضاً محادثات حول استحواذ أرامكو السعودية على حصة في مشروع غاز القطب الشمالي الطبيعي المُسال 2-LNG بقيادة شركة Novatek (نوفاتيك)، أكبر منتج غير حكومي للغاز الطبيعي في روسيا، والذي سيبدأ في إنتاج الغاز الطبيعي المُسال في الأربع إلى الخمس سنوات القادمة. أعلنت روسيا ضمن عمل تضامني أن بنوكها ومستثمريها مهتمون بالمشاركة في الاكتتاب العام الأولي المخطط له لأرامكو (IPO)، والذي يتمتع بدعم شخصي قوي من ولي العهد الأمير محمد بن سلمان.

(1) Russia Direct Investment Fund, Partnerships, 2019. https://rdif.ru/Eng_Partnership/.

(2) نشرت المملكة العربية السعودية في نيسان/أبريل 2016، أول خطة إصلاح لها طويلة المدى، «رؤية عام 2030»، والتي تقدم خارطة طريق للسياسات والتطلعات الاقتصادية والاجتماعية للمملكة.

(3) The Public Investment Fund Program (2018–20). https://vision2030.gov.sa/sites/default/files/attachments/PIF%20Program_EN_0.pdf.

توجد مثل هذه الشراكات مع دول الخليج الأخرى؛ فبالإضافة إلى مبلغ 2 مليار دولار تم الالتزام بها لصندوق الاستثمار المباشر الروسي عام 2014، استحوذت هيئة قطر للاستثمار جنباً إلى جنب مع شركة جلينكور لتجارة السلع الأساسية بعد ذلك بعامين على حصة 19.5 % من أكبر شركة نفط روسية في روسيا (روسنفت) بسعر يقارب 12 مليار دولار. وأنشأت الإمارات وروسيا صندوق استثمار مشترك بقيمة 7 مليار دولار، لتسهيل العلاقات الثنائية والمبادرات لمشاريع البنية التحتية في المقام الأول في روسيا، ومن المتوقع وجود مشاريع أخرى ليتم تغطيتها في مجال الفضاء، والزراعة، والصناعات المدنية[1]. من الجدير بالذكر أنه يُعتقد أن العديد من الصفقات المذكورة أعلاه لم تتحقق بالكامل؛ أي أنه بعد الانهيار في أسعار النفط بسبب الوباء، فمن المحتمل أن يتم تقليص الاستثمارات بشكل أكبر.

سعت شركة روسنفت وشركات الطاقة الروسية الأخرى إلى فرص تجارية في جميع أنحاء المنطقة. لقد استثمرت مباشرة في مشاريع النفط والغاز، من الجزائر إلى ليبيا، ومصر، ولبنان، والبحرين، وإيران، والعراق، وعُمان، ورفعت وتيرة بناء العلاقات الوثيقة مع مختلف الحكومات والكيانات المحلية. ففي عام 2017 على سبيل المثال، وقّعت روسنفت اتفاقية إطار تعاون مع المؤسسة الوطنية للنفط في ليبيا التي «تضع الأساس» لاستثمار الشركة في قطاع النفط الليبي[2]. وفي مصر، استحوذت روسنفت على حصة 30 % من حقل ظهر للغاز الذي تديره شركة ENI (إيني)[3]. كما قامت الشركة بتسليم 129 ألف طن من الغاز الطبيعي المُسال إلى مصر بموجب عقد تم توقيعه عام 2015 مع الشركة المصرية القابضة للغاز الطبيعي(EGAS)[4]. وفي لبنان، استحوذت روسنفت على الإدارة التشغيلية لمنشأة تخزين النفط في الجزء الشمالي

(1) «UAE's Russian Community Is Most Active in MENA Region,» Gulf News, January 12, 2018. https://gulfnews.com/going-out/society/uaes-russian-community-is-most-active-in-mena-region-1.2155824.

(2) «NOC of Libya Signs Agreement with Rosneft of Russia,» National Oil Company, February 21, 2017. https://noc.ly/index.php/en/new-42095-/noc-and-rosneft -sign-cooperation-framework-agreement-at-london-ip-week.

(3) «Russia Obtains 30 % Stake in Egyptian Zohr Gas Field,» Rosneft, October 9, 2017. https://www.rosneft.com/press/today/item/188235/.

(4) «Russia Delivers LNG to Egypt under a Contract,» ITAR-Tass, August 4, 2017. https://tass.com/economy/959129.

من البلاد قرب الحدود مع سورية، مدة الصفقة عشرين سنة[1]. وفي العراق، استثمرت عدة شركات روسية في أصول الهيدروكربونات. كانت لوك أويل على سبيل المثال، شريكاً في حقل النفط العملاق غرب القرنة -2. وفي غضون ذلك، وقّعت روسنفت العديد من الصفقات المثيرة للجدل مع حكومة إقليم كردستان لتطوير احتياطيات الغاز الطبيعي، وبناء خط أنابيب غاز، بالإضافة إلى قرض بقيمة 1.2 مليار دولار مدفوعة مقدماً، مقابل النفط المنتج من قبل شركات أخرى غير روسنفت[2]. وعلى الرغم من أن الصفقات أغضبت حكومة بغداد، إلا أن تنديد الأخيرة (بغداد) كان له تأثير محدود على استراتيجية روسنفت.

وفي إيران، وقّعت شركة إنتاج النفط المملوكة للدولة الروسية Zarubezhneft (زاروبيجنفت) عقداً لـتطوير حقلي بيدر غرب وعبادان. لكن الشركة انسحبت بعدما أعادت الولايات المتحدة فرض العقوبات في تشرين الثاني/نوفمبر 2018. واتبعت روسنفت الطريق نفسه بعد أن تمت الموافقة سابقاً في تشرين الثاني/نوفمبر 2017، على أن يجري العمل على عدة عقود «استراتيجية» في إيران، والتي من شأنها أن تجلب ما يصل إلى 30 مليار دولار من الاستثمارات[3].

قال إيغور سيتشين، الرئيس التنفيذي لشركة روسنفت: «اهتمامنا بهذه المشاريع عملي محض، إذ تتميز هذه المنطقة بأكبر قاعدة موارد بتكلفة إنتاج منخفضة، ومن المحتمل أنه لم يتم الكشف عنها بالكامل حتى الآن... إذا قمنا بتضمين هذه المنطقة في مجال تكامل الأعمال الأوروبية الآسيوية، فسوف نساهم في حل المسائل الاقتصادية والاجتماعية العامة، وفي استقرار الطاقة والتقدم في المستوى المعيشي»[4].

---

(1) «Rosneft Enters into an Agreement for Operational Management of an Oil Products Terminal in Lebanon,» Rosneft, January 24, 2019. https://www.rosneft.com/press/releases/item/193617/.

(2) Henry Foy, «Rosneft 's Iraqi Kurdistan Oil and Gas Play Angers Baghdad,»Financial Times, October 30, 2018.
https://www.ft.com/content/ace52dd24-f0c-11e8-ac41–759eee1efb 74.

(3) «Rosneft Pulls Out of $30 bln Iran Oil Project over Fears of U.S. Sanctions,» Moscow Times, December 13, 2018.
https://www.themoscowtimes.com/201813/12//rosneft-pulls-out-of-30-bln-iran-oil-project-over-fears-us-sanctions-media-reports-a63811.

(4) «Igor Sechin Makes Key Report at X Eurasian Economic Forum in Verona,» Rosneft, October 19, 2017.
https://www.rosneft.com/press/today/item/188249/.

الطاقة النووية

فيما يتعلق بدبلوماسية الطاقة بين المنتجين والمستهلكين، ترى روسيا إن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تمثلان فرصةً جذابة، بفضل النمو المتسارع للمنطقة وتزايد الطلب على الكهرباء. إن روسيا هي واحدة من أكبر الدول المصدرة للتكنولوجيا النووية في العالم، فمؤسسة الدولة الروسية للطاقة الذرية Rosatom (روساتوم) هي شركتها الرئيسية، والتي تصف نفسها بأنها رقم 1 في العالم من حيث تنفيذ مشاريع بناء المفاعلات النووية في وقت واحد (ستة في روسيا وخمسة وثلاثين في الخارج)[1].

ساعدت روسيا إيران في بناء أول محطة لها للطاقة النووية (NPP) في بوشهر، والتي أصبحت جاهزة للعمل في عام 2011. وفي عام 2016، أعلنت إيران أنها ستبني محطة ثانية بمساعدة روسيّة أيضاً. وأعلنت شركة روساتوم مؤخراً أنها قيد المناقشة مع المملكة العربية السعودية فيما يتعلق بإمكانية بناء بعض محطات الطاقة النووية في المملكة. وفي عام 2019، أعلن وزير الطاقة الروسي ألكسندر نوفاك عن افتتاح فرع لشركة روساتوم بالرياض، حيث يعمل البلدان على تعزيز الشراكة في الاستخدام السلمي للتقنيات النووية[2]. إنّ لدى المملكة العربية السعودية خطة طموحة لبناء ستة عشر مفاعلاً نووياً بحلول عام 2032. وإذا تم تنفيذ الخطة، فسيكون أكبر مشروع نووي تجاري في المنطقة. لا عجب إذن أن قادة العالم في تكنولوجيا الطاقة النووية - أي الشركات الأمريكية، والصينية، والفرنسية، والكورية، والروسية -يتوددون جميعهم إلى السعوديين، ويسعون للاستفادة من هذه الفرصة التجارية المربحة بشكل خاص.

في عام 2014، وقّعت الأردن صفقة مع شركة روساتوم، بعد أن ربحت الشركة مناقصة بناء أول محطة طاقة نووية في البلاد. وافق الاحتكار النووي للدولة الروسية على تمويل 49.9 % للمحطة التي تبلغ تكلفتها 10 مليار دولار[3]. وفي عام 2017، وقّعت مصر أيضاً صفقة مع روساتوم لبناء أربعة مفاعلات على مدى الاثنتي عشرة سنة القادمة، وقدّمت روسيا قرضاً

(1) Rosatom, 2019. http://www.rosatom.ru/en/about-us/.

(2) «Rosatom Opens a Branch in Saudi Arabia,» Rosatom, June 11, 2019. https://www.rosatom.ru/en/press-centre/news/rosatom-opens-a-branch-in-saudi-arabia/.

(3) World Nuclear Association, Nuclear Power in Jordan, 2017. http://www.world-nuclear.org/information-library/country-profi les/countries-g-n/jordan.aspx.

طويل الأجل بقيمة 25 مليار دولار بفائدة سنوية 3 % لتمويل بناء محطة الضباء[1]. وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية ادعت أنها اختارت روساتوم من بين ثلاثة متنافسين في المناقصة، إلا أنه ليس من الواضح من هم المزايدون الآخرون، أو فيما إذا كانوا موجودين بالفعل. ونظراً لقوة العلاقات الدبلوماسية والعسكرية بين البلدين مصر وروسيا (ناقش ذلك أليكسي خليبنيكوف في الفصل 12 من الكتاب)، فلم تكن نتيجة «العرض» مفاجأة. كما أن روسيا مورّد رئيسي لليورانيوم المخصّب لـ(بركة)، أول محطة للطاقة النووية في دولة الإمارات العربية المتحدة (والعالم العربي). أخيراً وليس آخراً، روساتوم هي وراء مشروع بناء أول محطة للطاقة النووية في تركيا في أكويو، والتي من المتوقع أن تنتج وحدتها الأولى في عام 2023.

الفوائد الاقتصادية للتكنولوجيا النووية للمصدّر واضحة: كما هو مفصّل في البيانات الآتية: إن أربع وحدات لبناء محطة للطاقة النووية من قبل روساتوم تستوعب 24,000 شخص في العمل في قطاعات مختلفة من الصناعة النووية داخل روسيا، في حين أن كل روبل في القرض النووي يجلب 1.8 روبل إلى الاقتصاد عن طريق المشاريع الروسية، بما في ذلك إمدادات الوقود، وتدريب الموظفين، وأقسام التشغيل، وما إلى ذلك. يوفّر كل روبل أيضاً 0.54 روبل من الدخل المباشر إلى الميزانية الروسية[2]. وعلاوة على ذلك، فنادراً ما تكون صفقات الطاقة النووية مشروعات قائمة بذاتها؛ إذ عادةً ما يكون التفاوض بين الحكومات أو الشركات ذات الدعم السيادي القوي. وفي كثير من الأحيان، هي جزء من حزمة أوسع لإقامة تعاون بالعلاقات الاقتصادية والسياسية على مدى عقود، لتتناسب مع دورة الحياة الطويلة لمشروع الطاقة النووية. بهذه الطريقة، حتى لو لم يتم بناء محطة للطاقة النووية، فإن التعاون في مجال الطاقة النووية المدنية في كثير من الأحيان هو نقطة البداية لتعاون اقتصادي طويل الأمد. وتعليقاً على التعاون مع المملكة العربية السعودية في مجال الطاقة النووية، صرّح يفغيني باكرمانوف رئيس شركة (Rosatom Overseas) روساتوم أوفرسيس):

(1) Asma Alsharif, «Russia to Lend Egypt $25 billion to Build Nuclear Power Plant,» Reuters, May 19, 2016.
https://www.reuters.com/article/us-egypt-russia-nuclear/russia-to-lend-egypt-25-billion-to-build-nuclear-power-plant-idUSKCN0YA1G5.

(2) Nikita Minin and Tomas Vlcek, «Determinants and Considerations of Rosatom’s External Strategy,» Energy Strategy Reviews, no. 17 (2017): 37–44.

«إننا نعمل معاً مع الجانب السعودي على أجندة عريضة لا تقتصر فقط على المشاركة في الإجراء التنافسي لمشروع بناء محطة للطاقة النووية ذات سعة كبيرة، ولكن أيضاً لمجموعة كاملة من المجالات الواعدة الأخرى»[1].

الخاتمة

أثبتت دبلوماسية الطاقة الروسية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أنها ناجحة. وقد نتج حتى الآن عن العلاقات المتنامية في مجال الطاقة مع دول المنطقة منافع متبادلة. وتمكنت روسيا وشركاؤها من الرد على التحديات المشتركة وتقدير المصالح المشتركة.

مارست اتفاقية أوبك + قبل جائحة كوفيد - 19، ضغطاً تصاعدياً على أسعار النفط، مما وفّر الدعم الكبير الذي تمس الحاجة إليه لهؤلاء اللاعبين. إن تدفق بترودولار الشرق الأوسط في خزائن روسيا خفف جزئياً من تأثير العقوبات الغربية ضد روسيا. وكذلك إن لاستثمارات شركات النفط، والغاز، والطاقة النووية الروسية في السوق الإقليمي الكبير تداعيات إيجابية على المدى الطويل على الاقتصاد الروسي.

ومع ذلك، فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بعيدة كل البعد عن كونها كتلة متماسكة. على العكس من ذلك، فإن المنافسات المريرة بين البلدان وداخلها هي القاعدة. وابتغت روسيا الحفاظ على علاقة إيجابية مع البلدان في جميع أنحاء المنطقة، والتوسط بين ممثلي المملكة العربية السعودية وإيران، وتقديم مساعدات عسكرية لنظام الأسد في سورية، حيث تقاتل فصائل المعارضة المدعومة من دول مجلس التعاون الخليجي، بينما في الوقت نفسه تتوقع صفقات تجارية مربحة مع دول المجلس ذاته.

قد يبدو هذا مفاجئاً، ولكن يبدو أن روسيا تناور طريقها بمهارة عبر المتاهة السياسية في المنطقة لتحقيق أهدافها الاستراتيجية. إلى متى يمكن لهذه الموازنة أن تستمر؟ يبدو على الأرجح أن روسيا ستقوم في الوقت الحالي بالاستمرار في متابعة استراتيجيتها في المنطقة نظراً إلى الاتجاه الحالي نحو تقليص انخراط أمريكا والأوروبيين في الشرق الأوسط، مع تجنب الانغماس في المشاحنات السياسية المحلية.

---

(1) «Rosatom Opens a Branch,» 2019.

القسم الثالث

الشراكات الإقليمية

الفصل 8

روسيا وإيران: الأمر معقّد

كارول ر. سايفتز

حتى قبل أن يسحب الرئيس الأمريكي دونالد ج. ترامب بلاده الولايات المتحدة من خطة العمل الشاملة المشتركة -المصممة للحد من الاختراق الإيراني في إنتاج الأسلحة النووية-، كان من الواضح أن روسيا وإيران تتقاربان، وتصبح علاقتهما متعددة الأوجه ودقيقة: لقد تعاونتا في سورية (تمت مناقشة ذلك في الفصل 9)، وفي فضاء ما بعد الاتحاد السوفيتي، وفي المفاوضات التي قادت خطة العمل الشاملة المشتركة، وفي الآونة الأخيرة بالترافق مع تصاعد التوترات بين طهران وواشنطن عام 2019.

يثير هذا السؤال ما إذا كانت روسيا وإيران شريكان استراتيجيان أم أن هناك حدود لاحتضانهما المتبادل! سوف يجيب هذا الفصل على هذه الأسئلة في سياق طموحات موسكو الاستراتيجية.

ويتضح أن هناك اتفاقاً عاماً على أن هدف فلاديمير بوتين والسياسة الخارجية الروسية الرئيسية هو استعادة مكانة موسكو كقوة عظمى. كتب أندريه كورتونوف، مدير مجلس الشؤون الخارجية الروسي: «تعكس مصالح روسيا الجيوستراتيجية فكرة عودة البلاد إلى المسرح العالمي كقوة عظمى»[1]. وفي الوقت نفسه، يناقش كورتونوف وآخرون بأن سلوك السياسة الخارجية للبلد مقيّد بنقاط الضعف الخاصة بها[2]. إن ذلك يضع روسيا في بعض الأحيان في موقف محفوف بالمخاطر.

---

(1) Irina Zviagelskaya and Nikolay Surkov, «Russian Policy in the Middle East: Dividends and Cost of the Big Game,» Russian International Affairs Council Working Paper 51(2019): 4..

(2) See, for example, Andrej Krickovic, «Russia's Challenge: A Declining Power's Quest for Status,» PONARS, no. 543, October 2018.

http://www.ponarseurasia.org/memo/russia-challenge-declining-power-quest-status.

يبدو الشرق الأوسط حالياً مجالاً حيوياً في سعي روسيا للحصول على مكانة قوة عظمى. فإذا كان الصراع العربي - الإسرائيلي هو نقطة الوصول إلى الشرق الأوسط في أيام الحرب الباردة، فيمكن القول أن إيران وسورية هي نقطة الوصول اليوم. بالفعل، يبدو أن الجمهورية الإسلامية أصبحت في مركز الحسابات الروسية في المنطقة[1]. ويتألف هذا الفصل من ثلاث دراسات حالة موجزة. ستحلل الأولى كيفية تعاون موسكو وطهران فيما يسميه الروس المدى ما بعد الاتحاد السوفيتي، بما في ذلك اتفاقية 2018 بشأن ترسيم حدود بحر قزوين. أما الثانية فستسلط الضوء على المفاوضات حول الاتفاق النووي الإيراني. والثالثة ستبحث في المواجهة الحالية في الخليج. ستقدم دراسات الحالة معاً صورة لسياسة روسيا في الشرق الأوسط، وتسهّل تقويم العقبات التي تعترض أهداف السياسة الخارجية لروسيا. وسوف يحاجج الفصل بأنه على الرغم من تطابق المصالح الحالي بين طهران وموسكو -على حد تعبير أحد المراقبين- فإن الدولتين «ليستا حليفتين»[2]. يعني الاختلاف هنا أنه قد يكون تركيز روسيا على إيران محفوفاً بالمخاطر.

الفضاء ما بعد الاتحاد السوفيتي

عندما انهار الاتحاد السوفيتي عام 1991، كان على كلٍ من روسيا الاتحادية وإيران التكيّف مع الحقائق الجيوسياسية الجديدة. فلم تعد الدولتان متجاورتان، وظهرت ست دول جديدة ذات أغلبية مسلمة في منطقتهما المشتركة. وفي وقتٍ مبكر من التسعينيات، اندلعت صراعات داخل هذه الدول مثل طاجيكستان وجورجيا، وبين هذه الدول وبشكل خاص بين أرمينيا وأذربيجان. تفاعلت روسيا الاتحادية -وفي بعض الحالات، ساعدت على التحريض- مع أزمات متعددة. وخلال الفترة نفسها، حصلت إيران على دور حاسم في المنطقة. وحتى في الوقت الذي كانت فيه روسيا حذرة من التدخل الأجنبي في مناطق تعتبرها فناءها الخلفي، فقد تمكنت في النهاية من العمل بشكل تعاوني مع الإيرانيين لإخماد بعض النزاعات على الأقل.

(1) Nikita Smagin, «Strategicheskoe Nedoverie. Pochemy u Rossii i Irana ne Polychaetsia Stati Soiuznikami [Strategic Mistrust. Why Russia and Iran Are Not Able to Become Allies],» Moscow Carnegie Center, June 4, 2019.
https://carnegie.ru/commentary/79251.

(2) Ibid.

على سبيل المثال، ففي أوائل التسعينيات، اندلعت حرب أهلية بين العشائر المتنافسة والفصائل السياسية في طاجيكستان. انحازت روسيا إلى الحكومة المعلنة من جانب واحد في دوشانبي [العاصمة الطاجيكية]، بينما كانت إيران تدعم في البداية ما كان يُنظر إليهم على أنهم متمردون إسلاميون. وعلى الرغم من حذرهما المتبادل، اتفقت إيران وروسيا على وضع حدٍ للحرب.

استثمرت طهران بكثافة في مشاريع البنية التحتية، وحاولت تشجيع اهتمام الطاجيك (من طاجيكستان) بإعادة اكتشاف تراثهم الفارسي[1]. ومن جانبها، حصلت موسكو على الإذن لنشر القوات على طول الحدود الطاجيكية الأفغانية. وبذلك، أعادت القوتان معاً الاستقرار في منطقة حيوية استراتيجياً.

سعت إيران وروسيا أيضاً إلى تحقيق مصالح حيوية في القوقاز. فعندما اندلعت الحرب بين أرمينيا وأذربيجان المجاورة حول ناغورنو- كاراباخ، دعمت كلاً من موسكو وطهران أرمينيا - ولكن لأسباب مختلفة جداً. إيران والتي فيها عدد كبير من السكان بأصول أذرية، كانوا حذرين من التهديد الوحدوي الذي تشكله أذربيجان المستقلة الآن -ناهيك عن تهديد موجات اللاجئين- بينما دعمت روسيا أرمينيا للحصول على موطئ قدم في يريفان (عاصمة أرمينيا)، وردع تركيا عن التدخل إلى جانب أذربيجان. وعلى الرغم من القتال المتقطع، فقد تم الحفاظ على وقف إطلاق النار الهش الذي تم الاتفاق عليه بشكل أساسي من قبل الجانبين، وصمد إلى حدٍ كبير حتى عام 2020. وعلى مدى السنوات القليلة الماضية، تحولت روسيا إلى موقف أكثر حيادية، ويتم حالياً بيع الأسلحة لكليهما. ومن المدهش أن يريفان عضوة في منظمة معاهدة الأمن الجماعي (CSTO)؛ وبالتالي، لا ينبغي أن تبيع روسيا الأسلحة لعدوها [أذربيجان][2]. ولم تعمّق إيران أيضاً الروابط الاقتصادية مع يريفان فحسب، بل بدأت أيضاً في تحسين الروابط

(1) Brenton Clark, «Persian Games: Iran's strategic Foothold in Tajikistan,» Open Democracy, April 10, 2012. https://www.opendemocracy.net/en/odr/persian-games-irans-strategic-foothold-in-tajikistan/.

(2) For Russia and other allies Nagorno-Karabakh is outside the CSTO remit as it is not a part of Armenia. Azad Garibov, «Pashinyan Tries to Leverage Armenia's CSTO Membership against Azerbaijan,» Eurasia Daily Monitor 16, no. 174, December 13, 2009. https://jamestown.org/program/pashinyan-tries-to-leverage-armenias-csto-membership-against-azerbaijan/.

مع باكو(عاصمة أذربيجان). وفي الآونة الأخيرة في عام 2019، وقّعت الجارتان اتفاقية لزيادة التعاون العسكري[1].

إن التركيز على الاقتصاد والتجارة بدلاً من الجغرافيا السياسية من الأمور المركزية في الحسابات المتغيرة. فمن جانبها، تخلت إيران عن محاولات إثارة احتجاجات الشيعة في أذربيجان، وبدلاً من ذلك، تنظر إلى باكو باعتبارها حلقة وصل مهمة فيما يسمى مشروع ممر الشمال-الجنوب[2]. بالنسبة لروسيا أيضاً، تلعب أذربيجان دوراً رئيسياً في مجال الطاقة، وكذلك في مشروع الشمال-الجنوب. وفي محاولة لتعزيز مشروع الممر، التقى رؤساء روسيا، وإيران، وأذربيجان في باكو في آب/أغسطس 2016 لمناقشة أمور الأمن والتجارة. وقد أشارت التقارير الإخبارية في ذلك الوقت إلى تركيز رؤساء الدول الثلاثة على تطوير البنية التحتية للنقل والاتصالات في المنطقة[3]. استمرت هذه القمم الثلاثية، ومع ذلك، فإن المشروع ظل طموحاً بشكل كبير. وفي أوائل عام 2019، سعت إيران للحصول على قرض بقيمة 5 مليار دولار من روسيا لاستكمال جزء من البنية التحتية[4]. إن من شأن هذا الاستثمار الروسي المحتمل في إيران أن يزيد من ربط البلدين معاً.

يمكن القول إن كلاً من التناقضات والتقاربات بالمصالح لإيران وروسيا تظهر بشكل أكبر في المناقشات طويلة الأمد حول ترسيم حدود بحر قزوين الغني بالطاقة. وهنا أيضاً، فإن

---

(1) «Iran, Azerbaijan Sign Agreement on Defense Cooperation,» Press TV, January 17, 2019. https://www.presstv.com/Detail/2019586006/17/01//Iran-Azerbaijan-defense- MoU-Major-General-Mohammad-Baqeri-Baqeri--Zakir-Hasanov?fbclid=IwAR2pCtQlQsR_0yvKCeblDYtmZsy5reKLCPCozAKkQxTt70FSzspMtU-iRc0.

(2) The North–South Corridor envisions three directions of interest for Iran and Azerbaijan: Caucasus–Persian Gulf, Central Asia–Persian Gulf, Caspian Sea– Iran. «North-South International Transport Corridor,» Ministry of Transport, Communication and High Technologies of the Republic of Azerbaijan. https://mincom.gov.az/en/view/pages/104/.

(3) Fariz Ismailzada, «The North-South Transport Corridor Finally Kicks Off,» The Central Asia-Caucasus Analyst, September 27, 2016. https://www.cacianalyst.org/publications/analytical-articles/item/13395-the- %E2 %80 %9Cnorthsouth %E2 %80 %9D-transport-corridor-fi nally-kicks-off.html.

(4) Paul Goble, «Can the Kremlin Finally Realize the North-South Transit Corridor?,» The Jamestown Foundation, February 16, 2019. https://jamestown.org/program/can-the-kremlin-fi nally-realize-the-north-south-transit-corridor/.

انهيار الاتحاد السوفيتي خلق حقائق جيوسياسية جديدة: فقد ظهرت فجأة خمس دول ساحلية تؤكد سيادتها على المياه الإقليمية، وموارد الطاقة المقدرة بما يقرب من 50 مليار برميل من النفط، وما يقرب من 9 تريليون متر مكعب من الغاز الطبيعي[1]. وقد كان التنازع أيضاً على توجيه الصادرات، بما في ذلك خطوط الأنابيب تحت البحر، والعمليات البحرية.

بادرت باكو بجذب الاستثمار الأجنبي عام 1994 عندما وقّعت ما يسمى بـ «صفقة القرن»، وفتحت القطاع الأذربيجاني في بحر قزوين للتنقيب عن البترول واستخراجه. وفي الوقت نفسه تقريباً، وقّعت الحكومة الكازاخستانية اتفاقاً مع شركة شيفرون لتصدير النفط عبر روسيا وإخراجه من ميناء نوفوروسيسك. بالنظر إلى هذه التطورات، اجتمعت الدول الساحلية مراراً وتكراراً لمناقشة مسألة الترسيم. تم إحراز بعض التقدم عام 2003، عندما اتفقت روسيا، وأذربيجان، وكازاخستان على ترسيم القطاعات الشمالية للبحر. ولكن بقيت المناقشات؛ حيث استمرت أذربيجان وتركمانستان في الخلاف في الحقول وسط البحر، واعترضت إيران مراراً على مخططات ترسيم الحدود المقترحة والمتعددة. والأمر الأكثر دراماتيكية، إن إيران ذهبت بعيداً حينما استأجرت شركةBritish Petroleum (بريتيش بتروليوم) سفينة مُسيّرة للتنقيب عن الغاز في القسم الأذري من البحر[2]. وأخيراً، في آب/أغسطس 2018، تم الاتفاق على صفقة. وأشاد فلاديمير بوتين بالاتفاقية وصرح بأنها: «تخلق الظروف لتحقيق التعاون بين البلدان حتى مستوى جديد نوعياً من الشراكة»[3]. ثم بيّن الرئيس الكازاخستاني نور سلطان نزار باييف أن: «السنوات العديدة من العمل الشاق» أنتجت الاتفاقية الجديدة[4].

(1) «Five States Sign Convention on Caspian Legal Status,» RFE/RL, August 12, 2018. https://www.rferl.org/a/russia-iran-azerbaijan-kazakhstan-turkmenistan-caspian-.seasummit/29428300.html

(2) Douglas Frantz, «Iran and Azerbaijan Argue over Caspian's Riches,» New York Times, August 30, 2001. https://www.nytimes.com/200130/08//world/iran-and-azerbaijanargue-over-caspian-s-riches.html.

(3) «Five States Sign …»

(4) Dina Khrennikova, «Caspian Sea Breakthrough Treaty Set to Boost Oil, Pipeline Plans,» Bloomberg News, August 12, 2018. https://www.bloomberg.com/news/articles/201812-08-/caspian-sea-breakthrough-treaty-set-to-boost-oil-pipeline-plans.

وكما لوحظ أعلاه، فقد انتقل الموقف الروسي من عرقلة كل تنمية من قبل دول أخرى من خلال الاتفاقية الثلاثية عام 2003 إلى هذا الترتيب الجوهري بين الدول الخمسة. ومن الواضح أن موسكو تتفهم الواقع، وتحتاج إلى ترسيم الحدود لاستغلال الموارد في منطقتها البحرية. لكن الأمر الأقل وضوحاً هو فيما إذا كانت الاتفاقية الجديدة قد أفسحت المجال لبناء خط أنابيب غاز عبر بحر قزوين المثير للجدل منذ فترة طويلة؛ إذ تنص المادة 14 بحق أي دولة في مد خط أنابيب تحت البحر، بشرط موافقة الدول التي ستعبر الأنابيب من خلال مياهها الإقليمية[1]. ومع ذلك، تنصّ المادة نفسها على أن أي خط أنابيب يجب أن يمتثل للمعايير البيئية. لقد ترك ذلك احتمال أن تغلق الدول الساحلية الأخرى خطوط الأنابيب تحت الماء. وبالفعل، أوضح الرئيس الإيراني حسن روحاني أن تعيين حدود قاع البحر سيتطلب اتفاقيات إضافية[2].

ومن الأهمية بمكان أن الاتفاقية الجديدة تضع قيوداً على كل من أساطيل الدول الساحلية، وربما الأهم من ذلك، منع أي سفن عسكرية غير ساحلية من دخول البحر. لقد خفف ذلك من مخاوف روسيا بشأن احتمالية زيادة وجود الناتو في المياه الدولية. ومع ذلك، فإن الاتفاقية لا تلغي الاتفاقات طويلة الأمد والتي تعهدت فيها أذربيجان وكازاخستان بتقديم الدعم اللوجستي لقوات الولايات المتحدة والناتو في أفغانستان.

ربما تكون إيران الأقل استفادة من ذلك؛ فبعد سنوات من المطالبة بحصة متساوية من الساحل، حصلت طهران على أصغر جزء من البحر. ومع ذلك، فإن المادة 1 قد خففت مخاوف إيران، لأنها تمنح تعويضاً لتلك الدول غير المستفيدة من ترسيم الحدود[3].

---

(1) Ilgar Gurbanov, «Caspian Convention Signing and Implications for the Trans-Caspian Gas Pipeline,» Eurasia Daily Monitor, September 12, 2018. https://jamestown.org/program/caspian-convention-signing-and-the-implications-for-the-trans-caspiangas-pipeline/. See also the full document: http://kremlin.ru/supplement/5328.

(2) Olzhas Auyezov, «Russia, Iran, and Three Others Agree Caspian Status, but Not Borders,» Reuters, August 12, 2018.
https://www.reuters.com/article/us-kazakhstan-caspian-borders-idUSKBN1KX0CI.

(3) Hamidreza Azizi, «Caspian Sea Convention Moves Iran Closer to Northern Neighbors,» A l-Monitor, August 22, 2018.
www.al-monitor.com/pulse/originals/201808//Caspian-sea-convention-iran-russia-us-sanctions-pipeline.html.

الطموحات النووية الإيرانية

في عام 2002، أعلن المجلس الوطني للمقاومة في إيران عن وجود منشآت نووية غير معلنة بالقرب من ناطانز وآراك. بدأ الكشف عن ذلك بعد سنوات من المفاوضات مع المجتمع الدولي لتقليص البرنامج الإيراني. ويسعى الإيرانيون أحياناً إلى تجنب العقوبات؛ فيقبلون بعمليات التفتيش، ويوافقون على التعليق الطوعي لبرنامجهم النووي. ولكن كل خطوة إلى الأمام تليها المزيد من الأدلة على أن إيران مارست المزيد من الأنشطة السرية.

في هذه الفترة، كانت المصلحة المباشرة لروسيا هي إبرام عقد مفاعل بوشهر. وقد تم توقيع العقد مبدئياً في عام 1995، الذي تبلغ قيمته أكثر من 1 مليار دولار. في تلك المرحلة، وافق بوريس يلتسين، رئيس روسيا آنذاك، على اعتراضات الولايات المتحدة، ووافق على استبعاد أجهزة الطرد المركزي الغازية من الصفقة. وأعلنت روسيا خلال الشرح والمفاوضات في عامي 2002- 2003 تأجيل المفاعل حتى عام 2005، وأن موسكو لن تزود بوشهر بالوقود ما لم يوافق الإيرانيون على إعادة جميع قضبان الوقود المستهلك إلى روسيا. ومع استمرار المفاوضات الدولية، حاولت روسيا على حد سواء مساعدة إيران في إحباط العقوبات، والحفاظ على مكانتها في المجتمع الدولي أيضاً. ففي عام 2005على سبيل المثال، صرح رئيس الوكالة الذرية الروسية: «من حق إيران تطوير طاقة نووية مدنية، ومع ذلك، هناك بعض القضايا التي تحتاج إلى توضيح من خلال وكالة الطاقة الذرية الدولية (IAEA)»[1].

استمرت المراوغة الروسية حيث حاولت موسكو حماية مصالحها التجارية من جهة، وبشكل أعم حماية علاقاتها مع طهران من جهة أخرى، والبحث عن طرق للتوسط بين إيران والقوى الكبرى الأخرى. على وجه الخصوص، عرضت روسيا على إيران في عام 2009 إرسال 1200 كيلوغرام من اليورانيوم المخصّب الخفيف إلى روسيا للمزيد من التخصيب. لكن في النهاية، اعترضت إيران وانهارت الصفقة. ومرة أخرى في عام 2011، اقترح وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف صفقة متسلسلة، تقلص خلالها إيران أنشطتها النووية مقابل تخفيف العقوبات. لقد قبلت إيران في البداية الاقتراح، لكن القوى الغربية لم تقبله. وأشار المحللون خلال هذه الفترة إلى أنه على الرغم من أن روسيا لم تكن تريد أن تمتلك إيران أسلحة نووية،

---

(1) As cited in Carol R. Saivetz, «Moscow's Iranian Policies: Opportunities and Dangers,»Crown Center, Brandeis University, Middle East Brief, 2007. https://www.brandeis.edu/crown/author/saivetz.html.

إلا أن الكرملين لم ينظر إلى مثل هذه الأسلحة على أنها تهديد مباشر لموسكو[1]. وبالرغم من المراوغة الروسية، دعمت موسكو بشكل عام الجهود الدولية لحل القضية النووية. وفي الواقع، أيد الكرملين العقوبات المتزايدة المنفذة ضد إيران، وتراجع عن صفقة لتسليم صواريخ S-300 لطهران (حتى أن الإيرانيين حاولوا مقاضاة الروس في محكمة دولية)، وكان جزءاً أساسياً من إعادة ضبط الوضع مع الولايات المتحدة تحت إدارة أوباما.

استمرت المفاوضات المتقطعة وغير المنتظمة حتى عام 2015، عندما تمّ إنجاز خطة العمل الشاملة المشتركة المصممة للحد من كسب إيران الوقت لامتلاك سلاح نووي، بين ما يسمى P5+1 (مجموعة 5+1: هي مجموعة الدول الخمسة الدائمة العضوية في مجلس أمن الأمم المتحدة؛ وهي الولايات المتحدة، و فرنسا، و بريطانيا، وروسيا، والصين بالإضافة إلى ألمانيا، والتي تتولى المفاوضات مع إيران حول برنامجها النووي. بدأت المجموعة عملها في عام 2006 ولا تزال مستمرة حتى اليوم) وإيران. تطلبت الصفقة الموقعة في تموز/يوليو 2015 أيضاً عمليات تفتيش ربع سنوية من الوكالة الدولية للطاقة الذرية للمنشآت النووية. كانت روسيا مسرورة بشكل أساسي بخطة العمل الشاملة المشتركة، وتوقعت أن تعزز تصدير الأسلحة، وتمهد الطريق لمزيد من التبادلات الاقتصادية الديناميكية مع إيران. كانت موسكو قد رفعت بالفعل حظرها على صواريخ S-300s في نيسان/أبريل 2015، عندما وافقت إيران مبدئياً على إطار الاتفاق النووي. اعتباراً من عام 2020، وسيتم السماح لموسكو لبيع أسلحة إضافية لطهران، كما بدأت روسيا في الاستثمار في الاقتصاد الإيراني، وبشكل عام بتطبيع العلاقات مع إيران. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة -بسبب الاعتراضات من الكونغرس- مطالبة بتقديم مصادقة كل تسعين يوماً على أن إيران ممتثلة للاتفاقية. وفي 13 تشرين الأول/أكتوبر 2017، أعلن الرئيس دونالد ترامب أن إدارته لم تعد تصادق على الامتثال، وفي 8 آيار/مايو 2018، أعلن أن الولايات المتحدة ستتوقف عن تنفيذ خطة العمل الشاملة المشتركة. معرباً عن «قلقه العميق». ومن جهته شرع الكرملين في العمل مع إيران والموقّعين الآخرين على الاتفاقية للحفاظ على الصفقة[2].

(1) Author's Interviews in Moscow, November 2011.

(2) Andrey Sushentsov, «A Russian View on America's Withdrawal from the Iran Deal,» N ational Interest, May 15, 2018.
https://nationalinterest.org/feature/russian-view-americas-withdrawal-the-iran-deal-25836.

التوترات في الخليج

اقترن إلغاء الولايات المتحدة لخطة العمل الشاملة المشتركة بإعادة إدخال العقوبات الأساسية ضد إيران. وفي البداية على الأقل، سمحت واشنطن بإعفاءات مؤقتة لاستيراد النفط الإيراني وإن كان بكميات مخفضة[1]. كما سمحت الإدارة الأمريكية بإعفاءات لمشاريع منع الانتشار في آراك، وبوشهر، وفوردو. في الوقت نفسه، يعمل الموقّعون الآخرون على الحفاظ على هيكلية الاتفاق. ففي 31 كانون الثاني/يناير 2019، أنشأت ألمانيا، وفرنسا، والمملكة المتحدة « آلية هادفة خاصة»، وهي أداة دعم التبادل التجاري (INSTEX).

بحلول ربيع 2019، زادت دورة التصعيد الانتقامية واحدة بواحدة، بين الولايات المتحدة وإيران بشكل كبير. ففي البداية، صعّدت واشنطن الضغط بإضافة كيانات أخرى إلى قائمة العقوبات بما في ذلك الحرس الثوري الإيراني. وردّاً على ذلك، أعلن الرئيس الإيراني روحاني أن إيران ستنصب سلسلة من عشرين جهاز طرد مركزي من طراز IR-6 في ناطانز. بعد ذلك في أوائل آيار/مايو، أضرّت المزيد من التنازلات المحدودة للولايات المتحدة بشكل ملحوظ بالمصالح التجارية الروسية من خلال رفض بناء مفاعل ثاني في بوشهر.

في منتصف آيار/مايو، سافر وزير الخارجية الأمريكي مايك بومبيو إلى سوتشي للقاء المسؤولين الرسميين الروس، ومن المفارقات إلى حدٍ ما، أن رحلة بومبيو كانت مصممة ظاهرياً لـتحسين العلاقات الثنائية مع روسيا، التي حسبما يظهر ضمن هذا السياق، أنها اتخذت موقفاً حذراً، وشدد بوتين على أسفه لانهيار خطة العمل الشاملة المشتركة، لكنه حذّر إيران بشكل فعال، وذلك من خلال: أولاً، انتقد إيران ضمنياً لخرقها بعض شروط الاتفاقية، وقال: «بمجرد أن تتخذ إيران أولى خطواتها المتبادلة وتقول إنها ستغادر، سينسى الجميع بحلول الغد أن الولايات المتحدة كانت البادئ لهذا الانهيار»[2]. ثانياً، قدّم إشعاراً بأن روسيا لن تكون «كتيبة لصدّ النار»[3].

(1) «Timeline of Nuclear Diplomacy with Iran,» Arms Control, July 2019. https://www.armscontrol.org/factsheet/Timeline-of-Nuclear-Diplomacy-With-Iran..

(2) As cited in Mark N. Katz, «Russia and the Iran Crisis,» L obelog, May 17, 2019. https://lobelog.com/russia-and-the-iran-crisis/.

(3) «Russia Is Not a 'Fire Brigade' to Save Disintegrating Iran Deal, Says Putin,» Times of Israel, May 16, 2019. https://www.timesofi srael.com/russia-not-fi re-brigade-to-save-disintegrating-iran-deal-says-putin/.

وفي آيار/مايو أيضاً، أعلن جون بولتون، مستشار الأمن القومي لترامب حينها، أنه سيتم نقل مجموعة حاملة الطائرات (أبراهام لينكولن) USS *Abraham Lincoln*وقوات إضافية للمنطقة. وبعد أيام قليلة، ردّت إيران بإعلانها أنها لن تعود تلتزم بالقيود المفروضة على اليورانيوم المخصّب الواردة في خطة العمل المشتركة الشاملة، وسوف تستأنف العمل في مفاعل الماء الثقيل في آراك. وقد سافر نائب وزير الخارجية الروسي سيرغي ريابوف إلى طهران لحثّ السلطات الإيرانية على الالتزام بالصفقة، خشيةً من أن إيران قد تنسحب أيضاً من معاهدة عدم الانتشار(1).

وتجدر الإشارة إلى أن روسيا سعت تاريخياً إلى استخدام الوساطة كوسيلة لترسيخ وجودها وتأثيرها في الشرق الأوسط. ولا يحتاج المرء سوى إلى التذكير فقط بجهود الراحل يفغيني بريماكوف في إقناع العراق بالانسحاب من الكويت عام 1990 (2). وإذا تمكنت روسيا من تهدئة التوترات بين إدارة ترامب وإيران، فسيُعتبر ذلك نجاحاً كبيراً، وتتجاوز تلك الأحداث الدور المأمول لروسيا.

في منتصف حزيران/يونيو، سافر رئيس الوزراء الياباني شينزو آبي إلى إيران في محاولة وساطة عبثية. فبعد يومين، اتهمت الولايات المتحدة إيران بمهاجمة ناقلتي نفط، إحداهما يابانية في خليج عُمان. ومن المهم أن نلاحظ أن ذلك لم يكن الهجوم الأول على الناقلات التي تنقل النفط من الخليج عبر مضيق هرمز. ومرة أخرى، حثّت روسيا على ضبط النفس، كما أعرب ريابوف عن أمله في ألا تصبح الهجمات ذريعة لأعمال معادية لإيران(3).

وفي 20 حزيران/يونيو، أسقطت قوات الحرس الثوري الإيراني حينذاك طائرة أمريكية بدون طيار. ادعى الرئيس ترامب أن UAV كانت تعمل في المجال الجوي الدولي. لكن في

(1) «Intel: Why Russia Dispatched Top Diplomatic to Teheran,» Al-Monitor, May 30, 2019. www.al-monitor.com/pulse/originals/201905//intel-russia-sergey-ryabov-tehran-irannuclear-deal.html.

(2) بذلت الدبلوماسية السوفيتية مساعي حثيثة لإقناع العراق بالانسحاب من الكويت، لكن دون جدوى. وحين لاحت في الأفق ملامح موافقته، كانت الوقت قد فات، وقرر التحالف الدولي شنّ هجومه البري الواسع النطاق. (المركز)

(3) Robin Wright, «A Tanker War in the Middle East—Again?»New Yorker, June 13, 2019. .https://www.newyorker.com/news/our-columnists/a-tanker-war-in-the-middle-eastagain

إشارة إلى أن صبر الكرملين بدأ ينفذ مع واشنطن، صرّح نيكولاي باتروشيف، رئيس مجلس الأمن الروسي، بشكل لا لبس فيه أن الطائرة بدون طيار كانت في المجال الجوي الإيراني[1]. وفي المقابل أمر ترامب بضربة انتقامية، لكنه أجّلها بعد ذلك. لذا، ومع تردد الولايات المتحدة، كانت روسيا تتحول في الوقت نفسه وبشكل أكبر إلى موقف أكثر موالاةً لإيران.

وحتى كتابة هذه السطور [2020]، لا تزال التوترات في الخليج مرتفعة، مع وجود احتمالات خطرة للانزلاق في أتون الحرب. تقول كل من إيران والولايات المتحدة أنهما لا تريدان الحرب، ولكن أي حسابات خاطئة منهما قد تؤدي لحدوث أزمة تصعيدية كبرى. يمكن القول أن روسيا تستفيد من عدم الاستقرار الإقليمي، ما عدا الحرب: فإن إيران بمثابة إحباط جيوستراتيجي ثمين للهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط[2].

النظر إلى الخلف

تجتمع دراسات الحالة الثلاثة هذه معاً بطرق مثيرة للاهتمام. إذ يمكن اعتبار طموحات روسيا العالمية موضوعها الأساسي. ومن الواضح أن موسكو كانت وما تزال مصممة على شق طريقها في فضاء ما بعد الاتحاد السوفيتي. إن إعادة الهيمنة في منطقة الاتحاد السوفيتي السابق هي الخطوة الأولى في تأكيد روسيا كقوة عظمى على المسرح العالمي. وكذلك، لعبت إيران دوراً حاسماً، وإن كان ثانوياً في تحقيق ذلك؛ فلقد ساعدت طهران روسيا بالتأكيد في طاجيكستان، وهي حالياً شريك في ممر الشمال-الجنوب. ولكن اتفاقية بحر قزوين توضّح كيف تكون العلاقة أحادية الجانب. لقد اضطرت إيران إلى الموازنة بين طلبها لخط ساحلي أطول، وأملها في مد خطوط الأنابيب تحت البحر بهدف حظر القوات البحرية الأجنبية. وأعلنت كل من موسكو وطهران عن قلقهما حول وجود بحري للناتو في بحر قزوين، لكن القلق كان بلا شك أكثر إلحاحاً بالنسبة للإيرانيين، لأن إيران قلقة ليس فقط بشأن احتمال انتشار الولايات المتحدة، لكنها تخشى من تعميق العلاقات العسكرية

(1) Noa Landau, «Contradicting Trump, Top Putin Advisor Says U.S. Drone Downed in Iranian Airspace,» Ha'aretz, June 26, 2019.
https://www.haaretz.com/middleeast- news/at-israel-russia-meeting-bolton-says-u-s-awaits-real-negotiations-withiran-1.7408293.

(2) Thomas Buonomo, «Russia's Potential Response to a U.S.-Iran Conflict,» L obelog, July 5, 2019. https://lobelog.com/russias-potential-response-to-a-u-s-iran-Conflict/.

بين أذربيجان وإسرائيل. بالفعل، هتف روحاني بكلماته مؤكّداً أن: «بحر قزوين يخص فقط الدول المطلة عليه»[1].

ويلاحظ العديد من المراقبين أن إيران ليس لديها مجال كبير للمناورة. فبالنظر إلى أن تجديد الولايات المتحدة للعقوبات مقرون باعتماد طهران المتزايد على روسيا، فإن على طهران فعلاً أن تتماشى مع الاتفاقية الشاملة. ومع ذلك، إذا اعتقدت إيران في عام 2018 أنها ستخفف من عزلتها[2]، ستظل تلك الآمال غير محققة. وفي منتصف حزيران/يونيو 2019، سافر الرئيس الإيراني روحاني إلى بيشكيك في قيرغيزستان لحضور الاجتماع السنوي لمنظمة شنغهاي للتعاون، حيث أمل أن يحصل على دعم كبير. وبالرغم من أن الدول الأعضاء دعمت خطة العمل الشاملة المشتركة والموقف الإيراني، وانتقد فلاديمير بوتين تصرفات الولايات المتحدة، لكن لم يوجد عرض قريب للعضوية التي كانت إيران تأمل فيها منذ عام 2008 [3].

وإذا كانت الشراكة غير متساوية في مجال ما بعد الاتحاد السوفيتي، فإنها غير متوازنة بشكل أكثر في الخليج. وإذا كانت الدولتان -كما لوحظ في البداية- تنظران إلى بعضهما البعض بحذر، فيبدو أن الضغط الأمريكي المتزايد على إيران قد أجبرها على تبني الرابطة مع الروس بشكل أوثق. لذا فعندما سافر وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف إلى موسكو في وقت متأخر في آيار/مايو 2019، أكد أن العلاقات الثنائية لم تكن أكثر قرباً الآن من أي وقت مضى، كما أنه دعا لاتخاذ تدابير ملموسة من موسكو وبكين للمساعدة في إنقاذ خطة العمل الشاملة المشتركة. أَمِلَ ظريف بشكل واضح أن يؤدي تعاونهم في سورية إلى إنشاء قاعدة لمزيد من الدعم في مواجهة الولايات المتحدة[4]. من الجانب الروسي، وصف أليكسي بوشكوف، عضو في

(1) «Caspian Sea Deal Benefi ts Russia, Troubles Iran,» DW.com, August 15, 2018. https://www.dw.com/en/caspian-sea-deal-benefi ts-russia-troubles-iran/a-45051799.

(2) Ibid.

(3) Alireza Noori, «Iran Seeks Relief from U.S. Sanctions in Asia,» Al-Monitor, June 28, 2019. iran-seeks-relief-us-sanctionsasia.html/06/www.al-monitor.com/pulse/originals/2019

(4) Alireza Noori, «Can Iran Rely on Russia to Dodge U.S. Pressure,» A l-Monitor, May 21, 2019. www.al-monitor.com/pulse/originals/201905//iran-russia-nuclear-deal-jcpoatrump-us-sanctions-oil.html.

مجلس الشيوخ في البرلمان الروسي، العلاقة بأنها: «شراكة والتي يمكن أن تتطور إلى علاقة استراتيجية»[1].

في البداية على الأقل، لم يكن الانسحاب الأمريكي [من الإتفاق النووي] كارثة لموسكو. أولاً، عزز إلغاء الولايات المتحدة في الواقع صورة إيران العالمية. فبعد كل شيء، لم تكن الانتهاكات الإيرانية هي السبب في انهيار الصفقة، عززت هذه الحقيقة قيمة إيران بالنسبة لموسكو. ثانياً، تُعمِّق نزعة ترامب الأُحادية عدم ثقة الأوروبيين في الولايات المتحدة. وإذا كانت آلية التجارة المنفصلة -التي أعربت روسيا عن اهتمامها بها- يتم تنفيذها بالفعل، فيمكن أن تكون «مقدمة لنهاية الهيمنة الأمريكية على النظام المالي العالمي»[2]. ثالثاً، ساعدت التوترات وعدم اليقين بشأن تصدير النفط والغاز الإيراني في الحفاظ على الأسعار عند مستوى معقول بالنسبة لروسيا (على الرغم من تغيير كوفيد -19 للوضع بشكل جذري)، وهذا أيضاً لعب لصالح موسكو. من وجهة نظر فلاديمير يرماكوف، المدير العام لإدارة عدم الانتشار والتحكم بالأسلحة في وزارة الخارجية، يخفف الانسحاب الأمريكي الأمور لموسكو اقتصادياً، حيث قال: «لأنه لن يكون لدينا أي قيود على التعاون الاقتصادي مع إيران... الطاقة، والنقل، والتكنولوجيا العالية، والطب»[3]. ومع ذلك، فإن لوك أويل وروسنفت قد علقتا مسبقاً أي خطط استثمارية خوفاً من العقوبات الأمريكية[4].

يبدو من الواضح أنه ما دامت التوترات على نار هادئة، فإن موسكو تستفيد من ذلك؛ إذ ترحب روسيا بالضغط الأمريكي على إيران، ولكن بقدر ما يدفع حكومة الجمهورية الإسلامية

(1) Reese Erlich, «Trump Is Driving Iran into Russia's Arms,» Foreign Policy, May 29, 2019. https://foreignpolicy.com/201929/05//trump-is-driving-iran-into-russias-arms-nuclear-deal-putin-rouhani-sanctions/.

(2) Thomas Buonomo, «Russia's Potential Response to a U.S.-Iran Conflict,» L obelog, July 5, 2019. https://lobelog.com/russias-potential-response-to-a-u-s-iran-Conflict/.

(3) Tom Miles, «Russia Sees Closer Iran Ties as U.S. Exits Nuclear Deal: Offi cial,» Reuters, May 4, 2018. http://www.reuters.com/article/us-iran-nuclear-russia-idUSKBN11516Z.

(4) «Lukoil Puts Iran Plans on Hold Due to Th reat of US Sanctions,» Reuters, May 29, 2018. https://www.reuters.com/article/us-russia-lukoil-iran/lukoil-puts-iran-plans-on-hold-due-to-threat-of-u-s-sanctions-idUSKCN1IU1M7.

الحالية إلى الاعتماد على الدعم الروسي[1]. وعلى المدى الطويل، هناك مخاطر على موسكو، فمن ناحية أخرى، يبدو من العدل الافتراض أن فلاديمير بوتين لا يريد صراعاً عسكرياً في الخليج. في الواقع، ولهذا عندما التقى ترامب وبوتين في اجتماع مجموعة العشرين (هي المنتدى الرئيسي للتعاون الاقتصادي الدولي، وتضم قادة من جميع القارات، ويمثلون دولاً متقدمة ونامية) في أوساكا، اتفقا على أن الحل الدبلوماسي مرغوب فيه. وعلى المنوال نفسه، فإن روسيا عاجزة عن منع الضغط الأمريكي على إيران أو حلّ الأزمة. لاحظ مارك كاتس (انظر مساهمته في هذا الكتاب في الفصل 14) أن فشل روسيا في تخفيف الضغط الأمريكي «يشير إلى أن روسيا لا تستطيع حل هذه الأزمة ولا حتى التأثير عليها. هذا العجز يقوّض هدف بوتين الطويل الأمد بإعادة تأكيد دور موسكو كقوة عظمى مؤثرة»[2].

وبالنظر إلى المستقبل، فإن ما يحدد بشكل جيد نجاح الكرملين أو فشله هي طموحات روسيا المقَيّدة بالأحداث على الأرض، وكيف يمكن لروسيا أن تتفاعل معها، فاغتيال الولايات المتحدة للواء الإيراني قاسم سليماني في 3 كانون الثاني/يناير 2020 هو مثال على ذلك بمستويات متعددة. فقد كان سليماني مفيداً لموسكو؛ لأنه نسّق الميليشيات الإيرانية الناشطة في سورية، وهو الذي أقنع الروس بحسب ما ورد للتدخل في عام 2015[3]. لذا فليس من المستغرب أن روسيا انتقدت القتل وأوعزت إليه تصعيد التوترات في المنطقة. وفي أعقاب القتل، قام بوتين برحلة مفاجئة إلى دمشق، تلتها رحلة إلى أنقرة في محاولةٍ لتعزيز مكانة موسكو في الشرق الأوسط وخاصة في سورية. وفي الوقت نفسه، كان على بوتين أن يقلق لأن الاغتيال يمكن أن يُطلق العنان لحرب بين طهران وواشنطن. ووفقاً لكونستانتين فون إيجرت، كان من الممكن أن تؤدي مثل هذه الحرب أيضاً إما إلى مواجهة مباشرة بين موسكو وواشنطن

(1) Alireza Noori, «Can Iran Rely on Russia to Dodge US Pressure,» A l-Monitor, May 21, 2019. www.al-monitor.com/pulse/originals/201905//iran-russia-nuclear-deal-jcpoatrump-us-sanctions-oil.html.

(2) Mark N. Katz, «Russia and the Iran Crisis,» L obelog, May 17, 2019. https://lobelog.com/russia-and-the-iran-crisis/.

(3) Maxim A. Suchkov, «How Russia Is Reading the Killing of Qassem Suleimani,»Al-Monitor, January 3, 2020.
www.al-monitor.com/pulse/originals/202001//russiasoleimani-iran-us-strikes-ira1.html.

أو إلى وضعٍ ستتعرض فيه إيران لهزيمة قاسية من قبل الولايات المتحدة[1]. في النهاية، اختارت كلاً من الولايات المتحدة وإيران تهدئة التوترات بعد ردّ انتقامي إيراني معتدل نسبياً بضرب قاعدة جوية في العراق. تنفست روسيا الصعداء لأنها لم يكن عليها أن تختار بين بدائل غير مستساغة. وعلاوة على ذلك، فإن الكرملين متروك الآن للاستمرار في دعم طهران بالخطاب الإعلامي وبالسلاح، وأن يضع نفسه وسيطاً وصانع قرار قوي في الشرق الأوسط.

وفي غضون أيام من مقتل سليماني، وجدت موسكو نفسها مرة أخرى متأثرة بأحداث خارجة عن إرادتها؛ ففي 8 كانون الثاني/يناير 2020، أسقط الحرس الثوري الإيراني بطريق الخطأ طائرة أوكرانية بعد وقت قصير من إقلاعها من مطار طهران. في البداية، نفت إيران تورطها، وكانت السلطات في موسكو تأمل في التخلص من الانتقادات الموجّهة لطهران، وصرّح فلاديمير دجباروف، نائب رئيس لجنة الشؤون الخارجية للمجلس الفيديرالي: «لقد ألقى الغرب باللوم على إيران في حدوث هذه المأساة... كل شيء ممكن، لكني لا أرى أي دليل حتى الآن»[2]. وحتى بعد أن أُجبرت السلطات الإيرانية في النهاية على الاعتراف بالذنب، ألقت روسيا في شرح الحادثة باللوم على الولايات المتحدة. فقد ذكر وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف -في مؤتمره الصحفي السنوي- أن الحادثة أوضحت أن التوترات يمكن أن تخرج بسهولة عن السيطرة. ومضى في الادعاء بأن هناك تقارير تفيد بأن «ست مقاتلات على الأقل من طراز F-35 [كانت] في الجو عند الحدود الإيرانية» في ذلك الوقت[3]. وبالطبع، فإن الكرملين يرغب في تبرئة إيران وإلقاء اللوم على الولايات المتحدة. ولكن، كانت هناك أصداء لمثل هذه الحالة في عام 2014، فعندما أسقط الروس الطائرة الماليزية خلال الحرب في دونباس، فحتى اليوم، تُنكر روسيا دورها في المأساة

(1) Konstantin von Eggert, «Opinion: Putin Power Games May Get Out of Hand,» DW, January6,2020.https://www.dw.com/en/opinion-putins-power-games-may-get-out-of-hand/a-51907064.

(2) «Russia Reacts to Claims of Iranian Missile Downing Ukrainian Plane,» Moscow Times, January 10, 2020.
https://www.themoscowtimes.com/202010/01//russia-reacts-to-claims-of-iranian-missile-downing-ukrainian-plane-a68859.

(3) «Lavrov Blames Washington’s ‘Aggressive’ Policies for Rise in Global Tensions,» RFE/RL, January 17, 2020. https://www.rferl.org/a/lavrov-blames-washington-s-aggressivepolicies-for-rise-in-global-tensions/30383167.html.

السابقة. وفي حادثة عام 2020، يبدو واضحاً أن موسكو خائفة من أوجه التشابه، مما يضيف زخماً لتشتيت ذنب طهران.

عجزت روسيا عن السيطرة على الأحداث على الأرض؛ فإن اغتيال سليماني أو إسقاط الطائرة الأوكرانية على حدٍ سواء يعيد موقف موسكو الهش. لذلك، يجب أن نتساءل عما إذا كان من الممكن أن تميل روسيا إلى الإفراط في التعويض عما يبدو نقاط ضعفها. بعبارة أخرى، هل هناك احتمالية في أن رغبة روسيا في تعزيز دورها في الخليج والشرق الأوسط الأوسع قد يقودها إلى المخاطرة؟. هل يمكن لروسيا أن تستثمر صِلاتها بإيران لخدمة مصالحها الجيوسياسية؟. أو بالعكس، هل يمكن للاستفزازات الإيرانية أن تضع روسيا في موقف حرج أو حتى خطير؟ ومن خلال أفعالها، فإنه يبدو أن موسكو بحاجة ماسة إلى تجنب هذه الأخيرة.

الثابت الوحيد في هذه الصورة المعقدة -على الأقل حتى الانهيار الشديد في سعر النفط- هو التجارة الثنائية؛ فرغم تقلبات العلاقات الإيرانية مع المجتمع الدولي، حافظت روسيا على علاقاتها التجارية مع إيران، بما في ذلك مبادلة 100.000 برميل شهرياً من النفط الخام مقابل الخدمات[1]. وفي حزيران/يونيو 2019 في اجتماع للمفوضية الإيرانية الروسية، أعلنت موسكو عزمها على مواصلة توسيع التجارة الثنائية[2]. لكن إيران وروسيا متنافستان بطبيعتهما في أسواق النفط العالمية، بل وأكثر من ذلك في ظروف زيادة العرض. وفي الواقع، تحركت روسيا لتعويض النفط الإيراني الذي لم يعد يصل إلى الأسواق العالمية بسبب العقوبات الأمريكية. بالإضافة إلى ذلك، إذا تحركت روسيا لملء الفجوات بالنسبة لمستهلكي النفط الإيراني عندما يبدأ الاقتصاد العالمي في التعافي بعد كوفيد - 19، ستكسب موسكو المزيد من الحصة السوقية، وربما علاقات طويلة الأمد ومعمّرة في ظل الأزمة الحالية[3].

(1) Alexey Khlebnikov, «Iran, Russia, and the Impact of U.S. Sanctions,» Middle East Institute, July 17, 2019. https://www.mei.edu/publications/iran-russia-and-impact-us-sanctions.

(2) Alireza Noori, «Can Iran Rely on Russia to Dodge U.S. Pressure,» A l-Monitor, May 21, 2019. www.al-monitor.com/pulse/originals/201905//iran-russia-nuclear-deal-jcpoatrump-us-sanctions-oil.html.

(3) Nikolay Pakhomov, «Russia's Grand Plan to Gain Power in the Shadow of U.S.Sanctions,» National Interest, May 7, 2019.
https://nationalinterest.org/feature/russias-grand-plan-gain-power-shadow-us-sanctions-56427.

ومن الواضح أن الحرب أو تهديدات استقرار النظام الإيراني تضرّ بمكانة روسيا. وإذا كان يتوجب على الولايات المتحدة أن تقوم بتغيير النظام في إيران، وتنصيب حكومة موالية للولايات المتحدة، فمن الواضح أن ذلك سيضر بمصالح روسيا.

نشرت الحكومة الروسية في عام 2019 «مفهوماً أمنياً جديداً لمنطقة الخليج» للتخفيف المحتمل للمخاطر. تم تقديم العديد من هذه الاقتراحات سابقاً، ولكن تم تجميعها معاً في وثيقة واحدة. ونجد في قلب الوثيقة اقتراحاً يدعو إلى إنشاء آلية لمكافحة الإرهاب والصراع بين الدول، وتقديم المساعدة الإنسانية للأشخاص والدول المحتاجة. وبشكل خاص يدعو إلى التقيّد بالالتزامات الدولية، والالتزامات المتبادلة في الشفافية العسكرية، وإنشاء مناطق منزوعة السلاح، وإقامة منطقة خالية من سلاح الدمار الشامل.

لكنها تذهب إلى أبعد من ذلك بالقول: «مع الوصول إلى مزيد من التقدم في بناء نظام الأمن، فإنه يجب أن يبدأ النقاش حول تقليص الوجود العسكري الدولي في المنطقة، والشروع بتطوير تدابير بناء الثقة المشتركة للمنطقة وغيرها من الدول»[1]. وظراً إلى أن الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة أكبر بكثير من الانتشار الروسي، فمن الواضح أن هذا [الاقتراح] الأخير هو بمثابة دعوة للولايات المتحدة للانسحاب - أو على الأقل تقليل وجودها بشكل ملحوظ.

يتعارض مقترح وزارة الخارجية بشكل صارخ مع عرض الولايات المتحدة لـ «لناتو العربي»؛ فبدلاً من ذلك، يبيّن مكسيم سوشكوف أن هذا يصور نوعاً من منظمة الشرق الأوسط كمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا[2]. ولنعيد بديهياً ما سبق، على الرغم من وجود دور واضح لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا (OSCE)، بما في ذلك دور المراقبة في أوكرانيا، فإن الناتو قوة عسكرية كبرى بالمقارنة، وتهيمن عليه الولايات المتحدة. هل يمكن أن يكون هذا النهج

(1) «Russia's Security Concept for the Gulf Area,» MID.ru, July 23, 2019. http://www.mid.ru/ru/foreign_policy/international_safety/Conflicts/-/asset_publisher/xIEMTQ3OvzcA/content/id/3733575?p_p_id=101_INSTANCE_xIEMTQ3OvzcA&_101_INSTANCE_xIEMTQ3OvzcA_languageId=en_GB.

(2) 46. Maxim A. Suchkov, «Intel: Why Russia Is Calling for Rethinking Gulf Security,»Al-Monitor, July 24, 2019.
www.al-monitor.com/pulse/originals/201907//intel-russiaproposal-gulf-ecurity-iran-tensions.html..

الجديد أكثر جاذبية للقوى الإقليمية؟. هل يجعل هذا روسيا والولايات المتحدة متكافئتين في السياق الخليجي؟ والأهم من ذلك، إذا اكتسب هذا الاقتراح أي شعبية، فسوف يعزز دور روسيا كوسيط وصانع قرار في الخليج وخارجها. وكما أشار معلق في نادي فالداي، فإن روسيا «على استعداد لتوفير منصة للمفاوضات بين دول الشرق الأوسط»[1]. وإذا تعذر ذلك، فستخاطر روسيا بأن تبدو عاجزة.

يبدو أن المحصلة النهائية هي أن إيران مفيدة لموسكو -سواءً في سورية أو ما ورائها. وعلى المنوال نفسه، فمن المعقول أن يؤدي دعم إيران بكل إخلاص في مواجهتها للولايات المتحدة الأمريكية إلى حرب في الخليج. مثل هذا الاحتمال يقوّض هدف روسيا في أن تكون لاعباً في المنطقة. ويعترف الخبراء الروس بالمشكلة، وكما قالت خبيرة الشرق الأوسط إيرينا زفياغلسكايا: إن «إيران مهمة بالنسبة لنا في سورية، ولكن أيضاً في القوقاز وآسيا الوسطى... بَيْدَ أنّ هذا لا يعني بأن علاقتنا خالية من الاحتكاك والتوتر»[2].

(1) Andrei Baklanov, «Security in the Gulf Area: Russia's New Initiative,» V aldai Club, August 6, 2019.
www.valdaiclub.com/a/highlights/security-in-the-gulf-area-russia's-new-initiative/.

(2) Cited in Robin Wright, «Russia and Iran Deepen Ties to Challenge Trump and the United States,» New Yorker, March 2, 2018.
https://www.newyorker.com/news/news-desk/russia-and-iran-deepen-ties-to-challenge-trump-and-the-united-states

الفصل 9

روسيا ومحور المقاومة

جوليان بارنز ديسي

يرتبط دور روسيا المتعاظم في الشرق الأوسط بعلاقة هذا الشرق مع «محور المقاومة» الذي تقوده طهران والذي يمتد اليوم من لبنان إلى إيران. ويجمع هذا المحور كلاً من حزب الله، المنظمة اللبنانية الشيعية شبه العسكرية، حليف الجمهورية الإسلامية، والنظام السوري بقيادة بشار الأسد إلى جانب الجماعات المسلحة العراقية وإيران نفسها. وفي السنوات الأخيرة، كان دور روسيا المتصاعد في الشرق الأوسط، يُرسَم بالاشتراك مع تلك الأطراف، إذ نسّقوا قواتهم لتحقيق الهدف الذي لاقى حتى الآن نجاحاً باهراً، ألا وهو ضمان بقاء نظام الأسد. إلا أنها، على أي حال، علاقة يشوبها الشك. إذ أن لروسيا طموحات أوسع في سورية، تتمثّل في رغبتها في الظهور كقوة عظمى، ناهيك عن التصدي للنظام العام العالمي الذي تم تصميمه من قبل الولايات المتحدة. بينما يركز شركاء روسيا في «محور المقاومة» على هدفٍ مباشرٍ، ألا وهو ضمان أمنهم الإقليمي.

ولطالما كان هدف اللاعبين الغربيين، والدول الإقليمية، دق إسفين بين إيران وروسيا من أجل التوصل لتسوية أكثر ملاءمة بالنسبة لهم في سورية. واليوم، تسعى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، على وجه الخصوص، لبناء شراكة مع موسكو لإنهاء النفوذ الإيراني في البلاد[1].

(1) «Trump Expected to Seek Putin's Help to Curb Iran's Military in Syria,» Wall Street Journal, June 28, 2018.
https://www.wsj.com/articles/trump-to-meet-russias-putin-infinland-on-july-161530187901?emailToken=17a77cd4d4aa6965efbdc228b00f6a39NabkwZUR0oRaoZreVrS0uL/If1EuI9Z5nzSZZ0rb1vjZhrq11RjTZaOdRg+QMkuSBfhJ73at7urD+G2PjjBfZFYklDNqEn3iF4OKiQuLBNk%3D&reflink=article_email_share.

ولكن من المرجّح أن يُمنى هذا الطموح بالفشل. فصحيح أن ثمة اختلافات واضحة بين روسيا والمحور الموالي لإيران، فيما يتعلق بتشكيل الدولة والسيطرة عليها، إلا أن المصالح المشتركة المتمثّلة في الحفاظ على نظام الأسد ومناهضة الجهود التي تقودها الولايات المتحدة لتشكيل النظام الإقليمي في المنطقة تتفوق على تلك الاختلافات. ومن المحتمل أن تُعطِّل هذه المصالح خطط واشنطن وشركائها في الحصول على دعم روسيا للحد من النفوذ الإيراني. وعلاوة على ذلك، إن روسيا في الواقع لا تملك النفوذ الكافي لرسم مسارها المستقل وطرد الجمهورية الإسلامية من سورية؛ إذ تظل طهران الفاعل الخارجي المهيمن على الأرض، وأي تحرك لاستبعاد النفوذ الإيراني قد يؤدي إلى تحديات خطيرة لاستدامة موقع موسكو في سورية.

ففي نهاية المطاف، تتمحور العلاقة الإقليمية الروسية - الإيرانية إلى حد كبير حول سورية. فبينما يتشارك الطرفان رؤيةً عالميةً مناهضةً لأمريكا، وتستند المنفعة المتبادلة لعلاقتهما إلى أهداف مشتركة على مسرح هذا الصراع، لم تلزم موسكو نفسها بعلاقات استراتيجية أوسع مع طهران. كما أن علاقات روسيا الوثيقة مع إيران في سورية لا تمتد إلى الميادين الإقليمية الأخرى، فموسكو لا تدافع بقوة عن الاتفاق النووي، الذي تم إنهاؤه بسعي من إدارة ترامب. وحتى مع قيام موسكو بتعزيز علاقاتها مع طهران، فهي تعزز في الوقت ذاته علاقاتها مع أعداء إيران الإقليميين، كما أنه من غير المرجّح أن تدافع موسكو عن طهران فيما لو ازداد التوتر بين الإيرانيين والتحالف الإقليمي المضاد بقيادة الولايات المتحدة.

التقارب

تمثّل الحرب في سورية منطلق الشراكة بين روسيا و«محور المقاومة»، حيث التزم الطرفان بدعم الأسد بشدة. إذ يُزعم أن تدخل الجيش الروسي في سورية في عام 2015 جاء نتيجة زيارة قائد الحرس الثوري الإيراني آنذاك، قاسم سليماني، إلى موسكو مطالباً بدعم عسكري مباشر عقب تقدم قوات المعارضة السورية نحو دمشق، مهدداً بقاء الأسد[1].

ومنذ عام 2015، عمل البلدان معاً، جنباً إلى جنب مع النظام السوري، وقوات حزب

(1) «How Iranian General Plotted Out Syrian Assault in Moscow,» Reuters, October 6, 2015. https://www.reuters.com/article/us-mideast-crisis-syria-soleimani-insigh/howiranian-general-plotted-out-syrian-assault-in-moscow-idUSKCN0S02BV20151006.

الله اللبناني، وعدد من الجماعات المسلحة المدعومة من إيران والقادمة من العراق أو أماكن أخرى، من أجل تعزيز موقع الأسد عسكرياً. فمنذ أيلول/سبتمبر 2015، قدّمت روسيا دعماً جوياً أساسياً للتحالف الموالي للنظام، كما شنّت ضربات عسكرية على قوات المعارضة السورية. ومن الجدير بالذكر أنها أطلقت عام 2016 هجمات من قاعدة همدان الجوية الإيرانية، وكانت تلك المرة الأولى التي تستخدم فيها قوة أجنبية إيران كقاعدة عسكرية منذ ثورة 1979 [1].

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2015 أنشأت روسيا وإيران والعراق وسورية آلية تعاون مشترك في مجالات الأمن والاستخبارات مع تأسيس غرف عمليات في كلٍ من بغداد ودمشق[2]. وضمت غرفة العمليات لاحقاً حزب الله، ليتشكل ما يُعرف باسم مجموعة 4+1، والتي وُجدت لتكون آلية مستدامة. وقد ضمنت هذه الجهود بشكل فعال انتصار الأسد في الحرب الأهلية، مع استمرار مواجهة دمشق لعقبات في سعيها للسيطرة على البلاد بأكملها[3]. وما تزال موسكو تواصل تقديم الدعم العسكري لمحاولات الأسد استعادة السيطرة على آخر أراضي المعارضة، وتحديداً محافظة إدلب، التي تشهد هجمات روسية إيرانية منذ كانون الأول/ديسمبر 2019، ناهيك عن شمال شرق البلاد الذي تحميه الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه، ظلت موسكو تعطل الإجراءات التي يقودها الغرب في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة والهادفة إما إلى معاقبة الأسد أو تعزيز احتمال التوصل إلى اتفاق بوساطة الأمم المتحدة.

ترافق هذا المسار العسكري مع مشاركة روسيا وإيران، إلى جانب تركيا، في مسار أستانا

(1) بعد أن أعلنت روسيا عن استخدام قاعدة همدان، ألغت طهران الإذن الممنوح للطائرات العسكرية الروسية للعمل في القاعدة. للمزيد انظر:

Anne Barnard and Andrew E. Kramer, «Iran Revokes Russia's Use of Air Base, Saying Moscow 'Betrayed Trust',» New York Times, August 22, 2016.

https://www.nytimes.com/201623/08//world/middleeast/iran-russia-syria.html.

(2) «Iraq, Russia, Iran and Syria Coordinate against ISIS,» Al Jazeera, September 27, 2015. https://www.aljazeera.com/news/201509//iraq-russia-iran-syria-coordinateisil-150927125919507.html.

(3) Julian Barnes-Dacey, «To End a War: Europe's Role in Bringing Peace to Syria,»ECFR Policy Brief, September 12, 2017.

http://www.ecfr.eu/publications/summary/to_end_a_war_europes_role_in_bringing_peace_to_syria7223.

[عاصمة كازخستان]، الذي سعى إلى إيجاد اتفاق بين الأطراف الخارجية الرئيسية الثلاث بشأن الديناميات العسكرية. وبينما كانت موسكو تستخدم هذا المسار أيضاً لتوطيد علاقتها مع أنقرة، بهدف إبعادها عن التحالف الغربي، كانت روسيا في سورية (كما في ليبيا) على استعداد لمعارضة المخططات التركية على الأرض. فقد شكّل هجوم إدلب في كانون الأول/ ديسمبر 2019 وكزة روسية للقوات التركية هناك. كما مثّل مسار أستانا في كثير من الأحيان، موضعاً للضغط الروسي الإيراني على تركيا من أجل كبح جماح المعارضة السورية.

وتشترك كل من روسيا وإيران أساساً في مصلحة مشتركة، ألا وهي مقاومة الضغط الأمريكي تجاه تغيير النظام في دمشق، رغم أن كلاً منهما ينظر للصراع من منظور مختلف[1]. فبالنسبة لروسيا، تعتبر سورية مهمة في سياق النظام الدولي في المقام الأول لرغبة موسكو في التصدي لمحاولات هيمنة الولايات المتحدة على هندسة التغيير السياسي في جميع أنحاء العالم. كما وفّر هذا الصراع لموسكو فرصةً لإعادة ترسيخ نفسها على طاولة القوى الكبرى دبلوماسياً ودولياً، وهو مسعىً ترى روسيا أنها نجحت في تحقيقه، بالنظر إلى انتصار الأسد العسكري ودوره المركزي في الجهود الدبلوماسية المستمرة من أجل صياغة التسوية في سورية. هذا الطموح يتضمن أيضاً رغبة روسيا في إعادة تأكيد دورها السياسي والعسكري في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وقد ضمنت أيضاً تحقيق هذا الطموح. فعلى حد تعبير المسؤولين العرب، باتت موسكو الآن «مكة الجديدة بالنسبة للشرق الأوسط». إذ ينظر كل من «محور المقاومة»، ودول الخليج وإسرائيل، إلى روسيا باعتبارها إحدى القوى الخارجية الرئيسية التي تساهم في تشكيل التطورات الإقليمية، حيث يمثّل استعراضها للقوة الصلبة نهجاً أكثر اتساقاً من تقلبات وانعطافات الإدارات الأمريكية المتعاقبة[2].

أما بالنسبة لإيران، فيتمحور الصراع في سورية حول موقعها في النظام الإقليمي. إذ تخشى طهران من كون تغيير النظام في سورية بمثابة أول حجر دومينو يسقط ضمن هجوم أمريكي وإسرائيلي وخليجي محتمل على إيران، سعياً لتحقيق هدفهم في إسقاط الجمهورية

(1) Ellie Geranmayeh and Kadri Liik, «The New Power Couple: Russia and Iran in the Middle East,» ECFR Policy Brief, September 13, 2016.
http://www.ecfr.eu/publications/summary/iran_and_russia_middle_east_power_couple_7113.

(2) Author's Interview with Arab Government Offi cial, Moscow, June 2019.

الإسلامية[1]. وقد تعزز هذا الخوف لدى إيران إثر إطلاق إدارة ترامب لحملة ضغط قصوى ضد طهران. وبهذا المعنى، فإن التزام الإيرانيين ببقاء نظام الأسد، يوفّر لطهران عمقاً استراتيجياً ويسمح لها بإبراز قوتها الدفاعية في المنطقة، أضف إلى ذلك ضرورة احتفاظها بقدرة ردع ضد إسرائيل وإبقاء القتال بعيداً عن حدودها، وتلكما ضرورتان وجوديتان بالنسبة لإيران. فسورية هنا هي إحدى جبهات المعركة الإقليمية الأوسع والتي تشمل أيضاً لبنان والعراق.

ولكن في حين تختلف دوافعهما الذاتية، يشترك البلدان في التزامهما الصارم بضمان ألّا يؤدي الضغط الخارجي إلى الإطاحة بالأسد، إضافة إلى إحباط السيناريوهات الأمريكية في المنطقة. كما أن لدى البلدين فهماً مشتركاً للتهديد الذي يشكّله التطرف السُنّي، والذي يُنظر إليه كأداة تم حشدها بخبث من قبل الولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين ضد طهران. إذ تعرّف روسيا وإيران «التطرف السني» بأوسع معانيه على أنه أية جماعة تعارض الأسد وتستغلها الولايات المتحدة في أجندة تغيير النظام. وبينما تعتبر إيران المسلحين السُنّة تهديداً مباشراً لها نظراً لقربها الجغرافي، تشعر روسيا أيضاً بتهديد التطرف، لا سيما أنها إذ تخاطر باللعب في الخارج فعينها على سكانها المسلمين في الداخل.

وبالنظر إلى سعي الأسد المستمر لاستعادة السيطرة على كامل البلاد معتمداً على الدعم الخارجي، يمكن توقع استمرار هذه العلاقة العسكرية المتمركزة حول سورية بين كل من روسيا وإيران.

وبالفعل، فمن المرجح أن تؤدي محاولات الأسد الفاشلة لاستعادة السيطرة الكاملة على محافظة إدلب منذ أوائل عام 2020 إلى تعزيز أهمية وجود تحالف ضامن. هذا ويسلط فشل الأسد في إدلب، الضوء من جديد على نقاط الضعف الأساسية للدولة السورية وقدرات الأسد العسكرية. كما يعزز الرسالة التي مفادها أن حاجة روسيا إلى الدعم العسكري الإيراني سوف تستمر من أجل ضمان استدامة موقع الأسد. وهو يسلط الضوء أيضاً على نظرة روسيا لسورية، كأحد عناصر اللعبة الجيوسياسية الأوسع. والسبب الآخر الذي أدى إلى توقف هجوم الأسد على إدلب في نهاية المطاف يكمن في المفاوضات الروسية التركية لتأمين وقف إطلاق النار، ما يشير إلى حقيقة جديدة مفادها أن التزام روسيا بالأسد ينطوي أيضاً على طموحات أوسع، ألا وهي رغبة موسكو في منع أنقرة من العودة لحضن الغرب.

(1) Author's Interviews with Iranian Offi cials and Analysts, 2014.

الاختلاف

رغم نجاح هذه العلاقة عسكرياً على الأرض في سورية، لا يزال من الخطأ المبالغة في تفسير العمق الاستراتيجي لهذا التحالف. إذ توجد اختلافات واضحة بين الدولتين.

هذه الاختلافات تعكس الدوافع المتباينة وراء تدخل كلٌّ منهما داخل سورية. فلا يزال تركيز روسيا منصبّ على تأكيد وجودها كلاعب رئيسي على المسرح الدولي. حيث سعت إلى استغلال الصراع لتأمين منصة نفوذ دولي لها، بما في ذلك من خلال التعامل مع الولايات المتحدة على أعلى المستويات، من خلال تقديم نفسها على أنها السبيل الضروري نحو أي حل للأزمة في سورية.

ولتحقيق هذه الغاية، لطالما استثمرت روسيا، في إيحائها بإقامة تسوية سياسية تمنحها شرعية دولية (فضلاً عن كونها استراتيجية لإيجاد مخرج من هذا الصراع المستمر)[1]. ورغم ايضاحها بأنها لن تتخلى عن الأسد، انخرطت موسكو في مسار الأمم المتحدة واعترفت اعترافاً محدوداً بتطلعات المعارضة في محاولة للبدء بتسوية مواتية للنظام. وتضمّن ذلك في بعض الأحيان الضغط على الأسد لتقديم حد أدنى من التنازلات، كقبوله مسودة دستور روسية تدعو إلى اللامركزية أو كضغطها بهدف إنشاء لجنة دستورية برعاية الأمم المتحدة.

لكن الأسد رفض هذه الجهود مراراً وتكراراً، متذرعاً برفض إيران لها. وقد أدى انشغال إيران والأسد بالدفاع عن مصالحهما الأمنية الإقليمية، إلى اتخاذهما موقف صفري تجاه المعارضة. فكلاهما يخشى أن أي حل وسطي من شأنه أن يخاطر بفتح الباب أمام تغيير أوسع. وبدلاً من العمل مع روسيا لممارسة الضغط على النظام، عززت طهران من تعنّت الرئيس السوري من أجل ضمان استمرار فشل المساعي الدبلوماسية الروسية.

ولا يخلو موقف إيران من بعض الهواجس تجاه موسكو التي قد تسعى إلى الحد من نفوذ الإيرانيين في البلاد[2]. واستعداد روسيا لعقد صفقة على حسابهم مقابل مكاسب دولية أوسع، كتنازلاتٍ غربيةٍ في شبه جزيرة القرم أو تخفيفٍ العقوبات الدولية ضد موسكو. ويعكس هذا

(1) See Julien Barnes-Dacey, «Russia's Policy in Syria: Eff orts to Pivot to a Political Track,»Valdai Discussion Club, December 15, 2017.
http://valdaiclub.com/a/highlights/russian-policy-in-syria/.

(2) Author's Interview with Iranian Offi cials and Analysts, 2016 and 2017.

الموقف وجود خلافات بين الاثنين حول الحل النهائي المنشود في سورية، حتى مع استمرار حكم الأسد. وتضغط روسيا من أجل إقامة حكومة مركزية قوية وإضفاء الطابع المؤسسي على الميليشيات غير الحكومية. فلطالما نظرت موسكو إلى الجيش بأنه قناة التأثير المركزية في سورية، فرغبت بالتالي بتقليص مصادر القوة البديلة. ولكن يبدو أنها تتبنى موقفاً سياسياً وأيديولوجياً أوسع، يمتد لما وراء سورية، ألا وهو وجوب تواجد القوة بيد الدولة المركزية. وصحيح أن الأسد يعارض المحاولات الروسية لهندسة المسار السياسي في سورية، لكنه يشارك موسكو رغبتها في ضمان السيطرة المركزية على قوات الأمن المحلية، ولذلك عليه إذاً مواجهة بعض الضغوط الداخلية لضمان عدم إنشاء إيران دولة داخل دولة[1].

تقاوم إيران، التي لديها جهات غير حكومية فاعلة في جميع أنحاء المنطقة، هذا النهج؛ إذ تهدد محاولات إبعاد الجماعات المسلحة التابعة لإيران في سورية، بما في ذلك الحد من دور حزب الله، قدرة إيران على الحفاظ على نفوذها وقد تجعلها عرضة لضغوطات أوسع، لا سيما إذا ما انقلبت روسيا عليها في النهاية. وقد اصطدمت موسكو وطهران غير مرة حول هذه القضية، بما في ذلك خلال اجتماعات المجموعة الدولية لدعم سورية ISSG عندما اقترحت روسيا إضفاء الطابع المؤسسي على القوات غير الحكومية[2]. وعلى مدار الصراع، دافعت موسكو أيضاً عن أسلحة وشبكات عسكرية بديلة لتلك التي يدعمها الإيرانيون. وفي النهاية، وكما حدث في تموز/يوليو 2019، عُزِيَت التعديلات داخل القيادة العسكرية إلى المكائد المستمرة داخل القصر الرئاسي بين أتباع إيران من جهة - والمعسكرات المدعومة من روسيا من جهة أخرى[3].

وتبدت تلك الاختلافات في عدة استعراضات تنافسية على الأرض. وقد أعربت طهران مراراً عن قلقها من المبادرات العسكرية والسياسية الروسية، والتي غالباً ما تكون مصحوبة بزيادة حدة الاشتباك مع الولايات المتحدة، قبيل تعزيز قوة الأسد هنا أو هناك، وغالباً ما تكون

(1) «Russian-Sponsored Syrian Agency to ‘Protect Government Facilities’,» Asharq Al-Awsat, July 11, 2019.
https://aawsat.com/english/home/article/1808021/russiansponsored-syrian-agency- %E2 %80 %98protect-government-facilities %E2 %80 %99.

(2) Author’s Interview with Western Diplomat, 2016.

(3) «Russian-Sponsored Syrian Agency to ‘Protect Government Facilities’.»

النتيجة على حساب إيران[1]. وقد لعبت طهران في بعض الأحيان دور المعرقل النشط. ففي كانون الأول/ديسمبر 2016، على سبيل المثال، منعت القوات المدعومة من إيران انسحاباً للمعارضة من مدينة حلب كان قد تفاوض عليه الروس، مما أجبر المعارضة على تقديم تنازلات أوسع[2]. وفي حزيران/يونيو 2018، اندلعت توترات بين الجيش الروسي وحزب الله، حليف إيران، بشأن عمليات الانتشار على مقربة من الحدود السورية اللبنانية[3]. وفي عام 2020 كذلك، تصاعدت التوترات بين الجماعات العسكرية المدعومة من روسيا وإيران في جنوب سورية.

من جانبها، كانت روسيا تلمّح أحياناً إلى اتخاذ إجراءات عقابية. حيث ألقى البعض في طهران، على سبيل المثال، اللوم على موسكو لعدم توفيرها غطاءً جوياً عندما قُتل ثلاثة عشر مقاتلاً من الحرس الثوري الإيراني في هجوم لجبهة النصرة على بلدة خان طومان قرب حلب[4]. كما سمحت سيطرة روسيا على المجال الجوي السوري بإعطاء الضوء الأخضر لاستمرار الضربات الجوية الإسرائيلية على المواقع المدعومة من إيران في سورية. كما لم تبذل موسكو أيضاً أية محاولة لعرقلة الضربات التي تقودها الولايات المتحدة على أهداف النظام بعد استخدامه للأسلحة الكيميائية في نيسان/أبريل 2018. وقد فُسر هذا، جزئياً، بأنه محاولة روسية لجعل الأسد وإيران يتماشيان مع طموحاتها. كانت هناك أيضاً تقارير تفيد بعدم استعداد موسكو للتدخل للحؤول دون وقوع أزمة طاقة حادة عصفت بجميع أنحاء البلاد في عام 2019 نتيجة القيود الأمريكية المتزايدة المفروضة على تدفقات النفط الإيراني إلى سورية - مما يعكس الرغبة الروسية في ممارسة نفوذ على دمشق وطهران، لجعلهما تتجاوبان مع محاولات روسيا فرض مسارها السياسي.

وقد امتد هذا التنافس أبعد من المجال الأمني مع احتدام المنافسة بين موسكو وطهران

(1) Author's Interview with Iranian Offi cials and Analysts, 2016 and 2017.

(2) «Iran-Backed Militias Block Aleppo Evacuation as Shelling Resumes,» The Guardian, December 14, 2016. https://www.theguardian.com/world/2016/dec/14/aleppo-residents-evacuation-uncertainty-ceasefi re-deal-assad.

(3) «Tensions Flare between Syrian Leader's Foreign Backers,» SFGATE, June 9, 2018. https://www.sfgate.com/world/article/Tensions-flare-between-Syrian-leader-s-foreign-12981371.php.

(4) «Iran-Backed Militias Block...»

للسيطرة على الموارد الاقتصادية السورية، حيث دخلت البلاد آنذاك مرحلة ما بعد الحرب[1]. ويطمح كل منهما إلى السيطرة على الموارد الاقتصادية والبنية التحتية كطريقة لتثبيت نفوذه في الدولة على المدى الطويل، ولكن ثمة أيضاً تنافس مالي مباشر إلى حد ما، فبعد إنفاق موارد اقتصادية كبيرة لضمان بقاء الأسد، تبحث كلٌ من روسيا وإيران عن المردود من خلال فرص الاستثمار وخطط الربح الناجم عن الوصول إلى موارد سورية وخطط إعادة إعمارها المستقبلية.

تشمل الصفقات المهمة لكلا البلدين عقود إيجار لمنشآت موانئ البحر المتوسط، روسيا في طرطوس وإيران في اللاذقية، فمع تزايد المنافسة[2] ظهرت اتفاقيات مثل اتفاقية عام 2018 التي منحت عقداً لمدة خمس سنوات لشركة Stroytransgaz الروسية، التي يسيطر عليها غينادي تيمشينكو، الشريك المقرب لفلاديمير بوتين، لتطوير مناجم الفوسفات بالقرب من تدمر، مما أنهى عقداً كان قد أبرم سابقاً مع إيران. يسلط هذا التغيير الضوء على التنافس الاقتصادي الناشئ بين الاثنين، حيث أعربت وسائل الإعلام الإيرانية عن قلقها من محاولة روسيا حرمان طهران من المكافآت المالية بعد الحرب السورية[3].

روسيا بين دول الخليج وإسرائيل

لا بد من وضع تحالف روسيا مع إيران و«محور المقاومة» في سياق تواصل موسكو مع الجهات الإقليمية الفاعلة الأخرى، وكثير منهم أعداء لإيران. ففي الوقت الذي عملت فيه موسكو مع إيران في سورية، استمرت في تعميق علاقاتها مع دول الخليج العربي. ولطالما

(1) «Assad Offers Russia Reconstruction Benefi ts at Iran's Expense,» Syrian Observer, February 28, 2018.
http://syrianobserver.com/EN/Features/33899/

(2) Ibrahim Hamidi, «Damascus' Allies, Opponents Race over Strategic Gains,» Asharq Al-Awsat, April 25, 2019.
https://aawsat.com/english/home/article/1694476/damascus %E2 %80 %99-allies-opponents-race-over-strategic-gains.

(3) Rohollah Faghihi, «Iranian Mistrust of Russia Surges as Syrian War Winds Down,» Al-Monitor, March 12, 2018.
https://www.al-monitor.com/pulse/en/originals/201803//iran-syria-russia-sentiment-reconstruction-spoils-safavi.html.

عمدت الدبلوماسية الروسية إلى تجنّب التصور القائل بوقوفها إلى جانب العالم الشيعي في صراع إقليمي طائفي فنصّبت نفسها شريكاً أمنياً نشطاً مع دول الخليج العربي[1]. فعلى مدى السنوات الأخيرة، وعلى الرغم من تبنيهما وجهات نظر متعارضة بشأن الصراع السوري، تم تكثيف المشاركة بين الجانبين بشكل كبير، لا سيما بين روسيا والمملكة العربية السعودية. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2017، أصبح الملك سلمان أول ملك سعودي يزور موسكو. وأعاد بوتين زيارة السعودية في عام 2019، بعد أول زيارة له في عام 2006، كأول زعيم روسي يزور الرياض منذ ثمانين عاماً.

ولما كان المحور الإقليمي الشيعي بقيادة إيران يمثّل تحالفاً حصرياً وضعها ضمن حرب إقليمية أوسع في مواجهة الرياض وحلفائها، فقد نجحت موسكو في التراجع والحفاظ على علاقاتها مع جميع اللاعبين. وتحقيقاً لهذه الغاية، دعمت روسيا أيضاً موقف دول الخليج العربي في البحرين واليمن، انطلاقاً من المبادئ المعلنة التي تطبقها في سورية بشأن أهمية عدم التدخل وشرعية الدولة المركزية. وهذا يضعها بشكل أساسي على النقيض من الموقف الإيراني على هذه المسارح.

والشيء نفسه ينطبق على إسرائيل، التي حافظت موسكو على علاقات وثيقة جداً معها، برغم عملها مع إيران في سورية، بما في ذلك من خلال السماح بضربات جوية إسرائيلية متكررة ضد الأصول العسكرية لإيران وحزب الله عبر المجال الجوي الذي تسيطر عليه روسيا، مما أدى إلى تخاصمهما في بعض الأحيان، مثلما حدث عندما اتهمت روسيا إسرائيل باستفزاز الجيش السوري وجره لإسقاط طائرة عسكرية روسية في أيلول/سبتمبر 2018[2]. كما سعت روسيا إلى الحد من النفوذ الإيراني في جنوب سورية لطمأنة المخاوف الإسرائيلية. ولم تمانع روسيا إرسال رسالة إلى كل من إسرائيل ودول الخليج العربي مفادها أن وجودها في سورية - وتعزيز الدولة التي يقودها الأسد يجب أن يكونا موضع ترحيب، باعتبارهما أفضل وسيلة للحد من نفوذ إيران. وتم تبني هذا الفهم على نحو متزايد لدى كل من تل أبيب والرياض، حيث تراجعت الخيارات العسكرية للإطاحة بالأسد وإجبار إيران على الخروج من سورية[3]. ومن المفارقة، أن موسكو استغلت هذه الدينامية بمهارة

(1) Author’s Interview with Senior Gulf Offi cial, March 2018.

(2) Author’s Interview with Senior Israeli Offi cial, March 2018.

(3) Author’s Interview with Senior Saudi and Israeli Offi cials, January and March 2018.

لتنصّب نفسها كشريك، لا غنى عنه إلى جانب أولئك الذين يعارضون عواقب تدخلها العسكري وشراكتها مع إيران في سورية.

ومع ذلك، بقيت روسيا حريصة على عدم المبالغة في تأكيد هذه الرسالة، فأوضحت في الوقت نفسه أن موقفها هو تقليل الحاجة إلى استمرار وجود إيران في سورية، بدلاً من استخدام القوة لإخراج إيران من سورية[1]. في عام 2018 صرح سفير موسكو في إسرائيل قائلًا: «إن إيران تلعب دوراً مهماً للغاية في جهودنا المشتركة للقضاء على الإرهابيين في سورية. لهذا السبب، في هذه الفترة الزمنية، نرى أن مطلب طرد أي قوات أجنبية من الجمهورية العربية السورية بأكملها أمر غير واقعي» بحجة أن روسيا «لا تستطيع» إجبار إيران على الخروج من سورية[2]. ولا تمانع موسكو إعلان تواصلها الوثيق والمستمر مع طهران لضمان عدم عزل إيران بسبب التموضعات الروسية. ففي تموز/يوليو 2019، سافر المبعوث الخاص للرئيس الروسي إلى سورية، ألكسندر لافرنتييف، إلى طهران في أعقاب اجتماع مستشاري الأمن القومي لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل وروسيا في القدس، والذي اعتبره الكثيرون محاولة أمريكية إسرائيلية لإقناع موسكو بالانقلاب على إيران[3]. وهكذا نرى كيف يعكس هذا التوازن جوهر السياسة الروسية في المنطقة على مدى السنوات الأخيرة.

وعلى خلفية هذا المشهد المتمحور حول سورية، تبقى علاقات روسيا مع المكونات والدول الأخرى ضمن «محور المقاومة»، أي لبنان والعراق، أقل تطوراً بكثير. وهذا يؤكد حقيقة أن العلاقة مع إيران و«محور المقاومة» ليست تحالفاً استراتيجياً عميقاً يشمل المنطقة بأكملها.

تنظر موسكو إلى الروابط مع حزب الله والفصائل المسلحة الشيعية العراقية من منظور الصراع السوري في المقام الأول، والذي لطالما رُسِمَت معالمه لدى كل من دمشق وطهران. لذلك لا تحافظ روسيا على علاقات وثيقة مع هذه المجموعات الفردية. وبينما

(1) Author Interview with Russian Offi cial, Moscow, June 2019.

(2) «We Can't Force Iran Out of Syria, Russia Tells Israelis,» Reuters, July 30, 2018. https://uk.reuters.com/article/uk-mideast-crisis-syria-israel-russia/we-cant-force-iran-out-of-syria-russia-tells-israelis-dUKKBN1KK29A?il=0.

(3) «Putin's Envoy Briefs Tehran about Russia-Israel-U.S. Meeting,» PressTV, July 8 2019. https://www.presstv.com/Detail/2019600561/09/07//Iran-Russia-Putin-envoy-brief-Jerusalem-alQuds-meeting-Israel.

تقدر إيران قيمة شبكةٍ قويةٍ من الحلفاء الإقليميين، من غير الدول، والتي يمكن حشدها حسب ما تقتضيه الظروف، يدل تركيز موسكو على دعم وتعزيز الجهات الفاعلة المركزية في الدولة على أن التحالف الوثيق مع سورية لن يمتد ليشمل جبهةً إقليميةً أوسع. وقد قوبلت محاولات موسكو لتعزيز دورها في هذين البلدين، عبر الحكومات المركزية بدلاً من المجموعات التي تشكل «محور المقاومة»، بالرفض إلى حدٍ كبير. ففي لبنان، تعثرت محاولة روسية لبيع أسلحة بقيمة مليار دولار إلى جانب حزمة من اتفاقيات التعاون، بسبب معارضة رئيس الوزراء آنذاك، سعد الحريري، تحت ضغط الولايات المتحدة[1]. كما تم الكشف عن سيناريو مماثل في العراق، حيث رفض رئيس الوزراء آنذاك، حيدر العبادي، عرضاً روسياً بتقديم دعم عسكري مكثف، خوفاً من فقدانه الدعم الأمريكي. ويبدو أن روسيا تتطلع الآن إلى بناء نفوذ في كلا البلدين من خلال تعميق العلاقات الاقتصادية، لكن لا ترقى إلى المستوى الأعمق من العلاقات الإستراتيجية الذي تحافظ عليه الجهات الغربية الفاعلة، وإيران أيضاً، مع هاتين الدولتين.

وفي غضون ذلك، لم تبرز روسيا كمدافع قوي عن موقف إيران ومصالحها الأوسع في مواجهة الضغوط المتزايدة من قبل إدارة ترامب. فصحيح أن موسكو لم ترحب بالانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي الإيراني وفرضها عقوبات جديدة على طهران، إلا أن روسيا لم تتخذ خطوات جادة لعكس هذا المسار أو لتزويد طهران بوسائل الالتفاف على تلك الضغوط. وبالمثل، لم تدافع روسيا عن موقف إيران الإقليمي في مواجهة التصعيد المتزايد في عام 2019 عندما بدأت بوادر صراع إقليمي تلوح في الأفق. وبينما تستمر موسكو في تحقيق توازن دقيق بين إسرائيل وإيران في سورية، فإنها لم تفعل شيئاً يذكر لإظهار أنها ستلعب دوراً أكثر فاعلية - ناهيك عن الدفاع عن طهران – في حال اندلاع صراع أوسع. وهذا يعكس حقيقة أن طموحات ومصالح موسكو الأوسع نطاقاً لا تتوافق بالكامل مع طموحات ومصالح إيران. بل في الواقع، قد يجادل البعض بأن صنّاع السياسة في روسيا يرحّبون بالفعل بالتوترات المتصاعدة كوسيلة لتعزيز نفوذ موسكو وأهمية موقعها كوسيط ضروري.

(1) «Russia's Military Off er Stalls in Lebanon, for Now,» Asia Times, April 8, 2018. http://www.atimes.com/article/russias-military-off er-stalls-lebanon-now/.

روسيا ومحور المقاومة إلى أين

تبدو روابط روسيا بـ «محور المقاومة» مدفوعةً بشكل أساسي بمواءمة المصالح التي تركز على الوضع الآني في سورية بدلاً من تركيزها على التقارب الاستراتيجي الأعمق. ولكن لا يزال الطريق طويلاً لنقطعه من هذا الموقف إلى احتمالية حدوث قطيعة خطيرة بين روسيا وإيران. حتى لو تعمقت الخلافات بمرور الوقت.

لا يمكن إنكار وجود بعض التنافس الروسي الإيراني على النفوذ داخل الدولة السورية في مرحلة ما بعد الصراع. ولكن يظل من الخطأ - وهو الخطأ الذي لطالما أربك صنّاع السياسة الغربيين والإقليميين - تخيُّل أن البلدين يمكن أن يختلفا إلى حد كبير، لا سيما بشأن مسألة مصير الأسد. فمن نواحٍ عديدة، باتت روسيا عالقة مع إيران الآن. ومهما كانت الرسالة التي تنقلها إلى تل أبيب والرياض، فقد فوضت موسكو في كثير من الأحيان القوات المدعومة من إيران بمهمة القتال على الأرض لدعم الأسد. وحتى مع تزايد قوة الأسد، ما تزال دمشق معتمدة على هذه القوات بشكل كبير. ففي النهاية، إن أي محاولة روسية لتقليص الوجود الإيراني بشكل جدي قد تهدد قدرة الأسد على تعزيز موقفه، وهو خطر من غير المرجح أن تتحمله روسيا.

في الوقت ذاته، وربما هي النقطة الأهم، أن روسيا في الواقع ليس لديها النفوذ الكافي لطرد إيران من سورية. فلقد عززت طهران موقعها في سورية بشكل مستقل، وليس لدى روسيا الجيش الكافي ولا الرغبة السياسية لمواجهة إيران. فالأسد وإيران الآن هما اللذان يتمتعان بالنفوذ الأكبر. وقد نجح كلاهما في بعض الأحيان في تحدي طموحات بوتين في سورية، لدرجة أن موسكو غالباً ما تميل نحو إرادتهما وليس العكس. واعترافاً بهذه الحقيقة، يواصل المسؤولون الروس تحذيرهم بعدم المبالغة في فرض نفوذهم على الأسد وإيران، وأن طهران هي حتماً جزءاً ضرورياً من الحل النهائي في سورية، حتى لو صرح الروس بأنهم على استعداد للعمل مع الشركاء لمحاولة تخفيف هذا التأثير.

لقد وقعت روسيا، إلى حدٍ ما، في الحفرة التي حفرتها. فبعد أن ربطت مصداقيتها الدولية بالدفاع عن النظام السوري، ها هي الآن تغدو غير قادرة على الضغط على الأسد أو داعمه الإيراني إذا ما تصرفا بما يخالف تفضيلاتها السياسية. وفي النهاية، تعكس الطبيعة التكتيكية الغامضة لعلاقة روسيا بإيران في سورية ضعف موقف الكرملين. ويبقى أن نرى ما إذا كانت

التناقضات الداخلية لموقف روسيا في سورية ستمتد أيضاً إلى المستوى الإقليمي. إن لعب موسكو على المحك بين عدة جهات إقليمية متناحرة قد زودها بنفوذ غير مسبوق. اللهم إلا إذا أبت غيوم الصراع الإقليمي العاصفة إلا أن تخاطر بكشف هشاشة هذا الموقف.

الفصل 10

روسيا وتركيا: الآفاق وحدود الشراكة

ديميتار بيتشيف

إن علاقة روسيا بتركيا مليئة بالتناقضات. فالإمبراطوريتان السابقتان هما شريكتان ومتنافستان في آن معاً في الشرق الأوسط وجنوب القوقاز وكذلك في البلقان. ومع ذلك، ورغم الانقسامات التاريخية والحالية، تمكنت موسكو وأنقرة من تحديد مصالحهما المتداخلة وبناء علاقات إيجابية مع احتواء النزاعات التي تقوم بينهما. وفي أقل من عام، انتقل الرئيسان فلاديمير بوتين ورجب طيب أردوغان من التعاون الضئيل، إلى المواجهة المباشرة بعد إسقاط طائرة تركية من طراز F-16 لطائرة روسية في تشرين الثاني/نوفمبر 2015، وأعقب ذلك شراكة نشطة. ففي أعقاب الانقلاب الفاشل في تركيا في 15 تموز/يوليو 2016، عادت العلاقات لتزدهر من جديد. فموسكو وأنقرة هما من الدول الراعية لمحادثات أستانا حول سورية، بينما يعمل جيشاهما جنباً إلى جنب على الأرض. هذا ويجري التعاون بينهما في مجال الطاقة، والذي يعود تاريخه إلى التسعينيات، على قدم وساق مع استكمال خط أنابيب الغاز الطبيعي TurkStream، مع إحراز تقدم ملحوظ في محطة Akkuyu للطاقة النووية. ومازالت التجارة البحرية قائمة وما يزال السياح الروس يتوافدون إلى الساحل التركي للبحر المتوسط، كما فعلوا منذ سنوات. وفي غضون ذلك، تسببت صواريخ أرض-جوS-400 الروسية الصنع التي تم تسليمها لأنقرة في إثارة أزمة توتر في العلاقات مع الولايات المتحدة. وبعيداً عن الغرب، رفضت الحكومة التركية العقوبات المفروضة على روسيا واختارت استمرار التعاون معها بدلاً من ذلك. وقد تحول بوتين وأردوغان إلى العمل معاً في السياسة الدولية، حيث التقيا بشكل متكرر واتخذا مبادرات دبلوماسية مشتركة. هذا ويشبّه النقاد الغربيون والمعارضون الأتراك على حد سواء حكم

أردوغان الاستبدادي بقبضة بوتين الصارمة على السلطة في روسيا (مع تجاهل عدد من الاختلافات أيضاً)[1].

ورغم اعتمادها أساساً على العلاقات الشخصية لقادة كل من البلدين، تبقى للعلاقات الروسية التركية روابط طويلة الأمد مثل تقارب المصالح الجيوسياسية وتعميق الترابط الاقتصادي. وسيستكشف هذا الفصل العوامل الهيكلية الأساسية في هذه العلاقة، وسيوضح أيضاً آثارها على منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وكذلك الغرب.

البداية: روسيا وتركيا بين تسعينات القرن الماضي وأوائل الحالي

بعد نهاية الحرب الباردة، قليلون هم من استطاعوا التنبؤ بالصداقة الروسية التركية. كانت أنقرة تطالب بسيادتها على آسيا الوسطى وجنوب القوقاز، وحتى على المجتمعات الناطقة بالتركية والمسلمين داخل روسيا الاتحادية نفسها. وكان ذلك على حساب طموح موسكو في الدفاع عن وحدة الدولة عندما تحدتها الحركات الانفصالية، كتلك الموجودة في الشيشان، كما سعت للحفاظ على هيمنتها على دول الاتحاد السوفيتي السابق. علاوة على ذلك، تمركزت تركيا كحارس متقدم لمصالح الغرب في منطقة أوراسيا، عبر مبادرات مثل عقد مؤتمرات قمة بين رؤساء الدولة التركية ومنظمة التعاون الاقتصادي للبحر الأسود BSEC. وقد نظرت المؤسسة الأمنية التركية لروسيا نظرة ريبة بسبب صلاتها بدول معادية مثل اليونان وسورية وأرمينيا وإيران. وفي 1997–1998، أثار التسليم المحتمل لصواريخ S-300 روسية الصنع إلى القبارصة اليونانيين تهديدات من قبل الجيش التركي بأنه سيعترض سفن روسيا الاتحادية التي تحمل الأسلحة[2]. وبحلول أواخر التسعينيات، نجحت روسيا وتركيا في تحسين العلاقات. ففي كانون الأول/ديسمبر 1997، على سبيل المثال، وقّعت الحكومتان اتفاقية بشأن بناء خط

(1) للحصول على نظرة عامة حول العلاقات التركية مع روسيا، أنظر:

Pavel Baev, «Turkey and Russia,» in The Routledge Handbook of Turkish Politics, ed. Alparslan Ozerdem and Matthew Whiting (London: Routledge, 2019), 413–24. Also Gen cer Ozcan, Evren Balta, and Bur c Be şg ul (eds.), Kuşkuile Kom şuluk: Türkiye ve Rusya Ili şkilerinde Değışen Dinam ıkler (İstanbul: İleti şim, 2017).

(2) Chris Drake, «Cyprus Bows to Pressure and Drops Missile Plan,» The Guardian. December 29, 1998. F. Stephen Larrabee and Ian Lesser, Turkish Foreign Policy in anAge of Uncertainty (Santa Monica, CA: RAND, 2003), ch. 4.

أنابيب للغاز الطبيعي تحت البحر الأسود، وهو ما سيُعرف لاحقاً بالتيار الأزرق Blue Stream. كما كانت شركات البناء التركية تنفذ بالفعل مشاريع بملايين الدولارات في روسيا الاتحادية، بينما استورد «تجار الشنطة»[1][2] كميات كبيرة من المنسوجات الرخيصة والسلع الاستهلاكية من اسطنبول. وقد أعطى هذا الزخم الإيجابي بوادر خطة عمل حول التعاون في أوراسيا، تبناها وزيرا الخارجية إسماعيل جيم وإيجور إيفانوف في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. وفي العقد التالي، راكم بوتين وأردوغان هذا الميراث. وفي عام 2004، أصبح بوتين أول رئيس روسي يقوم بزيارة دولة إلى تركيا[3]. بعد ذلك بست سنوات، بدأ مجلس التعاون الاستراتيجي رفيع المستوى، وهو هيئة مشتركة تضم الحكومتين، سلسلة اجتماعات منتظمة.

دوافع العلاقة الروسية - التركية

لم يعكس التقارب على مدى العقدين الماضيين الروابط الاقتصادية العميقة فحسب، بل عكس أيضاً التقارب المعياري والموقف الجيوسياسي لتركيا والتطور المحلي. كما كان لطموحات روسيا المتنامية في الشرق الأوسط دوراً مهماً أيضاً.

الترابط الاقتصادي

بفضل الغاز الطبيعي، تشابكت أنظمة الطاقة في روسيا (كمصدّر رئيسي) وتركيا (كمستهلك) بشكل متزايد. بدأ الاتحاد السوفيتي ضخ الغاز عبر ما يسمى بخط الأنابيب العابر للبلقان في عام 1988. وبعد عقدين من الزمن، وبعد دخول (بلو ستريم) في عام 2005 حيز العمل، أصبحت تركيا ثاني أكبر سوق لشركة غازبروم للغاز الروسي الطبيعي بعد ألمانيا. وما

(1) لم يأت بوريس يلتسين إلى تركيا في زيارة رسمية أبداً، على الرغم من حضوره إنطلاق منظمة التعاون الاقتصادي في منطقة البحر الأسود التي استضافها الرئيس تورغوت أوزال في عام 1992 وكذلك قمة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا عام 1998 في اسطنبول.

Dimitar Bechev, R ival Power: Russia in Southeast Europe (New Haven: Yale University Press), ch. 5.

(2) تعبير يُطلق على العاملين في مجال بيع الاشياء من منازلهم، عن طريق الترويج لها بوسائل الاتصال الإلكترونية. (المركز)

(3) استوردت تركيا نحو 23.96 مليار متر مكعب في عام 2018، منها 7.86 من إيران و7.52 من أذربيجان. البيانات صادرة من قبل شركة غازبروم إكسبورت ومعهد الإحصاء التركي (TUİK) في:

http://www.tuik.gov.tr/.

يزال خط ترك ستريم، الذي حلّ الآن محل خط الأنابيب العابر للبلقان، يساهم في ترسيخ العلاقة. إذ تحصل تركيا على حوالي نصف وارداتها من الغاز من روسيا. وعلى الرغم من مد خط أنابيب جديد من روسيا، ما تزال واردات تركيا من الغاز الروسي أقل من النصف[1].

وبعد إلغاء التأشيرات في عام 2011، سرعان ما أصبح الروس أحد أكبر مجموعات السياح الأجانب إلى البلاد، ولا يتفوق عليهم سوى الألمان. ويمتلك عشرات آلاف الروس عقارات لقضاء العطلات على طول بحر إيجة وساحل البحر المتوسط. في عام 2018، زار تركيا 5.9 مليون مواطن روسي، بزيادة قدرها 25 % مقارنة بالعام السابق[2]. وقد أدى انخفاض قيمة الليرة التركية عقب الاضطرابات الاقتصادية التي حدثت خلال العام الماضي إلى جعل البلاد أكثر جاذبية للسياح. وفي الوقت نفسه، جعلت تلك الاضطرابات واردات الطاقة من روسيا، المسعرة بالدولار، أكثر تكلفة. مما فاقم العجز التجاري الهيكلي الذي شكل نقطة ضعف في العلاقات الثنائية منذ التسعينيات. فيما يتعلق بالمواد الهيدروكربونية، تعد روسيا أكبر مورد لتركيا، وتأتي في المرتبة الثالثة بعد الاتحاد الأوروبي والصين. لكن روسيا تحتل مرتبة أقل بكثير في قائمة وجهات التصدير التركية، متخلفة عن دول مثل العراق، والإمارات العربية المتحدة، وإيران، وإسرائيل، وحتى رومانيا وبلغاريا. وفي عام 2019 بلغت واردات روسيا ما يقرب من 23.1 مليار دولار من إجمالي حجم التداول البالغ حوالي 26.5 مليار دولار. فلا يزال هدف الوصول إلى 100 مليار دولار، الذي روج له أردوغان لسنوات، بعيد المنال - لا سيما بالنظر إلى معدلات النمو الضعيفة في كلا البلدين والركود الحاصل في أوائل العقد الأول من القرن الحالي[3].

---

(1) وبالمقارنة، وصلت الأرقام إلى 3.5 مليون في عام 2014. وانخفضت في عام 2015 بسبب الهجمات الإرهابية وفي عام 2016 نتيجة العقوبات الروسية. وتراجعت عائدات السياحة التركية لعام 2015 بنسبة 8.3٪ إلى 31.46 مليار دولار:

Hürriyet Daily News, January 29, 2016.

(2) لا يزال حجم التجارة أقل بكثير من 37.7 مليار دولار المسجل في عام 2008، وهو العام الأخير قبل الأزمة المالية العالمية.

(3) Suat K ın ıkl ıo ğlu and Valeriy Morkva, «An Anatomy of Russian-Turkish Relations,» Journal of Southeast European and Black Sea Studies 7, no. 1 (2007): 533–53.

تقارب المواقف حول سلطة الدولة

تشترك كلٌ من روسيا وتركيا في ثقافة سياسية تعطي الأولوية لأمن الدولة وسيادتها على الحقوق الفردية. وفي التسعينيات، بدأتا في التعامل مع بعضهما في قضايا حساسة مثل القضية الكردية والشيشان. فعلى سبيل المثال، في أوائل عام 1999، فرض الرئيس بوريس يلتسين ورئيس الوزراء إيفجيني بريماكوف قرارهما [بالرفض] على مجلس الدوما فيما يتعلق بطلب عبد الله أوجلان في الحصول على اللجوء السياسي. وكان زعيم حزب العمال الكردستاني قد لجأ إلى موسكو بعد طرده من سورية إثر تهديد تركيا بعمل عسكري ضد هذه الأخيرة. وبعد عام، أعلن رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد إن الحرب الثانية على الشيشان باعتبارها مهمة داخلية روسية، بعد لقائه فلاديمير بوتين، الذي تم تعيينه بالفعل خلفاً لـ(يلتسين). ولطالما جذب حكم بوتين القوي، ودفاعه عن المصالح الوطنية الروسية ضد التعديات الغربية، وتحديث المجتمع من أعلى إلى أسفل، اهتمام النخب التركية والمجتمع التركي، متجاوزاً الانقسام العلماني الديني. فقد أشادت الصحافة التركية في مقال بعنوان «كمالي في الكرملين» بالرئيس الروسي خلال زيارته الأولى للبلاد في عام 2004[1]. في تلك المرحلة، عارضت فصائل الجيش والبيروقراطية التركية الإصلاحات الليبرالية التي يروّج لها الاتحاد الأوروبي واستاءت من السياسة الخارجية للولايات المتحدة. كما احتضنت النظرية الأوراسية ودافعت عن التحالف مع روسيا.

ولكن مع تولي حزب العدالة والتنمية وأردوغان الحكم (Adalet ve Kalk ınma Partisi, AKP) في منتصف عام 2010، تحول ولاؤهم له. وسهّلت القومية المتصاعدة والمشاعر المعادية للغرب في تركيا التحول نحو روسيا.

موقع تركيا الجيوسياسي

لطالما فضّلت تركيا القتال إلى جانب روسيا بدلاً من مقاتلتها. فخلال حرب عام 2008 في جورجيا، على سبيل المثال، استبْقت تركيا حلفاءها بعيدين عنها، لحرصها على عدم استعداء موسكو.

(1) بدأت روسيا التسليم الفعلي لصواريخ S-400 في منتصف تموز/يوليو 2019، في الذكرى الثالثة لمحاولة الانقلاب.

قدّر صانعو السياسة في أنقرة أنه في حال حدوث تصعيد، ستترك الولايات المتحدة تركيا لتدافع عن نفسها. وبعد انخراطها في «القوة البحرية للبحر الأسود (BLACKSEAFOR)» وهو منتدى إقليمي بديل لحلف شمال الأطلسي، أطلقت أنقرة منصة استقرار وتعاون في القوقاز، تهدف إلى طمأنة موسكو وإبقاء القوى الغربية على بعد ذراع من المنطقة. وحتى لو شجبت ضم شبه جزيرة القرم في عام 2014 وتعاطفت مع محنة رفاقها من التتار في شبه الجزيرة، فقد رفضت تركيا العقوبات الغربية على روسيا. ومنذ ذلك الحين، سعت أنقرة إلى تحقيق توازن معقد بين الغرب وموسكو، معتبرة نفسها قطباً ثالثاً وليس امتداداً للحلف الأطلسي.

ومع الانتشار العسكري الروسي في سورية وجنوب القوقاز وخاصة شبه جزيرة القرم، تجد تركيا نفسها محاصرةً وهشةً. كما أن انسحاب موسكو عام 2007 من اتفاقية القوات التقليدية في أوروبا CFE، ومؤخراً، اتفاقية القوات النووية الوسيطة INF يضيف إلى المأزق التركي. رغم أن أنقرة تشارك في اتفاقية «الوجود الأمامي» المصمم خصيصاً لحلف الناتو في البحر الأسود وتدعم توسيع الاتفاقية، إلا أنها تفعل ذلك تحت الرادار إلى حد كبير.

أزمة العلاقة مع الغرب

أدى انجراف تركيا نحو النمط السلطوي، والذي بلغ ذروته في فرض نظام رئاسي من خلال تغيير دستوري في عام 2017، إلى تعميق الصدع مع الغرب؛ إذ تدهورت العلاقات مع الولايات المتحدة وأوروبا واقتصرت الآن إلى حد كبير على المعاملات التجارية. ونتيجة لذلك، أخذت جاذبية روسيا في الازدياد. كان أردوغان هو البطل الرئيسي في هذه القصة. فقد ألقى اللوم على القوى الأجنبية في احتجاجات غيزي (ثورة ملونة فاشلة)[1]، واستاء من فشل إدارة أوباما في فرض «خطوطها الحمراء» بعد أن استخدم النظام السوري الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين، واتهم حركة فتح الله غولن المرتبطة بمحاولة الانقلاب في 15 تموز/يوليو 2016 بالعمالة للولايات المتحدة وإسرائيل. وزاد انهيار عملية السلام الكردية في تركيا في صيف 2015 وتجدد القتال بين الحكومة وحزب العمال الكردستاني من سوء العلاقات. وفي عام

(1) احتجاجات شعبية واعتصامات حدثت أواخر آيار/مايو 2013 في (غيزي) إحدى المتنزهات والساحات الرئيسة في اسطنبول ومدن تركية أخرى حول سياسات الحكومة، جرّت إلى صدامات مع الشرطة التي فضّت التجمعات بالقوة. وقد لاقت أحداث (غيزي) تعاطفاً من بعض وسائل الإعلام الغربية. (المركز)

2014، انحازت الولايات المتحدة إلى الأكراد السوريين الذين يقاتلون تنظيم الدولة الإسلامية. وترى تركيا أن ما يسمى بقوات سورية الديمقراطية - التي يتكون جوهرها من وحدات حماية الشعب الكردية YPG - وكيلاً عن حزب العمال الكردستاني. وعلى المقلب الآخر، ورغم صلاتها الخاصة بالأكراد السوريين وعلى عكس الغرب لم تعتبر حزب العمال الكردستاني أو فروعه منظمةً إرهابيةً، وقد أعطت روسيا الضوء الأخضر لتوغلات تركيا في شمال سورية في عامي 2016 و2018 (عمليتا «درع الفرات» و«غصن الزيتون»).

وبعد تضييقها الخناق على أنصار غولن في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، نالت السلطات الروسية وبوتين شخصياً امتياز وقوفهما بقوة إلى جانب أردوغان خلال محاولة الانقلاب عام 2016 أيضاً[1].

وفي غضون ذلك، تواجه الولايات المتحدة انتقادات شديدة لفشلها في تسليم زعيم الحركة المنفي. ويحمّل المحللون ووسائل الإعلام المؤيدون لحزب العدالة والتنمية أمريكا مسؤولية التحريض على الإطاحة بأردوغان، ودعم أعداء تركيا، وزعزعة استقرار الاقتصاد التركي.

في الوقت نفسه، تمكن الرئيس التركي من بناء علاقة مع دونالد ترامب. ففي تشرين الأول/أكتوبر 2019، سحب ترامب الجزء الأكبر من القوات الأمريكية من شمال شرق سورية، ما مكن من قيام ما يسمى بعملية نبع السلام التي شنتها تركيا ضد قوات سورية الديمقراطية ووحدات حماية الشعب. ورغم ذلك، لا يزال أردوغان كالبعبع في أعين الكونغرس والمؤسسة السياسية الأمريكية، حيث أدى شراءه صواريخ S-400 من روسيا إلى فرض عقوبات على تركيا[2]. فمثلًا، تم استبعاد أنقرة من الاتحاد الدولي المسؤول عن تطوير واقتناء المقاتلة النفاثة الجديدة F-35؛ أحدث طُرُز المقاتلات الجوية. باختصار، تصور الحكومة التركية، وكل من يحذو حذوها، الغرب كخصم. بينما تظهر روسيا كشريك جيوسياسي وداعم لاستقرار النظام في تركيا[3].

---

(1) See Kemal Kirişci, Turkey and the West: Faultlines in a Troubled Alliance (Washington, DC: Brookings Institution, 2017). Also Soner Cağaptay, Erdoğan's Empire: Turkey and the Politics of the Middle East (London: Bloomsbury, 2019).

(2) أشار أردوغان إلى المقاتلة الروسية Su-57 كبديل.

(3) في الوقت نفسه، من الصحيح القول أن وسائل الإعلام الحكومية الروسية تشابه النسخة التركية من وكالة سبوتنيك التي تتخذ في كثير من الأحيان موقفاً مناهضاً للحكومة في تغطيتها للشؤون الداخلية والسياسة الخارجية لتركيا.

«Russian Propaganda Outlets Prosper in Turkey,» Economist, February 28, 2019.

عودة روسيا إلى الشرق الأوسط

أخيراً وليس آخراً، أثبتت تركيا نفسها كمُحاور أساسي لروسيا في الشرق الأوسط. وتعتبر أنقرة أساسية في محاولة الكرملين الاستفادة من المكاسب العسكرية في سورية؛ من أجل التوصل لاتفاق لتقاسم النفوذ، وترسيخ حكم الأسد، وضمان مصالح روسيا على المدى الطويل. فتركيا هي جسر فصائل المعارضة المسلحة وبعض مؤيديها في جميع أنحاء المنطقة. هذا ويرعى المثلث الروسي - التركي - الإيراني محادثات أستانا بشأن سورية، المستمرة منذ شباط/فبراير 2017، والتي تعتبر إحدى الإنجازات الروسية. وتشارك أنقرة موسكو في وجهة نظرها تجاه منافِستها إيران، باعتبارها ركيزة أساسية للنظام الإقليمي. وتواصل تركيا دعم الاتفاق النووي وتنتقد عقوبات إدارة ترامب ضد الجمهورية الإسلامية، رغم أنها خفّضت مشترياتها من النفط الإيراني[1].

العلاقات الروسية التركية على الأرض

يبحث هذا الجزء في كيفية تفاعل روسيا وتركيا عبر المجالات الجغرافية وقضايا السياسة الرئيسية: الحرب في سورية، والصراع في ليبيا، والمقاتلين الأجانب، والطاقة، والأمن في فضاء ما بعد الاتحاد السوفيتي.

سورية

في المراحل الأولى من الصراع السوري، اتفقت روسيا وتركيا ببساطة على اختلافهما وتشتت علاقتهما. لكن خلال «أزمة الطائرة» بين عامي 2015 و2016، ألحقت سورية خسائر فادحة بالعلاقات الثنائية نظراً للتكلفة الاقتصادية للعقوبات التي فرضتها روسيا. فوفقاً لنائب رئيس الوزراء محمد شيمشك، خسرت تركيا أكثر من 10 مليارات دولار (أكثر من 1%) من ناتجها المحلي الإجمالي. بينما حقق خصوم تركيا - نظام الأسد والأكراد السوريون - بفضل الضربات الجوية الروسية، مكاسب إقليمية على حساب حلفاء تركيا وعملائها، كميليشيا أحرار الشام السلفية أو الجيش السوري الحر. لكن إبان التقارب في آب/أغسطس 2016، أعطت

(1) Dimitar Bechev, «Turkey’s View of the U.S.–Iran Crisis,» Ahval, May 24, 2019. https://ahvalnews.com/us-turkey/turkeys-view-us-iran-crisis.

روسيا الضوء الأخضر للتوغل التركي في محافظة حلب الشمالية، حيث تحولت قائمة أولويات تركيا تدريجياً من الإطاحة بالنظام إلى دحر المسلحين الأكراد وإنشاء منطقة عازلة على طول الحدود، بينما قبلت في النهاية، وعلى مضض، فكرة بقاء الأسد في السلطة بفضل التدخل الروسي. وبدعم جوي من روسيا التي استهدفت تنظيم الدولة الإسلامية، خلقت عملية «درع الفرات» (آب/أغسطس 2016 – آذار/مارس 2017) منطقة عازلة في محافظة حلب الشمالية، وأدى تدخل أنقرة إلى طرد داعش ووقف تقدم وحدات حماية الشعب باتجاه الغرب، وبحلول منتصف عام 2016، هددت بإغلاق 900 كيلومتر من الحدود بين تركيا وسورية. وفي أوائل عام 2018، سمحت روسيا لتركيا بالاستيلاء على جيب عفرين من قوات سورية الديمقراطية ووحدات حماية الشعب، من خلال فتح المجال الجوي السوري وسحب وحدات الشرطة العسكرية التابعة لها والتي كانت تابعة للميليشيات الكردية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الكتيبة الأمريكية التي يبلغ قوامها ألفي جندي والمنتشرة في المناطق التي يسيطر عليها الأكراد منعت تركيا من السيطرة على شرق الفرات.

لكن استراتيجية تركيا في تحقيق التوازن بين موسكو وواشنطن أتت أكلها في النهاية. فقد سمح قرار ترامب بسحب معظم القوات في تشرين الأول/أكتوبر 2019 من شمال شرق سورية للجيش التركي ووكلائه العرب بطرد قوات سورية الديمقراطية ووحدات حماية الشعب من المنطقة العازلة بين بلدتي رأس العين وتل أبيض الحدوديتين (عملية «نبع السلام»). وتكيفت روسيا مع الظروف المتغيرة، بعد أن أدانت العملية. وأثناء اجتماعهما في سوتشي [منتج روسي على البحر الأسود]، توصل بوتين وأردوغان إلى اتفاق قضى بتسيير دوريات روسية تركية مشتركة لفصل القوات التركية عن الأكراد. وفي موازاة ذلك، توسّطت موسكو لإقامة اتفاق بين الأكراد والأسد، أثمر عنه انتقال النظام إلى أجزاء من الشمال الشرقي. كما صرحت الدبلوماسية الروسية عن وجود احتمالات تقارب بين دمشق وأنقرة أيضاً. وباختصار، تقاسمت كل من تركيا وروسيا الغنائم عندما انسحبت الولايات المتحدة من المنطقة[1].

توفّر الصداقة مع روسيا وإيران لتركيا وسيلة للتحوط من المنافسين الإقليميين مثل المملكة العربية السعودية. إذ ظهر الانقسام في العلاقات التركية السعودية إلى العلن مع

---

(1) ولا يزال قرابة 500 جندي أمريكي منتشرين في محافظة دير الزور بهدف محاربة تنظيم داعش وحماية آبار النفط. أنظر:

Luke Morgelson, «America's Abandonment of Syria,» N ew Yorker, April 20, 2020.

جريمة القتل الوقحة للصحفي جمال خاشقجي في القنصلية السعودية في اسطنبول في تشرين الأول/أكتوبر 2018. كما تصاعدت التوترات أكثر بسبب الأزمة الدبلوماسية بين الرياض وقطر التي اندلعت في عام 2017 (ولم يتم حلها حتى عام 2021). تعمل قطر، التي تستضيف الآن قاعدة عسكرية تركية، منذ فترة طويلة مع أنقرة في دعم المعارضة السورية وكذلك دعم جماعة الإخوان المسلمين في جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وبفضل يعود جلّه لروسيا، تمكن التحالف التركي القطري من تحقيق توازن أكثر فعالية بين التحالف الذي تقوده إيران من جهة والمملكة العربية السعودية وأصدقائها في الخليج من جهة أخرى[1].

كما حققت روسيا مكاسب استراتيجية من خلال التعاون مع تركيا أيضاً. فقد احتل جيش الأسد والميليشيات المدعومة من إيران شرق حلب، والذي تم إخلاؤه بعد صفقة تمت بوساطة تركية في كانون الأول/ديسمبر 2016. وقد مكّنت محادثات أستانا، التي رعتها تركيا وإيران، روسيا من لعب دور صانع السلام والتواصل مع «المعارضة المعتدلة». أي، بشكل أو بآخر، أية جهة عدا داعش وهيئة تحرير الشام المرتبطة بالقاعدة. دافعت موسكو عن مناطق خفض التصعيد في جميع أنحاء سورية، بما في ذلك في إدلب. ولكن مع فشل مؤتمر سوتشي (كانون الثاني/يناير 2018)، تحولت أستانا إلى ورقة توت دبلوماسية، مما سمح للنظام والروس بالضغط بقوة على مناطق المتمردين المنتشرة في جميع أنحاء البلاد. علاوة على ذلك، استفادت روسيا من التوترات بين تركيا والولايات المتحدة. ولكنها كانت تلعب على الحبلين: إذ لم تقطع روابطها السياسية والعسكرية مع الأكراد السوريين بشكل كامل. (ففي مسودة دستورية اقترحتها روسيا وُعِدَ الأكراد بالحكم الذاتي). أخيراً، يرى الكرملين تركيا كمساهم في عملية إعادة الإعمار المستقبلية في سورية ما بعد الصراع. ففي تشرين الأول/أكتوبر 2018، استقبل أردوغان المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل والرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إلى جانب فلاديمير بوتين لمناقشة القضية. وقد استمر تدفق النقود من أنقرة إلى الجيوب الخاضعة لسيطرة تركيا في الشمال السوري، حيث أصبحت الليرة التركية الآن عملة قانونية، في وقتٍ يشهد فيه الاقتصاد السوري حالة من السقوط الحر[2]. وتحولت تلك المناطق إلى

(1) انظر الفصول المؤلفة من قبل جوليان بارنز-داسي وديمتري فرولوفسكي في هذا المجلد.

(2) Aslı Aydıntaşbaş, «A New Gaza: Turkey’s Border Policy in Northern Syria.» Policy Brief, European Council on Foreign Relations, May 2020. https://www.ecfr.eu/publications/summary/a_new_gaza_turkeys_border_policy_in_northern_syria.

قنوات تهريب نحو أجزاء يسيطر عليها النظام في البلاد، وبالتالي أصبحت بحاجة ماسة إلى العملة الأجنبية[1].

في إدلب، ظهر ضعف تركيا في مواجهة روسيا. ففي أيلول/سبتمبر 2018، توسّط بوتين وأردوغان لصياغة اتفاق ينزع بموجبه الأتراك السلاح من المنطقة، فيتم تطبيع هيئة تحرير الشام، في مقابل وقف إطلاق النار وإيقاف جميع هجمات النظام. ويمثّل الجيب الشمالي الغربي موطناً لحوالي 3 ملايين شخص، بما في ذلك المدنيين النازحين والميليشيات المناهضة للحكومة والتي تم نقلها من أجزاء أخرى من سورية إثر اتفاقات مع النظام، تهديداً بتدفق هائل للاجئين إلى تركيا المجاورة. وقد أصبح المجتمع التركي، الذي رحب في البداية بالسوريين، معادياً للوافدين الجدد[2]. وماتت الصفقة الروسية التركية بُعيدَ ولادتها، حيث استولت هيئة تحرير الشام على الجزء الأكبر من الجيب، مما أدى إلى طرد أو تفكيك الفصائل الأخرى. وقد قدم هذا بدوره ذريعة لهجمات النظام المتكررة في 2018-2019، بدعم جوي روسي. وقد دفع عجز الروس أو عدم استعدادهم لكبح الأسد- تركيا لتزيد من تسليح حلفائها على الأرض[3].

وصل الوضع في إدلب إلى ذروته في أواخر عام 2019 والأشهر الأولى من عام 2020. ولم يوفر سلاح الجو الروسي أي دعم لهجوم النظام عليها بهدف استعادة المنطقة بأكملها. ودفع القتال موسكو وأنقرة بشكل خطير إلى حافة الهاوية، حيث عززت تركيا وجودها العسكري وتصدت لقوات الأسد. ففي 27 شباط/فبراير 2020 قُتل نحو ثلاثة وثلاثين جندياً تركياً في غارة جوية ربما نفذها الروس. ومع ذلك، ألقت أنقرة اللوم على النظام، وسعت إلى الشراكة مع موسكو. وفي غضون ذلك، اكتفت روسيا بمشاهدة الطائرات التركية بدون طيار وهي تُلحق خسائر فادحة بالأسد. كما ضمنت أمن نقاط المراقبة التركية التي بقيت

(1) «Where Does the Syrian Regime Get Foreign Currency From?» Enab Baladi, July 8, 2020. https://english.enabbaladi.net/archives/202007//where-does-the-syrian-regime-get-foreign-currency-from/.

(2) Alan Makovsky, «Turkey's Refugee Dilemma,» Center for American Progress, March 13, 2019. https://www.americanprogress.org/issues/security/reports/2019467183/13/03//turkeys-refugee-dilemma/.

(3) Charles Lister, «Assad Hasn't Won Anything,» Foreign Policy, July 11, 2019. https://foreignpolicy.com/201911/07//assad-hasnt-won-anything-syria/.

على الخطوط الأمامية محاصرة من قبل النظام. في النهاية، أدى انعقاد قمة أخرى بين بوتين وأردوغان (في 5 آذار/مارس) إلى وقف إطلاق النار، مما أدى إلى تقسيم منطقة إدلب من حيث الواقع، وإطلاق دوريات مشتركة على طول الطريق السريع إم-4 (M4) الاستراتيجي الذي يربط بين اللاذقية وحلب. نجت تركيا من التدفق الكبير للاجئين. وفي غضون ذلك، حصلت روسيا على اتفاق ضمني من أنقرة لنقل أجزاء استراتيجية من الجيب إلى الأسد. ورغم هشاشة هذه الصفقة الأخيرة بشأن إدلب، ربما بسبب عدم قدرة تركيا على حل هيئة تحرير الشام. ولكنها تشهد على مرونة العلاقات الروسية التركية[1].

ليبيا

وجدت روسيا وتركيا نفسيهما على خلاف في الصراع الليبي أيضاً، فبينما ألقى أردوغان بثقله وراء حكومة الوفاق الوطني في طرابلس، قدّمت روسيا دعماً مبدئياً للجنرال خليفة حفتر في شرق البلاد.

اللافت هو أن أنقرة بدت وكأنها تطبق الدروس المستفادة من المهمة الروسية في سورية. إذ أرسلت دعماً عسكرياً، تألف من معدات ثقيلة وطائرات بدون طيار[2] ومدربين ومرتزقة (بما فيهم سبعة آلاف من الميليشيات السورية حسبما ورد)، ونشرت أسطولها البحري قبالة سواحل ليبيا، واستخدمت قدراتها في جمع المعلومات الاستخبارية لدعم طرابلس. وفي الوقت نفسه، كان المرتزقة الروس من مجموعة فاغنر، المدعومين على الأرجح من عملاء المخابرات العسكرية الروسية GRU، يقاتلون جنباً إلى جنب مع الجيش الوطني الليبي LNA التابع لحفتر[3]. ومع ذلك، وعلى عكس ما جرى في سورية، لم تكن روسيا في البداية رأس

(1) Galip Dalay, «How Long Will the Russian-Turkish Deal on Idlib Last?» A l Jazeera, March 20, 2020.
https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/long-turkish-russiandeal-idlib-200316135110613.html.

(2) اختبرت الحملة الليبية وعرضت على العملاء المحتملين أنظمة الأسلحة التي طورتها صناعة الدفاع التركية، مثل طائرة بيرقدار T2 بدون طيار (المستخدمة أيضاً في إدلب، وفي خريف عام 2020، في ناغورنو كاراباخ)، كما فعلت سوريا مع مصدري الأسلحة الروس.

(3) «Russian Snipers, Missiles and Warplanes Try to Tilt Libyan Conflict,» New York Times, November 5, 2019.
https://www.nytimes.com/201905/11//world/middleeast/russia-libya-mercenaries.html; Jalel

حربة في الصراع، إذ تزايد نفوذها مؤخراً فقط. وهي ليست إلا جزءاً من تحالف أوسع يدعم حفتر، والذي يضم الإمارات العربية المتحدة ومصر والمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى بعض الحكومات الغربية. كما وتستبقي موسكو قنوات مفتوحة مع طرابلس أيضاً. وقد حاول كل من أردوغان وبوتين إيجاد أرضية مشتركة. ففي كانون الثاني/يناير 2020، دعتا لوقف إطلاق النار في ليبيا وشاركتا أيضاً في مؤتمر دولي في برلين.

أدى فشل المؤتمر إلى مضاعفة تركيا دعمها السياسي والعسكري لحكومة الوفاق الوطني[1]. وقد حالت حكومة الوفاق الوطني دون وصول حفتر إلى طرابلس، ونقلت خط الجبهة إلى (سرت)، بوابة حقول النفط الشرقية، وقاعدة الجفرة الجوية، مركز عمليات الجيش الوطني الليبي في وسط ليبيا. ودفع ذلك موسكو إلى تعزيز دعمها لـ «حفتر»، ونشرها طائرات حربية في كل من الجفرة وخديما، وربما نشرت أنظمة دفاع جوي متقدمة[2]. وبالاشتراك مع الإمارات العربية المتحدة ومصر، رسم الكرملين خطاً أحمر أمام تركيا. بعد ذلك هدأ القتال واكتسبت المفاوضات التي قادتها الأمم المتحدة زخماً. وفي نهاية المطاف أبرم رئيس حكومة الوفاق الوطني فايز السراج ورئيس البرلمان المنافس له، ومقره بنغازي، من دون استمزاج رأي حفتر، اتفاقاً لوقف إطلاق النار في تشرين الأول/أكتوبر 2020. ولكن على عكس مؤتمر برلين، فإن روسيا وتركيا - اللتين أصرتا على انسحاب الجيش الوطني الليبي من سرت لم تكونان في طليعة الجهود الدبلوماسية للتوصل إلى تسوية للحرب الأهلية هناك[3].

Harchaoui, The Pendulum: How Russia Sways Its Way into More Influence in Libya, War on the Rocks, 7 January 2021. https://warontherocks.com/202101//the-pendulum-how-russia-sways-its-way-to-more-infl uence-in-libya/.

(1) «Turkey Wades into Libya's Troubled Waters, International Crisis Group,» Report 257. Europe and Central Asia. April 30, 2020.
https://www.crisisgroup.org/europe-central-asia/western-europemediterranean/turkey/257-turkey-wades-libyas-troubled-waters.

(2) Brian Katz and Joseph Bermudez Jr., «Moscow's Next Front: Russia's Expanding Footprint in Libya,» Center for Strategic and International Studies, June 17, 2020.
https://www.csis.org/analysis/moscows-next-front-russias-expanding-military-footprint-libya.

(3) وأعرب أردوغان عن شكوكه فيما إذا كان وقف إطلاق النار سيستمر.
«Libyan Factions Sign 'Permanent' Ceasefire, Erdogan Casts Doubt,» The Arab Weekly, October 23, 2020. https://thearabweekly.com/libyan-factions-sign-permanent-ceasefi re-erdogan-casts-doubt.

المقاتلون الأجانب

ثمة جانب أقلّ وضوحاً ولكنه لا يقل أهمية حول المقاتلين الأجانب من روسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق المقيمين في تركيا أو الذين يمرون عبرها في طريقهم إلى سورية والعراق. في البداية، تسامحت تركيا مع مرور «الطريق الجهادي السريع» عبر أراضيها، لأنه عزّز القتال ضد نظام الأسد. كما ورد أن روسيا منحت المتطرفين حرية المرور عبرها في 2012-2013 لمواجهة المخاطر المحتملة خلال دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي[1]. ولكن، اعتباراً من عام 2014 فصاعداً، أصبحت تركيا نفسها هدفاً لهجمات داعش، عندما انضمت إلى التحالف الدولي، بعد الكثير من التباطؤ. وجاء بعض المقاتلين من دول ما بعد الاتحاد السوفيتي الواقعة في آسيا الوسطى. ومع ذلك، تجد روسيا وتركيا صعوبة في التعاون على مستوى أجهزة الاستخبارات وإنفاذ القانون.

وعلى الرغم من أن الجيشين قاتلا جنباً إلى جنب ضد داعش في 2016-2017، ولكن في الوقت نفسه، ترفض السلطات التركية عادة طلبات تسليم المواطنين الروس المشتبه في صلتهم بالإرهاب. فالمهاجرون القادمين من شمال القوقاز، والذين يتخذون السلفية مذهباً لهم (سواء أكانوا متشددين أم لا)، هم من أشد المؤيدين لأردوغان وحزب العدالة والتنمية. كما أن السلطات التركية عبرت عن استيائها من اغتيال النشطاء الشيشان على الأراضي التركية، مع الاشتباه بضلوع جهاز الأمن الفيدرالي الروسي FSB[2]. ومن الجدير بالذكر أن المسلمين من روسيا وآسيا الوسطى يقاتلون ليس فقط في صفوف داعش ولكن أيضاً في صفوف الميليشيات السلفية، مثل أحرار الشام وجيش الإسلام (التي كان الجيش الروسي يتفاوض معها ويقاتلها في آن معاً)[3].

(1) Elena Milashina, «Khalifat? Primanka dlia Durakov [Khalifate? Trap for Fools],» Novaya Gazeta, July 29, 2015. https://www.novayagazeta.ru/articles/2015171--65056/29/07/halifat-primanka-dlya-durakov-187.

(2) Shaun Walker, «Murder in Istanbul: Kremlin's Hand Suspected in Shooting of a Chechen,» The G uardian, January 10, 2016. https://www.theguardian.com/world/2016/jan/10/murder-istanbul-chechen-kremlin-russia-abdulvakhid-edelgireyev.

(3) أدت أحرار الشام دوراً رئيسياً، جنباً إلى جنب مع هيئة تحرير الشام، في الاستيلاء على إدلب عام 2015. وانتقل «جيش الإسلام»، الذي كان مهيمناً في السابق على الضواحي الشرقية لدمشق، إلى منطقة درع الفرات في شمال حلب التي تسيطر عليها تركيا.

الطاقة

بصرف النظر عن الصراع السوري، تُعد الطاقة مجال تتقاطع فيه المصالح الاستراتيجية الروسية والتركية. فمع افتقارها للموارد المحلية ونموها الاقتصادي وزيادة عدد سكانها، تعتمد تركيا على النفط والغاز المستورد. وكانت روسيا مصدِّراً رئيسياً للغاز الطبيعي (إذ تغطي حوالي 60 % من استهلاك تركيا)، وبدرجة أقل، النفط الخام. وبمجرد اكتمال محطة الطاقة النووية [مرسين/تركيا] في أكويو Akkuyuفي منتصف عام 2020[1]، كان للشركة النووية الحكومية الروسية، روساتوم Rosatom حصة في سوق الكهرباء المحلي أيضاً. ومع انتاجها 1114 ميغاواط، فإن أول وحدة لأكويو (من أصل أربعة) تساهم فيما يقارب 6.1 % من قدرة التوليد الحالية للبلاد. وتأمل تركيا أن تحل محل أوكرانيا جزئياً كبلد عبور للغاز الروسي. إذ يتكون خط أنابيب ترك ستريم من سلسلتين متوازيتين بسعة إجمالية تبلغ 5.31 مليار متر مكعب، أحدهما مخصص للسوق التركي والآخر متجه إلى الاتحاد الأوروبي. وقد دشّن بوتين وأردوغان معاً انطلاق السلسلة الأولى في حفل أقيم في اسطنبول في 8 كانون الثاني/يناير 2020. وتعمل روسيا حالياً مع بلغاريا وصربيا والمجر فيما يتعلق بالسلسلة الثانية. ومع ذلك، فإن العقبات التنظيمية المتعلقة بتشريعات الاتحاد الأوروبي، وعدم اليقين بشأن حجم الغاز الروسي المتاح لخط الأنابيب الجديد، والعقوبات الأمريكية المحتملة، أدت إلى تجميد بناء ترك ستريم 2 (أو تيار البلقان)، وبالتالي توقف نقل الغاز الروسي عبر تركيا. ولا يزال العمل عليه جارياً.

في الوقت نفسه، ينظر صنّاع السياسة والخبراء الأتراك إلى الاعتماد على روسيا باعتباره تحدياً. فالأولوية هي لتنويع واردات الطاقة والتحول من مستهلك إلى بلد عبور أو حتى ملتقىً تجاري. إذ أصبح ممر الغاز الجنوبي الذي نوقش كثيراً، والذي يستغل الاحتياطي الموجود قبالة ساحل بحر قزوين الأذربيجاني، حقيقة واقعة مع خط الأنابيب العابر للأناضول، تاناب TANAP، إضافة إلى خط الأنابيب عبر البحر الأدرياتيكي تاب TAP، وهو امتداد خط تاناب إلى الاتحاد الأوروبي. وتم الكشف عن تاناب في حزيران/يونيو 2018، بينما بدأ تاب (في 2016 بسعة أولية 10 مليار متر مكعب) في تشرين الثاني/نوفمبر 2020. ويقوم ممر الغاز الجنوبي الآن بشحن الغاز الطبيعي من جنوب القوقاز وشمال العراق وآسيا الوسطى، وربما،

(1) التاريخ المستهدف للوحدة الأولى هو عام 2023، وهو الذكرى المئوية لتأسيس جمهورية تركيا.

الاحتياطيات البحرية الموسعة حديثاً في شرق البحر المتوسط[1]. ومن الجدير بالذكر أن تركيا وسّعت مشترياتها من الغاز الطبيعي المسال من موردين مثل الجزائر وقطر ونيجيريا أيضاً، بفضل الأسعار المميزة، إذ يتفوق الغاز الطبيعي المسال على غاز خطوط الأنابيب في أشهر معينة[2]. نتيجة لذلك، تقلصت واردات الغاز من روسيا بأكثر من الثلث في عام 2019 [3]. ومن المقرر أن تنتهي معظم الالتزامات طويلة الأجل مع شركة غازبروم بحلول عام 2025، ولا شك أن أنقرة ستستخدم الغاز الطبيعي المسال وغاز قزوين كورقة مساومة لانتزاع شروط أفضل بالنسبة لها[4].

يشير هذا التطور إلى أن الحصة الروسية في السوق التركية قد تتقلص أكثر في المستقبل. وعلى المنوال نفسه، فإن نمو مصادر الطاقة المتجددة وكذلك المشاكل الاقتصادية في تركيا يمكن أن يحد أيضاً من الطلب على الكهرباء ويطرح تساؤلاً حول إضافة وحدات جديدة إلى محطة أكويو النووية[5]. ومن المؤكد أن الركود في أعقاب جائحة كوفيد - 19 سوف يؤدي إلى انخفاض الطلب على الطاقة في السوق التركية، وبالتالي إلحاق الضرر بالشركات الروسية.

(1) تقع الحقول الرئيسية في المناطق الاقتصادية الخالصة في قبرص و«كيان» إسرائيل ومصر. عارضت تركيا عمليات الاستكشاف التي تمت بتكليف من قبرص، بحجة أنها تنتهك الحقوق السيادية للقبارصة الأتراك.

(2) استثمرت تركيا بشكل كثيف في القدرات. فقد دخلت الوحدة العائمة للتخزين وإعادة تحويل الغاز لحالته الموجبة (FSRU) حيز الخدمة في تموز/يوليو 2019. وهي تقع بالقرب من إزمير، على ساحل بحر إيجة التركي. يضاف ذلك إلى FSRU قبالة ساحل مقاطعة هاتاي، والتي بدأت العمل في شباط/فبراير 2018. تمتلك تركيا الآن خمسة منشآت لاستيراد الغاز الطبيعي المسال.

«Turkey's New LNG Storage, Regasifi cation Unit to Dock in İzmir Today,» Daily Sabah, July 5, 2019.

https://www.dailysabah.com/energy/201905/07//turkeys-new-lng-storage regasifi cation-unit-to-dock-in-izmir-today.

(3) ارتفعت المشتريات من أذربيجان بمقدار الثلث، ووصلت إلى 9.2 مليار متر مكعب، بينما ارتفع الغاز الطبيعي المسال من مجموعة متنوعة من الموردين، بما في ذلك الولايات المتحدة، إلى 11 مليار متر مكعب أو حوالي ربع جميع واردات الغاز الطبيعي.

(4) Eser Ozdil, «How Turkey Benefits from the Global LNG Glut,» Atlantic Council, May 7, 2020. https://www.atlanticcouncil.org/blogs/turkeysource/how-turkey-benefi ts-from-global-lng-glut/.

(5) In June 2019, Turkish authorities froze plans for a second nuclear power plant near the Black Sea city of Sinop.

أمن قارة أوروبا

تمتلك تركيا صلات بمناطق عديدة مثل روسيا تماماً. وبصرف النظر عن الشرق الأوسط، محور سياستها الخارجية منذ اندلاع الربيع العربي، إن لم يكن قبل ذلك، فإن لها روابط تاريخية واجتماعية وسياسية واقتصادية قوية مع القوقاز والبلقان أيضاً. ففي جنوب القوقاز، تعمل تركيا على إقامة تحالف ثلاثي مع جورجيا وأذربيجان، والذي سيكون له أبعاد دبلوماسية ودفاعية واقتصادية. ومن الأمثلة على ذلك خط سكة حديد باكو- تبليسي - كارس الذي تم افتتاحه في عام 2017، وكذلك خط أنابيب الغاز باكو - تبليسي - أرضروم وخط أنابيب النفط باكو - تبيليسي - جيهان. هذا التجمع هو شكل من أشكال التوازن الناعم ضد روسيا، وكذلك أرمينيا، الشريك الأقرب لروسيا في المنطقة[1]. وينطبق الشيء نفسه على شراكة تركيا المزدهرة مع أوكرانيا والتي لها أبعاد تجارية وأمنية (على سبيل المثال، تسليمها طائرات بدون طيار إلى كييف)؛ إذ يبلغ حجم المبيعات حوالي 4 مليارات دولار، كما وتوشك صفقة التجارة الحرة بين البلدين على الانتهاء، كما فعل الأتراك مع جورجيا ومولدوفا. ويدير العلاقات الثنائية مجلس تعاون استراتيجي رفيع المستوى، كما هو الحال مع روسيا.

ناغورنو كاراباخ هي نقطة ساخنة أخرى، حيث لا يزال التوتر محتدماً بين الأذريين والأرمن، بعد تصاعد الصراع في ربيع عام 2016 - بالتزامن مع المواجهة بين بوتين وأردوغان بشأن إسقاط طائرة سو-24 Su-24 على الحدود السورية. تجنبت روسيا وتركيا لاحقاً الانجرار إلى صراع عسكري محلي آخر.

ولكن بعد ذلك في أيلول/سبتمبر 2020، ظهر المزيد من المعارك الشرسة، حيث أرسلت تركيا – على نحو غير مسبوق - مرتزقة سوريين ومدربين عسكريين وطائرات بدون طيار، كما أرسلت، وفق الادعاءات، قواتها الجوية إلى الخطوط الأمامية. وقد كشفت هذه الحرب تضاؤل نفوذ روسيا في عقر ساحتها الخلفية، وعدم قدرتها على كبح جماح أرمينيا وأذربيجان، فضلاً عن الأهمية المحدودة للتحالف الدفاعي مع يريفان. وأدى وقف إطلاق النار بوساطة بوتين في 9 تشرين الثاني/نوفمبر إلى إدخال قوة حفظ سلام روسية قوامها ألفي جندي. وأقامت

---

(1) راقبت موسكو بقلق انفراج العلاقات بين تركيا وأرمينيا لفترة وجيزة بين عامي 2009 و2010 وبلغ ذروته في صفقة فتح الحدود التي ظلت دون تنفيذ. حسب ما نُقل من اتصال شخصي مع صانع سياسة تركي سابق نشط في ذلك الوقت.

تركيا بالاشتراك مع روسيا نقطة مراقبة عسكرية - وهي ليست إلا تمهيد لإقامتهما قواعد عسكرية دائمة في أذربيجان. حضر أردوغان موكب النصر في باكو، في شهادة على تعزيز العلاقات الأمنية التركية الأذرية. وسجلت تركيا في الوقت نفسه نقاطاً على حساب روسيا بفضل المكاسب الإقليمية التي حققها الأذريون. ومع ذلك، لا تنقض ناغورنو كاراباخ حقيقة أن أنقرة تتمتع بشكل عام بنفوذ أقل من موسكو في منطقة البحر الأسود[1].

ثمة حدود واضحة للمدى الذي يمكن لتركيا أن تستخدم فيه روابطها مع دول ما بعد الاتحاد السوفيتي حتى أثناء اللعب مع روسيا. وبالنظر إلى التعزيزات العسكرية الروسية في شبه جزيرة القرم المحتلة بعد عام 2014، وتحديث القواعد الروسية في أرمينيا (على مرمى حجر من الحدود التركية) ووجود روسيا في سورية، والعلاقة التركية المسمومة مع الولايات المتحدة، يبدو أن لدى تركيا مجالاً أقل للمناورة بفارق كبير عما كانت عليه في الماضي. وفي نهاية المطاف، يبقى الناتو أفضل بوليصة تأمين لدى أنقرة[2].

نتيجة

التاريخ والجغرافيا وضعا تركيا في تصنيف مختلف تماماً عن تصنيف دول الشرق الأوسط، فبالنسبة لروسيا. لا تعود العلاقات إلى قرون مضت فحسب، بل إن الجمهورية التركية اليوم هي أيضاً جار مباشر لروسيا على البحر الأسود، وكذلك في القوقاز، بطريقة ما. موسكو ليست جديدة في المنطقة. ولطالما كانت تؤثر بشكل كبير، حتى خلال فترة الانحدار والتراجع في التسعينات. وتقضي قواعد الجغرافيا السياسية أن تُدار هذه العلاقة بحذر، لا سيما في ظل علاقات تركيا المتناقضة مع الغرب. وكانت روسيا بدورها أفضل العارفين بتركيا بكونها حلقة ضعيفة في التحالف الغربي، وسوق مربحة، ومحاور مرن مع الشرق الأوسط.

ومع ذلك، لا ينبغي لأحد أن ينسى أن السياسة الخارجية التركية مدفوعة بشكل أساسي

---

(1) «Russia and Turkey in the Black Sea and the South Caucasus,» International Crisis Group, Europe and Central Asia Report no. 250, June 28, 2018. https://www.crisisgroup.org/europe-central-asia/western-europemediterranean/turkey/250-russia-and-turkey-black-sea-and-south-caucasus.

(2) تعمل تركيا على تحديث وتوسيع قواتها البحرية وتطوير خطط لقاعدة جديدة بالقرب من مدينة زونغولداك الساحلية على البحر الأسود، على بعد حوالي 100 ميل بحري شرق نقطة دخول البوسفور.

بدافع أحادي وتسعى إلى تحقيق التوازن بين موسكو والقوى الغربية وجيرانها في الشرق الأوسط. وبالتالي، من غير المرجح أن تترك أنقرة الناتو، وحتى لو تعرضت لعقوبات أميركية أشد. وفي سورية والمنطقة المحيطة بها، ستسعى تركيا لتعزيز علاقاتها مع الكرملين والغرب في سبيل ما تعتبره مصالحها الحيوية. والصفقة المبرمة بين أردوغان وترامب بشأن شمال شرق سورية هي مثال على ذلك. وبالمثل، حاولت تركيا إشراك حلفائها الغربيين في إدلب، حتى لو اقتضى الأمر التهديد بإطلاق موجة من اللاجئين إلى الاتحاد الأوروبي.

تعمل تركيا مع روسيا ولكنها تعمل أيضاً على التحوط ضدها. لذلك فإنه من السابق لأوانه إعلان ولادة مثلث تركي روسي إيراني قادر على استبدال الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط. كما أن الخلاف الداخلي المفضي إلى انقسام هذا الثلاثي إلى جانب تأثير اللاعبين الإقليميين الآخرين يؤدي إلى استبعاد مثل هذه النتيجة.

وللعلم، فإنه من المنظور الروسي لا يبدو لزواج المصلحة مع تركيا نتيجة سيئة. مع أنها قد تكون معيبة، فإن مثل هذه الشراكة هي انتصار جيوسياسي مثير للإعجاب بالنسبة لموسكو. فمن خلال استمالة تركيا واستغلال خلافاتها مع الحلفاء، عززت روسيا موقعها في الشرق الأوسط واكتسبت أفضلية في تنافسها مع الغرب.

الفصل 11

فهم العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي

ديمتري فرولوفسكي

شهدت العلاقات بين روسيا ومجلس التعاون الخليجي[1] تغيرات كبيرة على مدى العقدين الماضيين. ففي أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كان يشوبها بعض التوتر بل والتشاؤم أحياناً، ويرجع ذلك في جزء كبير منه إلى شك موسكو في أن ممالك الخليج تقدم الدعم للمتمردين الإسلاميين في شمال القوقاز. وفي منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، شهدت العلاقات تحسناً تدريجياً، مع بروز القضايا الاقتصادية إلى الواجهة، إلا أنها عادت لتواجه تحديات في عام 2011 بسبب أحداث الربيع العربي. وقد أدت مسرحية استعراض القوة الأخيرة في سورية وليبيا، وكذلك المبادرات الدبلوماسية والاقتصادية التي تم إطلاقها في جميع أنحاء الشرق الأوسط، إلى زيادة المشهد تعقيداً، لمحاولة روسيا تغيير الديناميات القائمة. لكن انهيار صفقة «أوبك «OPEC+ وانهيار أسعار النفط عقب ذلك، كشف أن العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي تفتقر إلى إضفاء الطابع المؤسسي القوي. وقد ظل هبوط أسعار النفط يهدد بتقويض الإنجازات الدبلوماسية التي تحققت في السنوات الماضية.

تطور مسار السياسة الروسية تجاه دول مجلس التعاون الخليجي

في التسعينيات، بعد الحملة العسكرية الروسية في شمال القوقاز، اتسمت العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي بكونها مثيرة للجدل. فقد اتهمت السلطات الروسية

(1) Charter of the Gulf Cooperation Council (GCC),» May 25, 1981.
https://www.fi les.ethz.ch/isn/1253471426/_GCC.pdf.

دول الخليج بتمويل الإرهاب الإسلامي في المنطقة[1]. ولكن بعد استعادة روسيا السيطرة على الوضع في الشيشان وعودة الانتعاش الاقتصادي في منتصف في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بدأت العلاقات في التحسن. وتوقف الكرملين عن رؤية المملكة العربية السعودية بأنها الراعي الأول للإرهاب الدولي، وقد زار ولي العهد الأمير عبد الله موسكو في أيلول/سبتمبر 2003 [2]. ومع ذلك، ظل نطاق العلاقات والتعاون الاقتصادي في أسواق الطاقة العالمية محفوفاً بالمخاوف المتبادلة.

ظهر الربيع العربي كتحدٍ آخر للعلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي. إذ اعتبر الكرملين أن انتفاضات عام 2011 وتغيير النظام العربي يضران بتحالفاته وشراكاته طويلة الأمد في المنطقة وبنفوذه الجيوسياسي كذلك[3]. فاحتمال الإطاحة ببشار الأسد سيُعرِّض روسيا لخطر فقدان موطئ قدمها الاستراتيجي الوحيد في الشرق الأوسط. كما ازداد قلق موسكو من انتشار مشاعر مناهضة الحكومات وتنامي الإسلام السياسي عبر دول آسيا الوسطى وصولاً إلى روسيا. وعلى المقلب الآخر، دعت كل من قطر والإمارات العربية المتحدة إلى إقامة منطقة حظر طيران فوق ليبيا، وظهرت الدوحة كخصم قوي لنظام الأسد، حيث ضخت عشرات ملايين الدولارات لتسليح المتمردين السوريين[4].

وقد أعلن الانتشار العسكري الروسي في سورية عام 2015 فتح صفحة جديدة للعلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي. فهذه الحملة سمحت لموسكو بتوسيع وجودها

(1) «Federalnaya Sluzhba Bezopasnosti Rossii Raspolagaet Dostovernoi Informatsiei o Putyah i Sposobah Finansovoi Podderzhki Voorujennyh Formirovanii Mezhdunarodnyh Terroristov, Voiuyuschih na Territorii Chechenskoi Respubliki [Federal Security Service of Russia Disclaims Reliable Information on the Ways and Methods of Financial Support for Armed Formations of International Terrorists in the Chechen Republic],» FSB.ru, May 19, 2000. http://www.fsb.ru/fsb/press/message/single.htm %21id %3D10340914 %40fsbMessage.html.

(2) «President Vladimir Putin Held Negotiations with Abdullah Ibn Abdul Aziz Al Saud, the Crown Prince of Saudi Arabia,» Kremlin.ru, September 2, 2003. http://en.kremlin.ru/events/president/news/29294.

(3) Alexey Malashenko, «Russia and the Arab Spring,» C arnegie Moscow Center, October 2013. https://carnegieendowment.org/fi les/russia_arab_spring2013.pdf.

(4) «How Qatar Seized Control of the Syrian Revolution,» Financial Times, May 17, 2013. https://www.ft.com/content/f2d9bbc8-bdbc-11e2–890a-00144feab7de.

في الشرق الأوسط وتأمين وصولها إلى أروقة السلطة داخل هذه المنطقة المهمشة، إلى حد ما، منذ ما قبل طرد أنور السادات للسوفييت من مصر. وعلى الرغم من الاتفاق الجديد في نيسان/أبريل، فقد كشف انهيار اتفاق «أوبك +» في آذار/مارس وعودة المنافسة الشديدة في أسواق النفط هشاشة هذه العلاقات. ولكن، وفي ضوء ما سبق، من المهم فهم دوافع العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي، وعلى وجه الخصوص، ماهية الغايات السياسية والاقتصادية التي يسعى الطرفان إلى تحقيقها.

روسيا ومجلس التعاون الخليجي: إضاءة على المنطقة

يعكس نهج الكرملين تجاه دول مجلس التعاون الخليجي رؤيته الكبرى للشرق الأوسط. فقد شكّل صعود الجهات الراديكالية غير الحكومية مثل داعش - أو ما يسمى بدولة الإسلام في العراق والشام - وغيرها من الجماعات المسلحة تهديداً مباشراً على حدود روسيا الجنوبية. ففي حين يراوح خطر داعش الآن عند أدنى مستوياته، إلا أنه لم يختف تماماً.

لقد سمح انعدام القدرة على التنبؤ بمسار إدارة ترامب لموسكو بملء الفراغ وتوسيع نفوذها في المنطقة. أضف إلى ذلك أن علاقات روسيا الراسخة مع القوى الإقليمية الكبرى، بما في ذلك مصر وإسرائيل وإيران وتركيا قد يسّرت لها لعب هذا الدور. ومن المرجح أن يساعد قرار نظام الأسد بتمديد عقد إيجار المنشآت العسكرية في طرطوس وقاعدة حميميم الجوية لمدة تسعة وأربعين عاماً أخرى روسيا على تشكيل الديناميات الجيوسياسية في الشرق الأوسط لعقود عديدة[1]. هذا ويسلط النفوذ الإيراني المتزايد عبر بلاد الشام وتشكيل ما يسمى بمحور المقاومة الضوء على مكانة روسيا كوسيط قوي وسط استمرار الانقسام السني الشيعي.

ترى روسيا أن لمجلس التعاون الخليجي أقساماً ثلاثة[2]، يتألف الأول من المملكة العربية

(1) «Russia to Extend Tartus and Hmeimim Military Bases in Syria,» Deutsche Welle, December 26, 2017. http://www.dw.com/en/russia-to-extend-tartus-and-hmeimim-military-bases-in-syria/a-41938949.

(2) Dmitriy Frolovskiy, «Chego Hotyat Drug ot Druga Rossia i Monarhii Zaliva» [What Russia and the Gulf Monarchies Want from Each Other],» Carnegie Moscow Center, August 27, 2017.
http://carnegie.ru/commentary/72897.

السعودية، القوة العظمى، إلى جانب أقرب حلفائها، البحرين والإمارات العربية المتحدة. فبينما تتخذ المنامة وأبو ظبي خطاً معتدلاً يتعارض بعض الأحيان مع الرياض، يعتمد كلاهما بشكل كبير على السعودية. أما القسم الثاني فيتألف من الكويت وعُمان اللتان تتشاركان سياسة الحياد. إذ عمل كل منهما جنباً إلى جنب لتعزيز الحلول الدبلوماسية فيما يخص حرب اليمن والخلاف بين المملكة العربية السعودية وقطر، وهما ما زالتا تعملان كفناء خلفي للتفاوض بين الرياض وطهران[1]. أما قطر، شبه الجزيرة الصغيرة والدولة الثرية في الخليج، والتي تشكل القسم الثالث والأخير. فقد أتاحت ثرواتها الهائلة من النفط والغاز لقياداتها انتهاج سياسة خارجية مستقلة وممارسة القوة الناعمة لإظهار تأثيرها الخارجي.

وما انفك نهج روسيا تجاه دول مجلس التعاون الخليجي يعكس اعتباراتها الاستراتيجية الخاصة، ويستغل سراً، الانقسامات داخل المجلس. فقد أعرب الكرملين عن التزامه بتعميق العلاقات مع الرياض، إبان زيارة الملك سلمان بن عبد العزيز التاريخية إلى موسكو في أكتوبر 2017 والزيارات اللاحقة التي قام بها ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، الحاكم الفعلي للبلاد. ومن ناحية أخرى، تسعى موسكو إلى الحفاظ على علاقات عمل جيدة مع قطر، خصم السعودية الإقليمي[2]. وتجلى ذلك في زيارة الأمير الشيخ تميم بن حمد آل ثاني إلى موسكو في مارس 2018 وتعميق العلاقات الدبلوماسية بين البلدين[3].

هذا وتحرص موسكو، من خلال انخراطها في علاقات مع كلا الجانبين، على الحصول على اعتراف دول مجلس التعاون الخليجي بروسيا «كوسيط نزيه»[4]. وقد حاول الكرملين لعب هذا

(1) Giorgio Cafi ero and Theodore Karasik, «Yemen War and Qatar Crisis Challenge Oman's Neutrality,» Middle East Institute, July 6, 2017.
http://www.mei.edu/content/article/oman-s-high-stakes-yemen.

(2) Holly Ellyatt, «Russia Rolls Out the Red Carpet for Saudi King with Billion-Dollar Deals on the Table,» CNBC, October 5, 2017.
https://www.cnbc.com/201705/10//saudi-king-visits-russia-as-billion-dollar-deals-on-the-table.html.

(3) «Qatari Emir in Russia to Discuss Syrian Crisis,» Al Jazeera, March 25, 2018.
https://www.aljazeera.com/news/201803 //qatari-emir-russia-discuss-syriancrisis-180325195253621.html.

(4) Dmitri Trenin, «Russia's Policy in the Middle East: Prospects for Consensus and Conflict with the United States,» The Century Foundation, March 2, 2010.
https://carnegieendowment.org/fi les/trenin_middle_east.pdf.

الدور بشكل ملحوظ في التصارع الخليجي على قطر (الذي تم حلّه أخيراً في عام 2021)، عندما فضّل عدم الانحياز إلى أي طرف وحثّ الأطراف المتنازعة على إزالة الجمود من خلال الحوار، مُسلطاً الضوء على المخاوف المشتركة بشأن الاستقرار الإقليمي[1]. فعندما اندلعت الأزمة، أشار وزير الخارجية سيرغي لافروف إلى أن نية موسكو كانت البقاء غير متورطة قائلاً: «إنها علاقات ثنائية بين الدول. ونحن لا نتدخل في مثل هذه القرارات»[2].

تتمثّل الأولوية الرئيسية للكرملين في الحد من دعم دول مجلس التعاون الخليجي المزعوم للجماعات الإسلامية المتشددة في جميع أنحاء المنطقة ومن معارضتها لنظام الأسد. ورغم رفض المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وقطر طلب دمشق [إعادة] الانضمام إلى جامعة الدول العربية (رغم تراجع الأولى عن موقفها)، لا تزال موسكو تأمل في حصولها منهم على دعم مالي لإعادة الإعمار بعد انتهاء الصراع. وهذا الهدف يستوجب التعامل مع أكثر اللاعبين صلابة مثل قطر والمملكة العربية السعودية. وتأمل موسكو أنه في ضوء إعادة إعمار سورية وتقسيمها إلى مناطق نفوذ تهيمن عليها القوى الكبرى المشاركة في الصراع - روسيا وإيران وتركيا - ستحظى مصالح ومطالب الكرملين بثقل إضافي. وفي إطار استراتيجيتها لتحقيق هذا الهدف فهي تعطي الأولوية لتطبيق الدبلوماسية القسرية تجاه دول مجلس التعاون الخليجي.

موسكو منشغلة أيضاً بالتعامل مع سكانها المسلمين في الداخل الميالين نحو التطرف والذين يتزايد عددهم بسرعة[3]. وتربط روسيا تنامي هذا الفكر الإسلامي غير التقليدي بالتمويل الأجنبي، بما في ذلك من دول مجلس التعاون الخليجي، والذي يهدد بإثارة نعرات التمرد والتطرف الديني. وقد يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي ومسار التعافي الشائك بعد انتهاء

(1) Leonid Issaev, «Russia and the GCC Crisis,» A l Jazeera, June 13, 2017. https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/201706//russia-gcc-crisis-170613073826800.html.

(2) «Lavrov Prokommentiroval Diplomaticheski Skandal Vokrug Katara [Lavrov Commented on the Qatari Diplomatic Scandal],» RIA Novosti, June 5, 2017. https://ria.ru/world/201706051495842179/.html.

(3) Alexey Malashenko, «Islamic Challenges to Russia, From the Caucasus to the Volga and the Urals,» American Enterprise Institute, May 13, 2015.
http://carnegie.ru/201513/05//islamic-challenges-to-russia-from-caucasus-to-volga-and-urals-pub-60334.

السياسات التقييدية لكوفيد-19 إلى تحفيز هذا التطرف وتأجيج المشاعر المناهضة للحكومة. وبالمثل فإن هذا القلق يحفز روسيا على السعي لإقامة علاقات تعاون ودية مع المراكز الإسلامية الرئيسية في أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك تلك الموجودة في دول مجلس التعاون الخليجي، لبناء الثقة مع الدول العربية السنية.

وقد لاقت جهود روسيا نجاحاً جزئياً في هذا المسعى؛ إذ يُظهر استطلاع موقع زوغبي البحثي Zogby أن روسيا شهدت ارتفاعاً ملحوظاً في شعبيتها منذ عام 2016، بمتوسط أعلى بـ 13 % في 2018. ولكن، في الخليج، كان نجاحها مختلطاً؛ فقد زادت شعبية روسيا في السعودية بنسبة 30 % ولكنها تراجعت بنسبة 20 % في الإمارات[1].

ومع ذلك، وبالنظر إلى المستوى التالي من الخيارات للشركاء الموثوق بهم على مدى السنوات العشر المقبلة، تحتل روسيا المرتبة الثانية في المملكة العربية السعودية بنسبة 29 %[2]. ووفقاً لاستطلاع آخر أُجري في عام 2018، وقد احتوى أكبر عينة رأي عام بين الشباب في الشرق الأوسط، تغدو روسيا بشكل متزايد أكبر حليف غير عربي، حيث رأى 20 % أنها أفضل صديق للمنطقة. ومع ذلك، فإن غالبية الشباب العربي لا ينظرون إلى روسيا على أنها نموذج يحتذى به. بينما تحتفظ الدول الغربية الغنية والمتقدمة (كندا والولايات المتحدة وألمانيا) بموقعها كالأكثر جاذبية[3]. ووفقاً لاستطلاع زوغبي، تم تصنيف روسيا على أنها، بالنسبة للعرب، اللاعب الدولي الأقل أهمية ليحسن العرب علاقاتهم معه في العقد المقبل[4].

كما أن لنفوذ روسيا الاقتصادي الضعيف تأثير على استراتيجيتها تجاه دول مجلس التعاون الخليجي.

هذا ويزيد اقتصاد موسكو المتعثر إلى جانب افتقارها للاستثمارات الأجنبية رغبتها في البحث عن مصادر تمويل جديدة. فروسيا، في الواقع، مستعدة لممارسة القوة الصلبة

(1) Zogby Research Services, «Middle East Public Opinion 2018,» December 11, 2018. https://www.zogbyresearchservices.com/new-gallery-71.

(2) Zogby Research Services, «Looking to the Next Decade,» November 2019. http://www.zogbyresearchservices.com/s/2019-SBY-standalone.pdf.

(3) ASDA'A Burston-Marsteller, «Arab Youth Survey,» 2018. http://www.arabyouthsurvey.com/fi ndings.html.

(4) Zogby Research Services, 2019.

واستغلال المخاطر الأمنية المحتملة على دول مجلس التعاون الخليجي للحصول على مكاسب اقتصادية[1]. وقد يؤدي انخفاض دخل النفط والقدرة المحدودة على الاقتراض من الخارج بسبب العقوبات الغربية إلى جانب تأثيرات كوفيد-19 إلى مفاقمة المصاعب الاقتصادية في روسيا وظهور تداعيات سياسية. ومع تنامي سياسات التحفظ المالي في منطقة الخليج والتي قد تؤدي إلى انخفاض كبير في الاستثمارات الأجنبية، بما في ذلك مع روسيا، قد تكون موسكو حريصة على الدخول في مشاريع أجنبية في الشرق الأوسط من أجل دعم أسعار النفط وجذب التدفقات المالية من منطقة الخليج.

ومع تزعزع دول الخليج نتيجة استمرار الخلافات الداخلية وتراجع عائدات النفط في الآونة الأخيرة، فإنها لا تستطيع إنكار نجاح استراتيجية موسكو. فهم ينظرون إلى روسيا على أنها قوة متدهورة تسعى جاهدة للحفاظ على حصتها في سوق الهيدروكربونات، وتعتمد بالتالي على القوة الصلبة لتأمين أهدافها. وتُبقي الأنظمة الملكية الخيارات الجيوسياسية مفتوحة، في ضوء المنافسة الإقليمية الأوسع مع إيران والتي قد تزداد حدة بسبب الضغط الأمريكي والحالة السيئة في طهران. فبالنسبة لهم، تُعد موسكو خصماً ووسيطاً في آن معاً. لذلك ترى مجموعة دول مجلس التعاون الخليجي في التبادل والانفتاح الدبلوماسي المستقر الخيار الأفضل، وقد لبت هذه السياسة، حتى الآن، احتياجاتها بشكل جيد. وعلاوة على ذلك، فهم يقرون بشكل عملي بأن روسيا لن تبادر بتغيير مسارها الاستراتيجي جذرياً في سورية وجميع أنحاء الشرق الأوسط ما لم تتسبب الأضرار الاقتصادية الجسيمة بسبب فيروس كورونا المستجد كوفيد-19 في اندلاع أزمة سياسية شاملة.

روسيا والسعودية: بواعث التقارب

من بين دول مجلس التعاون الخليجي، يولي الكرملين الأهمية الأكبر للعلاقات مع المملكة العربية السعودية. ففي عام 1926، كانت روسيا البلشفية من أوائل المعترفين بقيام بالمملكة

(1) Theodore Karasik, «Why Is Qatar Investing so Much in Russia?,» Middle East Institute, March 8, 2017.
http://www.mei.edu/content/article/why-qatar-investing-so-muchrussia; Frank Kane, «'Reset' for Russian-GCC Trade Relations, but Still a Long Way to Go,» Arab News, June 4, 2017.
http://www.arabnews.com/node/1110241.

العربية السعودية بعد أن وحّد آل سعود مملكة الحجاز وسلطنة نجد. وفي عشرينيات القرن الماضي، حاول السوفييت فتح سوقه المحلي للنفط والمنتجات الزراعية القادمة من الخليج. أما سياسياً، فقد سعو جاهدين للتغلب على الإمبراطورية البريطانية وإنشاء جسر دبلوماسي لمدّ نفوذهم إلى جميع أنحاء الشرق الأوسط[1]. أما اليوم، فموسكو تعتبر الرياض لاعباً إقليمياً رئيسياً بفضل وجود الأماكن الإسلامية المقدسة على أراضيها، والأهم من ذلك، وجود احتياطيات الهيدروكربونات وتأثيرها على أسواق الطاقة في جميع أنحاء العالم. كما تعترف الرياض أيضاً بروسيا كلاعب أساسي في مجالات الأمن والطاقة[2]. وتسعى في المقابل إلى استخدام ثروة الطاقة لديها واستثماراتها القوية كورقة وازنة للمساومة.

وينظر السعوديون إلى علاقات روسيا الوثيقة مع طهران وبشار الأسد على أنها تهديد للمصالح الوطنية. كما يرون أن موسكو تفتقر إلى القدرة على منع إيران من ترسيخ نفسها في بلاد الشام. لذلك لا يمكن لروسيا إلا أن تكون بمثابة وسيط فعال إذا ما تصاعد التوتر السني والشيعي. وفي المقابل، تقر روسيا بأن السعودية لا تزال أحد الحلفاء الرئيسيين للولايات المتحدة في المنطقة. وتعتقد أن لنظامها ما يكفي من القوة لتحمل الاضطرابات الاقتصادية والسياسية على الأقل خلال العقد المقبل. ويؤكد عدم تطابق هذه التصورات على وجود قيود أمام التقارب، والذي إنْ حدث فإنه سيهيئ المشهد لمشاركة محدودة ولكن مثمرة للغاية في المجالات التي تتلاقى فيها المصالح، من دون استبعاد احتمال حدوث مشاحنات عرضية.

ويشير صعود ولي العهد الأمير محمد بن سلمان المرتقب إلى العرش إلى أن التغيير قد يكون وشيكاً. بالنظر إلى معدلات البطالة المرتفعة بين الشباب (والتي تصل حالياً إلى 6.32 %)، والفساد المستشري، والتوترات الطائفية في المنطقة الشرقية الغنية بالنفط، وأكثر من ذلك، فمن الواضح أن هناك حاجة ماسة للتغيير من أجل بقاء النظام. فمن المرجح أن تجف احتياطيات الرياض النفطية في غضون سبعين عاماً، مما يضع تحدياً طويل الأمد أمام

(1) Vitaliy Naumkin, Nesostoyavsheesya Partniorstvo. Sovetskaya Diplomatya v Saudovskoi Araviy mezhdu Mirovymi Voynami [Failed Partnership. Soviet Diplomacy in Saudi Arabia between World Wars] (Moscow: Aspekt Press, 2018), 130, 142, 207.

(2) Evelina Zakamskaya, «Glava MID Saudovskoi Aravii ob Otnosheniyah c Rossiei [Head of the Ministry of Foreign Affairs of Saudi Arabia Talks about Relations with Russia],» Russia 24-Mnenie, October 7, 2017.
https://www.youtube.com/watch?v=VsItopYU-M0.

المملكة[1]. هذا وتكشف ممارسات القمع المتزايد، واعتقال أفراد العائلة المالكة، وغياب التحسن الاقتصادي والاجتماعي الملحوظ، أن ولي العهد كان أكثر اهتماماً بتعزيز سلطته، من خلال استثارة القوميات المحلية. وهذا يعني أن النظام في المستقبل القريب سيصبح أكثر مركزية وقمعاً، مع تأثير السياسة الخارجية بشكل مباشر على الشؤون الداخلية.

وتدفع تلك المخاوف السعودية للتقرب من روسيا. ويعتمد نجاح المبادرة الإصلاحية التي تسمى «رؤية السعودية 2030» وضمان الاستقرار الداخلي على استمرار الأمن والسلام على المدى القصير[2]. وذلك يعني التعاون مع روسيا باعتبارها الوسيط الإقليمي المُعلن من جانب واحد والقوة المتدهورة العدوانية.

ويبدو أن بوتين ومحمد بن سلمان قد طوّرا نوعاً من العلاقات الودية، مما أدى لمزيد من التعاون بين الدولتين. ولكن، لربما أثر انهيار اتفاق أوبك+ في آذار/مارس 2020 سلباً على هذه العلاقة. إذاً فمن خلال الشراكة الدبلوماسية، التي تعتمد إلى حدٍ كبير على العلاقات الشخصية الإيجابية، يمكن لكلا الزعيمين، بصفتهما تاجرين ماهرين، الاستمرار في الانفتاح البراغماتي وتقليل الاحتكاكات. ويشير إحياء صفقة أوبك+ في نيسان/أبريل 2020 تماماً إلى ذلك. ولكن من الصعب التكهن بكيفية تتطور العلاقات بين الزعيمين، لأن أنماط التبادل الثنائي تفتقر إلى الطابع المؤسسي وتكون عادةً عرضة للاضطرابات.

(1) «Unemployment, Youth Total (percent of total labor force ages 15–24) (modeled ILO estimate),» data from World Bank.
https://data.worldbank.org/indicator/SL.UEM.1524.ZS; «Corruption Perceptions Index 2017,» Transparency International.
https://www.transparency.org/news/feature/corruption_perceptions_index_2017;Frederic Wehrey, «The Forgotten Uprising in Eastern Saudi Arabia,» Carnegie Endowment for International Peace, June 14, 2013.
http://carnegieendowment.
org/201314/06//forgotten-uprising-in-eastern-saudi-arabia-pub-52093; John Kemp, «Saudi Arabia's Oil Reserves: How Big Are They Really?,» Reuters, July 11, 2016.
https://www.reuters.com/article/us-saudi-oil-kemp/saudi-arabias-oil-reserves-how-big-are-they-really-kemp-idUSKCN0ZL1X6.

(2) Saudi Vision 2030, «Our Vision: Saudi Arabia, the Heart of the Arab and Islamic Worlds, the Investment Powerhouse, and the Hub Connecting Three Continents.» http://vision2030.gov.sa/en.

هذا وقد شاب العلاقات الروسية السعودية بعض الخلافات. فلكلا البلدين وجهات نظر مختلفة بشأن اليمن والحصار المفروض على قطر. ومع ذلك، لا تمنع هذه الخلافات قيام تعاون محدود بين قادة البلدين. وتؤكد دبلوماسية الكرملين الاستباقية، واستراتيجية عدم الانحياز التي اتبعها في كل من قطر واليمن، على مصالح روسيا الخاصة، كما أنها تُعد إشارة قوية على الاعتراف بسياسة الرياض الخارجية. والأمر ذاته يسري على المملكة العربية السعودية.

إذ ينظر صنّاع السياسة في الرياض إلى روسيا باعتبارها شريكاً إقليمياً لإيران. وما تزال السعودية تخسر الأرض أمام الجهات الفاعلة الموالية لإيران في أنحاء بلاد الشام، كما تجد نفسها متورطة أيضاً في اليمن. وبالنسبة للسعوديين، فمن المهم جذب موسكو إليهم وإبعادها عن طهران[1]. وفي الوقت نفسه، تتمتع كل من روسيا والمملكة العربية السعودية بعلاقات جيدة مع مصر وتؤيدان ادعاء الرئيس عبد الفتاح السيسي بمحاربته الإرهاب. وللبلدين أيضاً في وجهات نظر متشابهة إلى حد كبير حول ليبيا حيث يتحالفان مع الجنرال خليفة حفتر.

قد تساعد علاقات موسكو الجيدة مع الرياض في تخفيف معارضة السعودية للأسد. فمع اقتراب انتهاء الصراع على الأراضي السورية وسعي موسكو فعلياً لوقف الصراع، تلوح في الأفق مرحلة إعادة الإعمار ما بعد الصراع[2]. وتحتاج روسيا إلى تأمين حياد الرياض من أجل تجنب تعطيل العملية من قبل الفصائل المناهضة للأسد. وتأمل روسيا أيضاً الحصول على تأييد لتسويتها السياسية في المستقبل، ولكن غير معلوم حتى الآن كيف وبأي ثمن يمكن لموسكو أن تحصل على مثل هذا الدعم من الرياض.

في عام 2018، وصلت نسبة المواطنين الروس الذين يسافرون إلى السعودية لأداء مناسك الحج إلى 20500 ومثلها في عام 2019[3]. ويعتبر هذا الكم من الحجاج الأعلى في تاريخ

(1) David Ignatius, «A Young Prince Is Reimagining Saudi Arabia: Can He Make His Vision Come True?,» Washington Post, April 20, 2017.
https://www.washingtonpost.com/opinions/global-opinions/a-young-prince-reimagines-saudi-arabia-can-hemake-his-vision-come-true/201720/04//.

(2) Sune Engel Rasmussen, «In Syria, Foreign Powers' Scramble for Influence Intensifies,» W all Street Journal, February 28, 2018.
https://www.wsj.com/articles/in-syria-foreign-powers-scramble-for-infl uence-intensifi es-1519817348.

(3) «V 2019 Hadj Sovershat 20,5 tysyachi Rossiskih Musulman [In 2019, 20.5 thousand Russian Muslims Will Make the Hajj],» ITAR-Tass, January 16, 2019. https://tass.ru/obschestvo/6007479.

روسيا. وللمملكة أيضاً نصيبها من التبدلات. ففي عامي 2018 و2019، حضر منتدى سان بطرسبرغ الاقتصادي الدولي SPIEF أكبر وفد سعودي على الإطلاق عبر سنوات تاريخ هذا البلد البالغة 23 عاماً[1].

ومن أجل تحسين علاقاتها مع روسيا لجأت المملكة العربية السعودية إلى الدبلوماسية الاقتصادية. فخلال زيارة الملك سلمان إلى موسكو في تشرين الأول/أكتوبر 2017، أفاد المسؤولون الروس بأن الرياض تخطط للاستثمار في أكثر من خمسة وعشرين مشروع مختلف في البلاد[2]. وينبغي إيلاء اهتمام خاص لتطوير الشراكة بين صندوقين سياديين: صندوق الاستثمار المباشر الروسي RDIF وصندوق الاستثمار العام السعودي PIF. وتمّ الكشف عن هدف هذا التعاون في أعقاب زيارة العاهل السعودي لروسيا، ألا وهو إنشاء أداة جديدة للاستثمار في قطاع الطاقة[3]. وقبل رحلة الملك سلمان بعامين، تم التوافق على صفقة بين صندوق الاستثمارات العامة وصندوق التنمية الريفية للاستثمار المشترك بقيمة 10 مليارات دولار في مشاريع البنية التحتية إلى جانب مشاريع أخرى[4]. وكانت نية روسيا استخدام RDIF كوسيلة للمشاركة في الاكتتاب العام الأولي IPO [5] لأسهم شركة أرامكو السعوديةSA، والذي أجرته السلطات السعودية في كانون الأول/ديسمبر 2019. وفي شباط/فبراير 2019، اتفقت كل من RDIF وSA على شروط الاستثمار الرئيسية في

(1) «SPIEF 2018 to be Attended by Biggest Saudi Delegation in Forum's History,» Russian Exports National Information Portal, March 27, 2018. http://www.rusexporter.com/news/detail/5286/.

(2) «Saudovskaya Araviya Investiruet v Bolee Chem 25 Rossiiskih Proektov [Saudi Arabia Will Invest in More Th an 25 Projects in Russia],» RIA Novosti, October 4, 2017. https://ria.ru/economy/20171004150621350 2/.html.

(3) «RDIF, PIF and Saudi Aramco Announce the Establishment of a New Platform for Russian-Saudi Energy Investment,» Russian Direct Investment Fund, October 5, 2017. https://rdif.ru/Eng_fullNews/2660/.

(4) Kathrin Hille, «Saudi Sovereign Fund to Invest $10bn in Russia,» Financial Times, July 6, 2015. https://www.ft.com/content/0205a0d611-2412-e5-bd83–71cb60e8f08c.

(5) Darya Korsunskaya and Polina Nikolskaya, «Russian Fund Builds Investors Pool for Saudi Aramco IPO,» Reuters, February 15, 2018. https://www.reuters.com/article/us-russia-sarabia-novatek/russian-fund-builds-investors-pool-for-saudi-aramco-ipo-idUSKCN1FZ0PV.

مجموعة نوفوميت Novomet، أحد أكبر مطوري ومنتجي المعدات الغاطسة لصناعات النفط في روسيا[1]. ووفقاً للجانب الروسي، تم بين عامي 2015 و2019 استثمار أكثر من 2.5 مليار دولار في مشاريع مشتركة[2] بموجب اتفاق صندوقَي RDIF وPIF. وفي عام 2018، وافقت شركتا Novatek PJSC وSA على التعاون في مشروع الغاز الطبيعي المسال LNG-2 السابق بقيمة 20 مليار دولار في القطب الشمالي. وعلى الرغم من التقارير التي أفادت بفشل المفاوضات، كررت أرامكو تأكيد اهتمامها وأكدت استمرار عرضها مع الجانب الروسي[3]. هذا ويؤدي اهتمام الرياض بتقليل اعتماد قطاع الطاقة المحلي على النفط الخام من جهة، وسعي روسيا لتعزيز صادراتها من الغاز الطبيعي المسال من جهة أخرى، إلى تعميق التعاون بشكل أكبر.

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2019، أُستقبل بوتين في الرياض استقبالاً حافلاً، فقد رافق موكبه القادم من المطار ستة عشر خيال عربي. وأشرف خلال زيارته تلك على توقيع حوالي عشرين اتفاقية ثنائية، بما في ذلك بين RDIF وPIF، بقيمة تزيد عن 2 مليار دولار. ومع ذلك، فإن انهيار اتفاق أوبك + في آذار/مارس 2020 والاتفاقية الجديدة في نيسان/أبريل بسبب تدخل ترامب قد يلغي جميع الإنجازات السابقة ويوقف أو يحد من قيام المزيد من التعاون الاقتصادي.

روسيا وقطر: أقرب بقليل

لطالما شابت العلاقات بين روسيا وقطر بعض التقلبات. إذ تتعامل الدوحة وموسكو مع بعضهما كمتنافسين رئيسيين في سوق الغاز العالمي، كما أن هناك خلافات خطيرة

(1) «RDIF and Saudi Aramco Agree Terms of Investment in Novomet,» Russian Direct Investment Fund, February 20, 2019.
https://rdif.ru/Eng_fullNews/3943/.

(2) Henry Meyer and Ilya Arkhipov, «Saudis, Russia Fund to Sign $2 Billion in Deals During Putin's Visit,» Bloomberg, October 10, 2019.
https://www.bloomberg.com/news/articles/201910-10-/saudis-russia-fund-to-sign-2-billion-deals-during-putin-visit.

(3) «Falih: Saudi Aramco Extends Off er to Buy Stake in Arctic LNG 2,» Reuters, June 10, 2019.
https://www.reuters.com/article/lng-novatek-saudi-aramco/falih-saudi-aramco-extends-offer-to-buy-stake-in-arctic-lng-2-tass-idUSR4N23D08Z.

تتعلق بنظام بشار الأسد في سورية[1]، تقدّر موسكو استقلال تلك الإمارة الغنية عن السعوديين وسياستها الخارجية البراغماتية. وتقدّر القيادة القطرية في المقابل الطموحات الجيوسياسية المتزايدة لروسيا، ومع ذلك فهي تنظر إليها أيضاً على أنها قوة متراجعة ونظام استبدادي مارق. إذاً يتشارك البلدان عقليةً براغماتيةً ودرجةً معينةً من التشابه الفكري.

هذا ولم يخلو ماضيهما القريب من المشاكل. فلا تزال قطر مقتنعة بأن روسيا كانت وراء اغتيال الرئيس السابق لجمهورية الشيشان الانفصالية زليمخان ياندربابييف عام 2004، والذي قُتل في الدوحة[2]. وبعد أن ألقت سلطات إنفاذ القانون القطرية القبض على الجناة، تبيّن أنهم من مواطني روسيا الاتحادية، ولكنها سلمتهم بعد ذلك إلى موسكو لتجنب المشاكل. وقد عادت العلاقات الثنائية لتشهد توتراً في أعقاب حادثة السفير الروسي فلاديمير تيتورينكو في مطار الدوحة في عام 2011؛ عندما تم الاعتداء على السفير بعد أن زُعم أنه رفض إطلاع المسؤولين الأمنيين على البريد الدبلوماسي الذي بحوزته. وردّاً على ذلك، خفضت روسيا العلاقات الدبلوماسية بشكل مؤقت. وكان السفير قد أدلى بتصريحات داعمة للنظام السوري في وقت سابق[3].

تتمتع الدوحة بأصول وثروات متنوعة لحماية نفسها وإبراز نفوذها الإقليمي؛ إذ تستضيف البلاد قاعدة العيديد الجوية، وهي واحدة من أكبر المنشآت العسكرية الأمريكية في الخارج.

(1) Dmitriy Frolovskiy, «Russia and Qatar: The Middle East's Newest Pragmatic Friendship?» J erusalem Post, April 1, 2019.
https://www.jpost.com/Opinion/Russia-and-Qatar-The-Middle-Easts-newest-pragmatic-friendship-585461.

(2) Steven Lee Myers, «Qatar Court Convicts 2 Russians in Top Chechen's Death,» New York Times, July 1, 2004.
http://www.nytimes.com/200401/07//world/qatarcourt-convicts-2-russians-in-top-chechen-s-death.html.

(3) «Russia Withdraws Envoy to Katar After Attack,» Reuters, December 5, 2011.
https://af.reuters.com/article/commoditiesNews/idAFL3E7N535820111205; «Rossiai Qatar Ssoriatsya iz-za Rukoprikladstva [Russia and Qatar Are Quarrelling over a Physical Fight],» Interfax, December 5, 2011.
http://www.interfax.ru/russia/220228.

كما تضيف ثرواتها الهيدروكربونية وشبكة تلفزيون الجزيرة لقطر المزيد من النفوذ[1]. أضف إلى ذلك، دعم الدوحة لجماعة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية الأخرى. إلا أن الحملة العسكرية الروسية في سورية أحبطت طموحات الدوحة الإقليمية وحفّزت قيام انفتاح دبلوماسي واقتصادي أكثر نشاطاً مع موسكو.

ورغم أن موسكو التزمت الحياد فيما يتعلق بالخلاف الخليجي حول قطر، فقد أعرب المسؤولون الروس عن استعدادهم لزيادة إمدادات الغذاء إلى الدوحة لتخفيف الحصار الذي تفرضه المملكة العربية السعودية وحلفاؤها[2]. وقد أعربت القيادة القطرية عن تقديرها لروسيا. وأدت زيارتا الأمير الجديد الرسميتان، الشيخ تميم بن حمد آل ثاني، إلى موسكو في عامي 2016 و2018، واتصالاته الهاتفية المنتظمة مع فلاديمير بوتين، إلى دفع العلاقات الثنائية في مسار تصاعدي. وفي آذار/مارس 2019، زار وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف قطر أيضاً متجاهلاً الحصار المستمر من خلال انتقاله مباشرة من الدوحة إلى الرياض[3]. في الواقع، نأت روسيا بنفسها عن هذين المعسكرين المتنافسين داخل دول مجلس التعاون الخليجي، وأبدت استعدادها للحوار مع جميع الأطراف، وبذلك اعترفت ضمنياً بمأزق قطر.

ونظراً لتطلع روسيا لجذب الأموال الأجنبية لتعزيز اقتصادها المتعثر، فلربما تلجأ إلى قطر[4]. وقد صرّح سفير قطر في موسكو فهد بن محمد العطية لشبكة **Bloomberg** في آذار/

(1) Dmitriy Frolovskiy, «Seryi Kardinal Blizhnego Vostoka. Kak Malenkii Qatar Pokoril Bolshoi Region [Eminence Grise of the Middle East. How Small Qatar Conquered the Giant Region],» Carnegie Moscow Center, May 11, 2017. http://carnegie.ru/commentary/69917.

(2) «Rossia Gotova Narastit Postavki Prodovolstviya v Qatar [Russia Is Ready to Increase Food Supplies to Qatar],» ITAR-Tass, June 8, 2017.
http://tass.ru/ekonomika/4323794; Kinninmont, Jane. «The Gulf Divided: The Impact of the Qatar Crisis.» Middle East and North Africa Programme, Chatham House, May 2019.
https://www.chathamhouse.org/sites/default/files/publications/research/201930--05-Gulf%20Crisis_0.pdf.

(3) «Russian Foreign Minister Sergey Lavrov to Hold Talks in Qatar,» Al Jazeera, March 3, 2019.
https://www.aljazeera.com/news/201903//russian-foreign-minister-sergeylavrov-hold-talks-qatar-190304070458781.html.

(4) Mohammed Sergie, «The Tiny Gulf Country with a $335 Billion Global Empire,» Bloomberg, January 11, 2017.
https://www.bloomberg.com/news/articles/201711-01-/qatar-sovereign-wealth-fund-s-335-global-empire.

مارس 2019: «نحن نرى الاقتصاد الروسي مستقراً وإمكانات النمو هائلة»[1]. ورغم هذا الإعلان المتفائل واستعداد الدوحة المعلن للاستحواذ على حصة تصل إلى 25 % في مطار Vnukovo الدولي في موسكو، ثالث أكبر عقدة وصل في روسيا، يبقى مخزون الاستثمارات القطرية في روسيا متواضعاً نسبياً. إذ تُقدر قيمة الأصول الإجمالية لجهاز قطر للاستثمار في روسيا بأكثر من 2.5 مليار دولار[2]. هذا الاستثمار منخفض إلى حدٍ ما مقارنةً بشركاء قطر التجاريين من أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية وشرق آسيا. وفي حالة روسيا، يبدو أن الدوحة تستخدم الاستثمار كعامل إضافي أو أداة داعمة في خدمة الدبلوماسية.

تعد كل من روسيا وقطر من أكبر مصدري الغاز الطبيعي المسال في العالم، ومنذ وقت قريب بدأتا بالتعاون بشكل أكبر في إطار منتدى الدول المصدرة للغاز GECF. ولكن لا يزال دور المنتدى رمزيٌ إلى حدٍ كبير. وكان هناك المزيد من النتائج الإيجابية في مجال النفط. إذ أصبحت الدوحة تملك حصة 5.19 % في شركة Rosneft PJSC بعد أن أعلنت شركة CEFC Energy Co الصينية المتعثرة عدم اعتزامها المضي في الصفقة الأصلية[3]. وفي عام 2019، كشفت التسريبات عن المنطق السياسي الخفي الكامن وراء الصفقة: وادّعت المصادر أن جزءاً كبيراً من هذا الاستحواذ الروسي مُوّل من قبل VTB، وهو بنك روسي مملوك للدولة، وكان ذلك عبر خطة قروض معقدة لجهاز قطر للاستثمار[4]. ومع كل ذلك، فإن التعاون في مجال الطاقة آخذٌ في التمدد تدريجياً إلى مجالات أخرى. فخلال زيارة أمير قطر لروسيا في

(1) Henry Meyer, «Qatar Seeks More Russian Deals After 'Great' Rosneft Investment,»Bloomberg, March 11, 2019.
https://www.bloomberg.com/news/articles/201911-03-/qatar-seeks-more-russia-deals-After -great-rosneft -investment.

(2) Theodore Karasik, «Why Is Qatar Investing so Much in Russia?,» Middle East Institute, March 8, 2017.
http://www.mei.edu/content/article/why-qatar-investing-so-much-russia.

(3) Jack Farchy and Neil Hume, «Glencore and Qatar Take 19.5 percent Stake in Rosneft,» F inancial Times, December 10, 2016.
https://www.ft.com/content/d3923b08-bf0911-e6–9bca-2b93a6856354.

(4) Voronova, Tatiana. «Exclusive: Russian State Bank Secretly Financed Rosneft Sale After Foreign Buyers Balked.» Th omson Reuters, November 9, 2018.
https://www.reuters.com/article/us-rosneft-privatisation-exclusive/exclusive-russian-state-bank-secretlyfinanced-rosneft -sale-After -foreign-buyers-balked-idUSKCN1NE132.

مارس 2018، وقعت Rosneft ومؤسسة قطر اتفاقية تعاون في مجال العلوم والتعليم[1]. وفي غضون ذلك يستمر التبادل الاقتصادي والسياسي بينهما في النمو. إذ كان من المقرر أن تحضر قطر منتدى SPIEF في عام 2020 بصفتها ضيفاً رئيسياً[2]. ولكن أدى إلغاء الفعالية بسبب جائحة فيروس كورونا إلى تأجيل مشاركة قطر حتى عام 2021.

وبدورها ألغت الدوحة متطلبات تأشيرة الدخول للمواطنين الروس في عام 2017 على أمل زيادة عدد السياح[3]. وفي أوائل عام 2018 افتتحت الدوحة مكتب تمثيلي لهيئة السياحة القطرية في موسكو؛ كما تم إعلان عام 2018 عام الثقافة القطري الروسي[4]. ومع ذلك، تظل مستويات التبادل الثقافي والسياحة غير كافية للتأثير على العلاقات الثنائية، ومن المرجح أن تظل على المستوى نفسه.

روسيا والإمارات العربية المتحدة: الدبلوماسية الاقتصادية

لا تشكل روسيا تهديداً أمنياً لدولة الإمارات العربية المتحدة، ولطالما بقيت الخلافات بينهما تحت السيطرة. فموسكو تعتبر الإمارات واحة سلام ذات توجه تنموي وذات سياسة خارجية معتدلة. كما تعي أبو ظبي الفرص الاقتصادية الكامنة في علاقاتها مع روسيا أيضاً. وهكذا تقتصر العلاقات الروسية الإماراتية في الغالب على التبادلات الدبلوماسية والتجارية.

(1) «QF and Rosneft Unveil New R&D Hub at QSTP,» Qatar Foundation, March 28, 2018. https://www.qf.org.qa/news/qf-and-rosneft -unveil-new-rd-hub-at-qstp.

(2) «Russia and Qatar Hold Discussions on Collaborating at International Multilateral Events in 2019–2020,» SPIEF, June 11, 2019. https://www.forumspb.com/en/news/news/russia-and-qatar-hold-discussions-on-collaborating-at-internationalmultilateral-events-in-20192020/.

(3) «Qatar Waives Entry Visa Requirements for Citizens of 80 Countries,» Qatar Airways,August 9, 2017. https://www.qatarairways.com/en/press-releases/2017/Aug/qatarwaives-entry-visa-requirements-for--citizens-of-80-countri.html#. 49.

(4) «Upravlenie po Turismu Qatara Prezentovalo Rossiiskoe Predstavitelstvo I Oboznachilo Prioritety [Qatar Tourism Authority Opened Representation in Russia and Outlined Its Priorities],» Vesti.ru, March 30, 2018. http://travel.vesti.ru/article_37356.

اسمياً، تدعم كل من روسيا والإمارات العربية المتحدة أطرافاً متعارضة في جميع أنحاء الشرق الأوسط. ومع ذلك، تقبّلت أبو ظبي تدخّل موسكو في المنطقة، قبل الدوحة أو الرياض بوقت طويل. فقد امتنع الإماراتيون عن لوم روسيا على ما تقوم به في سورية. وحافظت روسيا بدورها على روابط مع القيادة الإماراتية، وأعربت عن دعمها للنزاع الإقليمي طويل الأمد مع إيران حول جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى.

هذا وتدعو كل من روسيا والإمارات العربية المتحدة إلى الوسطية الدينية ومكافحة التطرف. ففي عام 2016، شاركت مؤسسة طابة ومقرها أبو ظبي في تنظيم مؤتمر غروزني [عاصمة الشيشان] الذي جمع قادة الإسلام السني الأكثر تأثيراً. والجدير بالذكر أن الفعالية استثنت مصطلحي السلفية والوهابية من تعريفها للإسلام السني[1].

ووقف كلاهما خلْف الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، وكذلك الزعيم الليبي القوي خليفة حفتر. فبالنسبة لروسيا، تقدم ليبيا فرصة ثمينة لإبراز نفوذها الجيوسياسي داخل المنطقة وخارجها، بما في ذلك القدرة على التأثير على دول جنوب أوروبا مثل إيطاليا، كما أنها تستفيد من علاقاتها مع حفتر لتعزيز موقفها في سوق النفط. أما بالنسبة للإمارات، يبدو حفتر البديل الوحيد للإسلاميين والشخصية الرئيسية القادرة على توحيد تلك الأمة المشتتة. وبذلك، وحتى الآن، تتقبل أبو ظبي التعامل مع الروس.

وتحرص موسكو على تعزيز روابط الاقتصاد والطاقة والصناعات الدفاعية مع الإمارات العربية المتحدة، على أمل جذب الاستثمار في البنية التحتية وكذلك السياحة. بينما تهتم أبو ظبي بالصادرات الزراعية الروسية، لا سيما بالنظر إلى مخاوفها المتعلقة بالأمن الغذائي، كما أنها حريصة أيضاً على استقبال المزيد من الزوار الروس[2].

---

(1) James Dorsey, «Fighting for the Soul of Islam: A Battle of the Paymasters,» Huffington Post, September 30, 2017.
https://www.huffi ngtonpost.com/james-dorsey/fi ghtingfor-the-soul- of_b_12259312.html; «Islamic Conference in Chechnya: Why Sunnis Are Disassociating Themselves from Salafi sts,» Firstpost. September 9, 2016. https://www.firstpost.com/world/islamic-conference-in-chechnya-why-sunnis-are-disassociatingthemselves-from-salafi sts-2998018.html.

(2) Jumana Khamis, «UAE's Long-Term Food Security Strategy under Study,» G ulf News, February 8, 2018.
http://gulfnews.com/news/uae/society/uae-s-long-term-foodsecurity-strategy-under-

ففي تشرين الأول/أكتوبر 2019، تم استقبال بوتين بسيارات مزينة تشبه سيارة الشرطة الروسية، وتم رسم الألوان الثلاثة الأبيض والأزرق والأحمر في سماء أبو ظبي. كما تمخضت الزيارة التي تضمنت محادثات مع ولي العهد الشيخ محمد بن زايد، عن صفقات بقيمة 1.3 مليار دولار. شملت قطاعات مثل التعدين والخدمات المالية والخدمات اللوجستية وتجارة التجزئة، وكان من أبرزها استثمارات في مجال الطاقة. كما استحوذت شركة Lukoilعلى حصة قدرها 5 % في حقل غاشا للغاز الحامض، وهي المرة الأولى التي يُسمح فيها لشركة طاقة روسية بالمشاركة في مشاريع استكشافية في الإمارات العربية المتحدة[1]. ولكن تماماً كما حدث مع المملكة العربية السعودية، حال انهيار اتفاق أوبك +، وتزايد التحفظ المالي لدى القيادة الإماراتية إلى الابتعاد دون إقامة علاقات تجارية أوسع مع الكرملين.

ومع تقاسم الدولتين مخاوف بشأن التسوية السياسية في سورية واعترافهما بالحاجة إلى إيجاد إطار أمني أوسع في دول مجلس التعاون الخليجي، دفعت النوايا السياسية الحسنة عجلات التبادلات الجديدة قدماً. ومع ذلك، يبدو من الصعب معرفة مدى الخلافات التي أحدثها استعراض روسيا لقوتها في المنطقة. فقبل بدء الحملة الجوية في سورية في عام 2015، كان التعاون الاقتصادي بين روسيا والإمارات يتنامى منذ سنوات، لكنه ما يزال هامشياً مقارنة بحجم الميزان التجاري لكلا البلدين.

فخلال السنوات الخمس الماضية، بلغت قيمة التجارة غير النفطية بين الإمارات وروسيا 14 مليار دولار، متجاوزة 3 مليارات دولار من الإقبال السنوي لأول مرة في عام 2019. وتستضيف الإمارات أكثر من ثلاثة آلاف شركة روسية، وهو العدد الأكبر من بين جميع الشركات. ويمثّل الشرق الأوسط، حوالي 7.7 % من إجمالي التجارة الخارجية الروسية مع العالم العربي. وفي عام 2013، وافقت أبو ظبي على تقديم منحة بقيمة 3 مليارات دولار لدعم صندوق التنمية

---

study-1.2170588; «Russian Visitors to GCC to Increase 38 Percent by 2020,» Gulf News, January 13, 2018.

http://gulfnews.com/business/sectors/tourism/russian-visitors-to-gcc-to-increase-38-by-20201.2156253-.

(1) Gnana Jennifer. «Adnoc Awards 5 Percent Stake in Ghasha Concession to Russia's Lukoil,» The National, October 15, 2019.

https://www.thenational.ae/business/energy/adnoc-awards-5-stake-in-ghasha-concession-to-russia-s-lukoil-1.924175.

الريفية RDIF بهدف تطوير القطاع الزراعي في روسيا. كما تم تشكيل كونسورتيوم [رابطة شركات] روسي إماراتي أيضاً للاستحواذ على حصة من طائرات الهليكوبتر الروسية. أما في عام 2019، أعلنت فلاي دبي عن رحلة جديدة إلى سوتشي، في حين تدرس شركة الطيران الروسية منخفضة التكلفة Pobeda فكرة إطلاق خطها إلى دبي[1]. وقد التزم جهاز أبو ظبي للاستثمار ADIA بصفقات بنية تحتية بمليارات الدولارات بالتعاون مع RDIF[2].

كما خصصت شركة مبادلة للاستثمار ما يصل إلى 6 مليارات دولار لمشاريع البنية التحتية والنقل[3]. ولكن كما هو الحال مع جميع التعهدات الصادرة عن ممالك الخليج، ليس لنا إلا أن ننتظر لنرى كم سينجز من هذه الوعود. إذ قد يؤدي الخلاف المحتمل بين روسيا والسعودية، فضلاً عن انخفاض أسعار النفط، إلى تقويض التقدم المُحرز في العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية.

نتيجة

في السابق، اتسمت العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي بانعدام الثقة والتوتر. ولكن في غضون سنوات قليلة فقط تغير هذا النمط. ويُعزى هذا التغيير إلى قدرة دول مجلس التعاون الخليجي على التكيف بمهارة مع الحقائق الجيوسياسية الجديدة والملف الجيوسياسي المتصاعد لروسيا بدعم من سياستها في استخدام القوة الصارمة والدبلوماسية المرنة في آن معاً. وفي غضون ذلك، تتنقل موسكو بعناية في مسارها بين الجهات الفاعلة في

(1) «Flydubai Launches New Route to Russia,» Russian Aviation Insider, April 24 2019. http://www.rusaviainsider.com/fl ydubai-launches-new-route-russia/; «Loukoster Pobeda Nachiniot Letati v Eilat i Dubai [Low-Cost Company Podeda Will Start Flying to Eilat and Dubai],» Meduza, July 10, 2019. https://meduza.io/news/201910/07//loukoster-pobeda-nachnet-letat-v-eylat-i-dubay.

(2) Anne-Sylvaine Chassany, «Abu Dhabi Plans to Invest Up to $5bn in Russian Infrastructure,» F inancial Times, September 11, 2013. https://www.ft.com/content/372b18e61-af411-e387-da-00144feab7de.

(3) Fareed Rahman, «RDIF in Talks with UAE Partners for Investments,» Gulf News, December 3, 2017. https://gulfnews.com/business/sectors/investment/rdif-in-talks-with-uae-partners-for-investments-1.2134596.

مجلس التعاون الخليجي، في محاولة للحفاظ على قنوات اتصال مفتوحة مع جميع الأطراف في المنطقة. وهي ملتزمة بالدور المنوط بها، ألا وهو دور «الوسيط النزيه»، وهو امتداد لاستراتيجيتها الشاملة في الشرق الأوسط. ونتيجة لذلك، ظهرت على مدى العقد الماضي علاقة تعاونية أكثر توازناً بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي. ومع ذلك، ونظراً لضعف الاعتماد على العمل المؤسساتي والاعتماد المفرط بدلاً من ذلك على التقارب الشخصي بين القادة، يبقى هذا المسار عرضة للاضطرابات والتقلب، وربما التراجع في المستقبل.

الفصل 12

روسيا ومصر: شهر عسل محفوف بالمخاطر

أليكسي خليبنيكوف

يمكن القول إن مصر هي أحد أقرب شركاء روسيا في الشرق الأوسط. فمنذ استيلائه على السلطة في انقلاب عام 2013، عمل عبد الفتاح السيسي مع الرئيس فلاديمير بوتين على نحو مستمر. وقد ازدهر التعاون في مجالات مختلفة: كالدفاع، والطاقة، والزراعة، والتكنولوجيا الفائقة، والتعليم، والثقافة. كما اشترت مصر كميات كبيرة من الأسلحة الروسية المتطورة. والعلاقات الإنسانية بين البلدين قوية كذلك. إذ يقيم حوالي خمسة وثلاثين ألف مواطن روسي في مصر[1]. وتهتم موسكو بالقاهرة وتقدرها كقوة محورية في الشرق الأوسط. وتُعد مصر بدورها روسيا لاعباً عالمياً وإقليمياً رئيسياً.

وفي الوقت ذاته، لا تكاد العلاقات الثنائية، المتجذرة في التاريخ، تخلو من التعقيد. فمنذ الحرب العالمية الثانية، مرّ البلدان بمراحل من التعاون الوثيق أعقبها تباعد وركود وإعادة تقييم وإحياء. وللانتعاش الحالي علاقة كبيرة بديناميات الشرق الأوسط والفرص التي أوجدتها سياسة الولايات المتحدة. ولكن ما برحت العوامل والوقائع الهيكلية داخل البيئة المصرية المحلية وفي المنطقة عموماً، تفرض قيوداً على الشراكة الروسية المصرية المزدهرة.

تأثير البندول

انخرطت روسيا القيصرية والسوفياتية في علاقات مع مصر عندما كانت تشكل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وكذلك فيما بعد وقوعها تحت الحماية البريطانية. وفي ستينيات

(1) According to Russia's Foreign Ministry data, April 23, 2019. http://www.mid.ru/ru/maps/eg/?currentpage=main-country.

القرن الثامن عشر، أرسلت روسيا أسلحة إلى مصر، عندما أعلن زعيم المماليك محمد علي بك الكبير الاستقلال عن الباب العالي [السلطان العثماني]. ورغم محاولات الحكومة البلشفية للوصول إلى القوى الشيوعية المحلية الضعيفة في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي[1]، إلا أنها لم تكن أبداً متحمسة لمصر أو جيرانها في الشام[2]، ويعزى عدم اهتمام موسكو إلى تصورها لوجود احتمال ضئيل لترسيخ الحركة الشيوعية هناك[3]. ولم يبدأ السوفييت في التعامل مع مصر بجدية إلا بعد ثورة 1952 التي قام بها محمد نجيب وجمال عبد الناصر، التي أعقبتها وفاة ستالين في العام التالي. فبدأ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في تنمية العلاقات مع دول عدم الانحياز، وبعضها ليس بالضرورة (مؤيد) للشيوعية. كما أن عبد الناصر، الذي كان معادياً للشيوعية في البداية، لم يبدأ بالتواصل مع موسكو إلا بعد 1955-1956 [4].

مرّت العلاقة بين موسكو والقاهرة بأربع مراحل. في الخمسينيات والسبعينيات من القرن الماضي، في عهد عبد الناصر، أصبح الاتحاد السوفيتي ومصر شريكان وثيقان فعززا روابط قوية. وقد ساهمت المساعدات السوفيتية في بناء سبعة وتسعين شركة صناعية كبيرة، بما في ذلك سد أسوان الشهير، ومصانع الحديد والصلب في حلوان ونجع حمادي، ومئات الكيلومترات من خطوط نقل الكهرباء ذات الجهد العالي[5]، من بين أمور أخرى. كما علم الاتحاد السوفيتي عشرات آلاف المهندسين المصريين والمتخصصين الصناعيين وكذلك ضباط الجيش. بالإضافة إلى ذلك، قدمت موسكو معدات عسكرية حديثة وأرسلت آلاف المستشارين العسكريين لتدريب قوات الجمهورية العربية المتحدة[6].

(1) Mohamed Heikal, The Sphinx and the Commissar (New York: Harper & Row, 1978), 35–55.

(2) Schoenberger Erica and Stephanie Reich, «Soviet Policy in the Middle East,» MERIP Reports, no. 39 (1975): 3–28.

(3) Ibid.

(4) Evgeny Primakov, C onfi dentially: The Middle East on Stage and Behind the Curtains (Moscow: Rossijskaya Gazeta, 2012).

(5) Yuriy Zinin, «Is the Red October Legacy Still Traceable across the Middle East?,» New Eastern Outlook, January 31, 2018. https://journal-neo.org/201831/01//is-the-red-october-legacy-still-traceble-across-the-middle-east/.

(6) Bogdanov Mikhail, «Russian-Egyptian Relations at the Turn of the Centuries,» A siai Afrika segodnya, no. 12 (2013): 2–3.

بدأت المرحلة الثانية مع وصول أنور السادات إلى السلطة عام 1970، واستمرت حتى منتصف التسعينيات. وأدت إعادة توجيه مصر نحو الغرب إلى طرد المستشارين السوفييت والإخلاء التدريجي للقوات للبحرية الجوية السوفيتية، صاحبه تحوّل سريع نحو الولايات المتحدة. وخلال ذلك الوقت، أوقف السادات المشاريع المشتركة وخفض العلاقات الدبلوماسية مع موسكو. أما المرحلة الثالثة، الممتدة من منتصف التسعينيات وحتى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فقد أثمرت أشكالاً جديدة من التعاون. إذ سعت روسيا الاتحادية ومصر إلى إيجاد سبل لإعادة العلاقات وتكييفها مع العالم المتغير. وأسفرت زيارتي عامي 1997 و2001 اللتين قام بهما حسني مبارك إلى روسيا عن مجموعة من الاتفاقيات التي تضفي الطابع المؤسسي على الشراكة المتجددة. كما أعطت رحلات بوتين إلى مصر في عامي 2005 و2007 دفعة أخرى للعلاقة، ووضعت أسس التقارب الحالي. وفي عام 2010، بداية المرحلة الرابعة؛ إذ كثّفت مصر وروسيا التعاون بشكل أكبر لأسباب سيتم عرضها في القسم التالي.

كواليس الشراكة العميقة

عمّقت روسيا ومصر العلاقات بسبب نشوء والتقاء عدة عوامل عالمية وإقليمية.

فقد استغلت موسكو انعدام ثقة النخب المصرية المتزايد في الولايات المتحدة. فكما هو معروف، تركز أمريكا على العلاقات الأمنية مع كل من إسرائيل ومصر والمملكة العربية السعودية. ولكن عندما اضطر الرئيس المصري حسني مبارك في عام 2011 إلى الاستقالة تحت ضغط الاحتجاجات الجماهيرية، تغيرت وجهات النظر بشأن الولايات المتحدة في القاهرة. وشعرت المؤسسة العلمانية المصرية بخيانة الولايات المتحدة. فأولاً، لم تبذل واشنطن أي جهد لإنقاذ حليفها مبارك في عام 2011. وثانياً، علقت مساعداتها المالية السنوية البالغة 1.3 مليار دولار رداً على الانقلاب العسكري في عام 2013 الذي تم تنظيمه للإطاحة بالرئيس محمد مرسي والإطاحة بجماعة الإخوان المسلمين. ونتيجة لذلك، بدأت مصر في تنويع شراكاتها الدولية وتحركت للارتقاء بعلاقاتها مع روسيا.

وقدّم تحول موقف القاهرة لموسكو فرصة ثمينة. فبادرت روسيا بإظهار موقف عملي تجاه مصر في أعقاب ثورة 2011. والتقى الرئيس بوتين بمرسي على هامش قمة مجموعة

بريكس BRICS [1] في ديربان Durban، الجنوب إفريقية، في آذار/مارس 2013، ثم مدّ له البساط الأحمر في موسكو في الشهر التالي.

لكن عندما أطاح الجيش المصري بمرسي، تبنت موسكو بسرعة الزعيم الجديد، عبد الفتاح السيسي. وتم تكثيف التعاون عموماً بدءاً من عام 2013.

ومنذ توليه للسلطة، التقى السيسي مع فلاديمير بوتين أحد عشر مرة. وكانت اللقاءات الأولية مفيدة للغاية للزعيم المصري القوي من اجل إكسابه الشرعية الدولية. كما أحيت تلك القمم لجنة التجارة والتعاون الاقتصادي من سباتها الطويل. وبالتوازي مع ذلك، بدأ وزيرا الدفاع والشؤون الخارجية في البلدين اجتماعاتٍ منتظمة بصيغة «2+2». وهذا بحد ذاته يشير إلى درجة التقارب العالية والأهمية التي توليها كل من روسيا ومصر لبعضهما.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن مصر لطالما تجنبت وضع البيض في سلة واحدة. فحتى في عهد السادات ومبارك، ورغم تراجع العلاقات بشكل كبير، حافظت القاهرة على العلاقات السياسية والاقتصادية مع موسكو. ففي عام 1982، على سبيل المثال، طلبت مصر من الاتحاد السوفيتي استئناف توريد قطع الغيار لمحطة سد أسوان الكهرومائية، وإرسال خبراء مدنيين. وبعد ذلك بعامين، استؤنفت المشاورات حول قضايا السياسة الخارجية على مستوى أدنى أيضاً[2]. وقد سمحت إعادة العلاقات لمصر بمواربة بابها وإبقاء خيار تجديد العلاقة مع السوفييت على الطاولة. والشيء نفسه يحدث اليوم: فرغم كونها شريكاً استراتيجياً للولايات المتحدة، تعمل القاهرة باستمرار على تعميق العلاقات مع موسكو في جميع المجالات، وقبل كل شيء في مجال الدفاع. ففي آذار/مارس 2015، أنشأت موسكو والقاهرة لجنة التعاون العسكري والفني، وسرعان ما حصلت القاهرة على ترخيص لتجميع دبابات T-90S الروسية[3].

(1) BRICS stands for Brazil, Russia, India, China, and South Africa.

(2) Alekxey Podtserob, R ossiai Arabskii Mir [Russia and Arab World] (Moscow: MGIMO Universitet, 2015), 102–4.

(3) «The First Joint Russian-Egyptian Commission on Military and Technical Cooperation Was Held in Moscow,» Russian Ministry of Defense, March 3, 2015. http://eng.mil.ru/en/mpc/news/more.htm?id=12009420@egNews; «Egypt Licensed to Assemble Russian T-90S Tanks. Capacity–50 a Year,» Debka Weekly, March 11, 2018. https://www.debka.com/egypt-licensed-to-assemble-russian-t-90s-tanks-capacity-50-a-year/.

وفي الوقت نفسه، تدرك القيادة الروسية بوضوح أنه بغض النظر عن شهيتها غير المفتوحة للتدخل عسكرياً في شؤون المنطقة وإخفاء ذلك وراء خطاب عدائي (كما تفعل إيران، على سبيل المثال)، تظل الولايات المتحدة اللاعب الرئيسي في الشرق الأوسط والشريك المفضل لدى مصر. كما أن وجود موطئ قدم ثابت لروسيا في المنطقة (وجودها العسكري في سورية، وتنامي علاقاتها مع المملكة العربية السعودية والإمارات وقطر ومصر) على مدى السنوات الماضية يجعل تنسيق موسكو لعلاقاتها مع الولايات المتحدة أمراً ذا أهمية، تتجاوز الاستمرار في مبادرات أحادية الجانب من أجل استغلال الفرص.

الفرص

إن سياسة موسكو تجاه القاهرة مدفوعة إلى حد كبير بالمصالح الأمنية والاقتصادية. إذ تعتبر روسيا مصر شريكاً إقليمياً مهماً في الحرب ضد الإرهاب، ولتعزيز موقعها في البحر المتوسط[1]. وفي المجال الاقتصادي، يهتم الروس بمصر كمشترٍ للمنتجات الزراعية والأسلحة والتقنيات النووية والصناعية.

الأمن

في تشرين الأول/أكتوبر 2015، عندما تحطمت طائرة روسية فوق شبه جزيرة سيناء وقتلت 224 شخصاً، اعتبرت روسيا مصر ساحة حرب في قتالها للإرهابيين الجهاديين، بما في ذلك داعش التي أعلنت مسؤوليتها عن الحادث. وردّاً على ذلك، حظرت موسكو الرحلات

(1) Sergey Lavrov, «Friendship and Cooperation Tested by Time,» A l Ahram, October 13, 2018. http://www.mid.ru/en/diverse/-/asset_publisher/zwI2FuDbhJx9/content/stat-a-ministra-inostrannyh-del-rossii-s-v-lavrova-rossia-i-egipet-druzba-isotrudnicestvo-ispytannye-vremenem-opublikovannaa-v-egipetskoj-gazete-ala?_101_INSTANCE_zwI2FuDbhJx9_redirect=http %3A %2F %2Fwww.mid.ru %2Fen %2Fdiverse %3Fp_p_id %3D101_INSTANCE_zwI2FuDbhJx9 %26p_p_lifecycle %3D0 %26p_p_state %3Dnormal %26p_p_mode %3Dview %26p_p_col_id %3Dcolumn-1 %26p_p_col_pos %3D2 %26p_p_col_count %3D6; «Russian Federation Naval Doctrine,» Kremlin.ru, July 26, 2015.
http://en.kremlin.ru/events/president/news/50060.

الجوية المباشرة إلى مصر، مما تسبب في أضرار لصناعة السياحة تصل إلى 3 مليارات دولار[1]. فقبل عام 2015، كان حوالي 3 ملايين سائح روسي يزورون المنتجعات المصرية سنوياً. وفي عامي 2018 و2019، زار 145 و150 ألف مواطن روسي، على التوالي، البلاد. وهو ما يمثّل وفقاً لوزارة السياحة المصرية وشركات السياحة الروسية، 5 % فقط من رقم ما قبل عام 2015[2]. ولم يُحدِث استئناف رحلات شركة Aeroflot ومصر للطيران إلى موسكو والقاهرة عام 2017 أي فرق يذكر. ولم تُعِد روسيا فتح الرحلات الجوية المباشرة إلى المنتجعات البحرية المصرية، بحجة أن المتطلبات الأمنية لم يتم الوفاء بها بالكامل[3]. والأهم من ذلك، أن التطبيع النصفي في قطاع النقل يمنح موسكو نفوذاً فعالاً على مصر. وبفضل الحظر، أصبحت موسكو في وضع يسمح لها بممارسة الضغط السياسي والدفاع عن مصالحها.

وفي أواخر تشرين الثاني/نوفمبر2017، صاغت روسيا ومصر اتفاقاً بشأن الاستخدام المشترك للمجال الجوي والقواعد الجوية للجيشين[4]. ولم يتم الانتهاء من الاتفاق بعد، ولكن بمجرد وصوله إلى مرحلة التنفيذ، فإنه سيضع الأسس القانونية لوصول روسيا إلى البنية التحتية المصرية. والعكس صحيح. سيسمح الاتفاق أيضاً لموسكو بتوسيع وجودها في شمال

(1) Rafael Daminov, «Vozobnovlenie Charterov iz Rossii Vyzvalo Likovanie v Egipetskom Tursektore [Relaunch of Charter Flights from Russia Triggered Cheers in Egypt's Tourist Sector],» RIA Novosti, October 18, 2018.
https://ria.ru/201810181530960714/.html; Yasmin El Beih, «Russian Tourism in Egypt: What's Next?,» Egypt Today, July, 23, 2018.
https://www.egypttoday.com/Article/354330//Russian-Tourism-in-Egypt-What%E2%80%99s-Next.

(2) «Egipet Otkryvaiut dlya Rossiiskih Turistov: Progress na Litso [Egypt Is Opened for Russian Tourists: Progress Is Evident],» Turprom, April 9, 2019. https://www.tourprom.ru/news/41965/.

(3) Mohamed Emad, «Russian Experts Continue Inspection of Hurghada Airport Security,» El-Balad, April 16, 2019.
https://en.el-balad.com/2416757.

(4) Vladimir Isachenkov, «Russia Negotiates Deal for Its Warplanes to Use Egypt Bases,» AP, November 30, 2017.
https://apnews.com/bdfae4502ca74c1eacdbf6d32252e8f4?utm_campaign=SocialFlow&utm_source=Twitter&utm_medium=AP.

إفريقيا وكسب المزيد من النفوذ في النزاعات الإقليمية. فعلى سبيل المثال، قد تستخدم روسيا المطارات العسكرية المصرية للتزود بالوقود أو للهبوط في حالات الطوارئ، وكذلك للقيام برحلات الاستطلاع في المنطقة. من المحتمل أيضاً أن تفتح الباب لمحادثات حول اتفاق مماثل بشأن المنشآت البحرية، والذي سيسمح لموسكو بتعزيز انتشارها البحري في البحر المتوسط. علاوة على ذلك، تنظر مصر في إمكانية التدخل في سورية وترى فرصاً للعمل مع روسيا في حملتها ضد داعش في سيناء.

ومع تراجع القتال في سورية (باستثناء محافظة إدلب)، فإن روسيا في وضع يمكّنها من تحويل الموارد المحتملة إلى أماكن أخرى في الشرق الأوسط. ويمكن أن تكون مصر مكانها التالي. علاوة على ذلك، فخلال عام 2017، ورد أن روسيا نشرت وحدة صغيرة من القوات الخاصة والمستشارين العسكريين في سيدي براني، وهي بلدة على البحر المتوسط (كانت تستضيف سابقاً منشأة بحرية سوفياتية) قرب الحدود الليبية[1]. وعلى الرغم من نفي السلطات الروسية والمصرية[2]، أشارت التقارير إلى أن المحادثات جارية بشأن استئجار قاعدة جوية مصرية في المنطقة. ومن المرجح أن تستمر هذه المفاوضات مع وصول الجيش الروسي إلى البنية التحتية الدفاعية المصرية. بالإضافة إلى ذلك، تعد مصر نقطة انطلاق إلى ليبيا، حيث تأمل موسكو في المساهمة في إيجاد تسوية سياسية في البلد الذي مزقته الحرب بهدف استعادة عقود العمل التي خسرتها[3].

(1) Phil Stewart, Idrees Ali, and Lin Noueihed, «Russia Appears to Deploy Forces in Egypt, Eyes on Libya Role–Sources,» Reuters, March 13, 2017. https://www.reuters.com/article/us-usa-russia-libya-exclusive/exclusive-russia-appears-to-deploy-forcesin-egypt-eyes-on-libya-role-sources-dUSKBN16K2RY; «Reuters: Russia Apparently Deploys Forces near Libyan Border in Egypt,» RFE/RL, March 14, 2017. https://www.rferl.org/a/russia-special-forces-libya-egypt/28368266.html.

(2) Vickiie Oliphant, «Russia Hits Out After Being Accused of Sending Forces to Egypt to Infl uence Libya Conflict,» Express, March 14, 2017. https://www.express.co.uk/news/world/778864/Russia-DENIES-deploying-special-forces-Egypt-infl uence-Libya-Conflict.

(3) «Gaddafi Fall Cost Russia Tens of Billions in Arms Deals,» Reuters, November 2, 2011. https://www.reuters.com/article/russia-libya-arms/gaddafi -fall-cost-russia-tens-of-blns-in-arms-deals-idUSL5E7M221H20111102.

حققت روسيا ومصر بالفعل تقدماً في مجال التعاون لمكافحة الإرهاب. فقد أجرت القوات المظلية من البلدين أول تدريبات مشتركة في الصحراء المصرية في تشرين الأول/ أكتوبر 2016[1]؛ إذ تمرنت القوات البحرية في البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية في حزيران/يونيو 2015[2]. وأصبحت التدريبات منتظمة، مع استضافتها لدى كل من روسيا في عامي 2017 و2019، ومصر في 2018[3]. تشير هذه الروابط العسكرية إلى مستوى جديد للعلاقات وتثبت أن روسيا مستعدة لمساعدة القاهرة في حربها ضد الإرهاب القادم من ليبيا وسيناء. وقد أنشأت موسكو والقاهرة منصة عمل لتبادل الخبرات في مجال مكافحة الإرهاب.

ويشير التعاون الأمني المكثف مع مصر إلى اهتمام روسيا بتأسيس موطئ قدم لها في شمال إفريقيا يسمح لها بممارسة نفوذها في ليبيا. وتدعم القاهرة إلى جانب كل من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة الجنرال خليفة حفتر وجيشه الوطني الليبي. ولما كانت قوات حفتر تعمل من مدينة طبرق القريبة من الحدود المصرية وتسيطر على شرق ليبيا بالكامل تقريباً، فمن الطبيعي أن تهتم القاهرة بإحكام السيطرة على الحدود ومنع تسلل أي عناصر إرهابية. ويمكن لموسكو المساعدة في هذا الصدد، لأسباب أقلها إنها مطلعة جيداً على الديناميات على أرض الدولة المضطربة الواقعة في شمال إفريقيا. ووفقاً لرئيس مجموعة الاتصال الروسية بشأن ليبيا Lev Dengov، فإن روسيا «يمكنها مراقبة الوضع والتأثير عليه من جميع الأطراف»[4].

تحافظ روسيا على اتصالات للعمل مع جميع الأطراف في ليبيا، بما في ذلك الجيش الوطني الليبي، وحكومة الوفاق الوطني، ومصراتة والقبائل الجنوبية - وتحاول البقاء على

---

(1) «Egypt, Russia to Hold Joint Military Exercises in mid-October,» Reuters, October 12, 2016. https://www.reuters.com/article/us-egypt-russia-military-idUSKCN12C2E0.

(2) «Russia and Egypt Hold First-Ever Joint Naval Drills,» Defense News, June 10, 2015. https://www.defensenews.com/home/201510/06//russia-and-egypt-hold-first-ever-joint-naval-drills/.

(3) Shaul Shay, «Exercise 'Protectors of Friendship 2' and the Egyptian-Russian Strategic Relations,» Israel Defense, September 26, 2017. https://www.israeldefense.co.il/en/node/31239; Shaul Shay, «Defenders of Friendship 2018: Egypt, Russia Conclude Joint Drills,» Israel Defense, October 31, 2018. https://www.israeldefense.co.il/en/node/36153.

(4) «Interview with Lev Dengov, Head of the Russian Contact Group on Libya,» News.ru, July, 2, 2019. https://news.ru/afrika/lev-dengov-rossiya-v-livii-ne-delaet-stavku-na-kakuyu-libo-storonu/. 23.

مسافة متساوية من الجميع[1]. وهذا لا يعني أن روسيا مهتمة بالتورط في صراع عسكري مباشر آخر، ولكن بهدف الإشارة إلى استعدادها للانضمام إلى نادي سماسرة القوة الدولية الذين يمكنهم جلب الفصائل المتحاربة إلى طاولة المفاوضات. ويذكر أن موسكو استقبلت في عام 2019 اللواء حفتر ووزير خارجية حكومة الوحدة الليبية محمد طاهر سيالة. كما ألقت روسيا بثقلها لتنظيم مؤتمر برلين وشاركت أيضاً (مع تركيا) في اقتراح وقف لإطلاق النار بين أطراف الصراع الليبي. ومن الواضح أن الكرملين يحاول زيادة دوره الدبلوماسي وتأثيره في تسوية الأزمة الليبية، كما يبدو أن موسكو تعتقد أن تجربتها في سورية، لا سيما مراكز المصالحة التابعة لها، والتي ركزت، من بين أمور أخرى، على تسهيل عملية التفاوض بين مجموعات المعارضة والحكومة السورية، وعلى إيصال المساعدات الإنسانية إلى السكان المدنيين ووقف إطلاق النار لفترات مؤقتة، قد يكون قابلة للتطبيق في ليبيا.

كما ساعدت مصر روسيا في التفاوض على اتفاقات بشأن مناطق خفض التصعيد في سورية. واستضافت مصر في 2016-2017 عدة جولات من المحادثات بين مسؤولي الدفاع الروس ومختلف مجموعات المعارضة السورية، والتي أسفرت عن إنشاء منطقتين لخفض التصعيد في سورية (الغوطة الشرقية وحمص)[2]. هذا ويتمتع ما يسمى بـ «مجموعة القاهرة» للمعارضة السورية بعلاقات جيدة مع روسيا وهي ميالة أكثر إلى التسوية على عكس الهيئة العليا للمفاوضات ومقرها الرياض بالمملكة العربية السعودية. كما أن لها جناحها العسكري الذي يعمل على الأرض في عدة محافظات (الحسكة ودير الزور والرقة)، وتتعاون أيضاً مع قوات سورية الديمقراطية[3]. وهكذا، أثبتت مصر أنها منصة يمكن أن توحِّد مجموعات المعارضة المختلفة في سورية. بالإضافة إلى كونها قناة اتصال إضافية مع دول مجلس التعاون الخليجي بقيادة السعودية.

---

(1) Ibid.

(2) «Foreign Minister Sergey Lavrov's Remarks and Answers to Media Questions at a Joint News Conference Following Talks with Egyptian Foreign Minister Sameh Shoukry,» MID.ru, August 21, 2017.
http://www.mid.ru/en/foreign_policy/news/-/asset_publisher/cKNonkJE02Bw/content/id/2840676.

(3) Malak Chabkoun, «What Is Left of the Syrian Opposition?,» Al Jazeera, January 28, 2018. https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/left -syrianopposition-180127154708397 .html.

التعاون الاقتصادي

نمت التجارة بين مصر وروسيا بشكل ملحوظ، من 3 مليارات دولار في 2013 إلى 7.6 مليار دولار في 2018 [1]، مما جعل موسكو ثالث أهم شريك لمصر بعد الاتحاد الأوروبي والصين.

وتهيمن منتجات الزراعة والطاقة والأسلحة على التبادلات بين البلدين. ففي السنوات الأخيرة كان ما يقارب 30 % من صادرات روسيا إلى مصر عبارة عن منتجات زراعية[2]. وروسيا هي أكبر مصدّر للحبوب إلى مصر؛ إذ تغطي حوالي 65 % من طلبها[3]. وبسبب حظر استيراد الأغذية الذي تم فرضه رداً على عقوبات الاتحاد الأوروبي المفروضة على روسيا، أصبحت روسيا هي أهم مستورد للخضروات والفواكه شبه الاستوائية من مصر. تتكون حوالي 80 % من صادرات مصر إلى روسيا من منتجات نباتية[4]، حيث الواردات الزراعية أرخص بسبب انخفاض قيمة الجنيه المصري. ويشكّل تغير أسعار الصرف حافزاً للشركات الروسية لتوطين الإنتاج في مصر.

ومنذ عام 2001، تقوم شركة النفط الروسية **Lukoil** باستخراج النفط بالقرب من ميناء الغردقة على البحر الأحمر. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2017، استحوذت **Rosneft** على حصة 30 % من شركة الطاقة الإيطالية ENI في امتياز لتطوير حقل ظهر المصري، وهو أكبر حقل غاز في البحر المتوسط[5].

وفي آيار/مايو 2018 وقّعت روسيا ومصر صفقة لإنشاء منطقة صناعية روسية شرق مدينة

(1) Data from Russian Federal Custom Service, 2019.
http://eng.customs.ru/.

(2) «Torgovlia Mezhdu Rossiei i Egiptom v 2018 [Russia's Trade with Egypt in 2018],» Vneshniya Torgovlya Rossii, February 9, 2019.
http://russian-trade.com/reports-and-reviews/201902-/torgovlya-mezhdu-rossiey-i-egiptom-v-2018-g/.

(3) «Rossiisko-Egipetskie Ekonomicheskie Otnosheniya [Russian-Egyptian Economic Relations],» ITAR-Tass, December 11, 2017.
https://tass.ru/info/4802472.

(4) «Egipet Narashivaet Eksport Selskokhozyaistvennoi Produktsii v Rossiu [Egypt Increases Export of Agro Products to Russia],» RIA Novosti, August 8, 2018. https://ria.ru/201808051525957209/.html.

(5) «Rosneft Closes the Deal to Acquire a 30 % Stake in Zohr Gas Field,» Rosneft, October 9, 2017.
https://www.rosneft.com/press/releases/item/188045/.

بورسعيد[1]، والتي من المتوقع أن تزيد عدد الشركات والاستثمارات الروسية. وتخطط روسيا في السنوات المقبلة لاستثمار نحو 6.9 مليار دولار في إنشاء منطقتها الصناعية في مصر. وفي عام 2018، بلغ إجمالي عدد الشركات الروسية في مصر 451 شركة[2]. وتهدف موسكو إلى إنشاء منتجات صناعية متنوعة ومركز لوجستي لها في مصر، ما سيساعدها أيضاً في الوصول إلى دول أخرى في الشرق الأوسط وأفريقيا.

ومن المتوقع أيضاً أن توقع مصر اتفاقية تجارة حرة مع منطقة أوراسيا بقيادة روسيا عبر الاتحاد الأوراسي الاقتصادي EEU، الذي سيسهل التبادل بين البلدين[3]. وسيُتاح لمصر إمكانية الوصول إلى سوق كبير، بينما ستستفيد روسيا من مشروع التكامل الإقليمي الخاص بها والذي يكتسب شرعية دولية متزايدة.

تحتل عقود الأسلحة مكانةً بارزةً في العلاقات الاقتصادية بين البلدين. ففي عام 2014 وقّعت روسيا ومصر عدة صفقات بقيمة تزيد على 3.5 مليار دولار[4] لتسليم طائرات مقاتلة جديدة MiG-29M/M2 وطائرات هليكوبتر Mi-35M ومجمعات صواريخ S-300VM وأنظمة دفاع ساحلية وما إلى ذلك. وفي وقت لاحق، في عام 2015، اشترت مصر 50 طائرة هليكوبتر من طرازKa-52[5] وحاملتي طائرات هليكوبتر من طراز Mistral (التي كان من

(1) «Egypt and Russia Sign 50-Year Industrial Zone Agreement,» Reuters, May 23, 2018. https://af.reuters.com/article/egyptNews/idAFL5N1SU5SI.

(2) Hagar Omran, «Russian-Egyptian Political Rapprochement to Propel Economic Cooperation Forward,» Daily News Egypt, October 17, 2018. https://dailynewssegypt.com/201817/10//russian-egyptian-political-rapprochement-to-propel-economic-cooperation-forward/.

(3) «Egypt, EAEU Can Sign Free Trade Zone Agreement in 2020: Russian Minister,» Egypt Today, June 22, 2019. https://www.egypttoday.com/Article/371919//Egypt-EAEU-can-sign-free-trade-zone-agreement-in-2020.

(4) Nikolay Kozhanov, «Arms Exports Add to Russia's Tools of Infl uence in Middle East,» Chatham House, July 20, 2016. https://www.chathamhouse.org/expert/comment/arms-exports-add-russia-s-tools-infl uence-middle-east.

(5) «Source: Egypt Buys 50 Russian Alligator Helicopters, Deck-Based Version May Be Supplied,» ITAR-Tass, September 23, 2015. http://tass.com/defense/823140.

المقرر بيعها في البداية لفرنسا ولكن لم يتم تسليمها بسبب العقوبات على روسيا والمتعلقة بشبه جزيرة القرم في عام 2014)[1]. وفي نهاية 2018 أبرم البلدان صفقة أسلحة أخرى بقيمة 2 مليار دولار على الأقل لتسليم عشرات الطائرات المقاتلة من طراز Su-35 (Flanker-E)[2].

جميع تلك العقود الكبيرة أصبحت ممكنة بفضل القرار الأمريكي بتعليق بعض المساعدات العسكرية ومنع تسليم المعدات إلى مصر بعد انقلاب 2013. وقد استغلت روسيا الفرصة بشكل فعّال، وأبرمت صفقات أسلحة مربحة على مستوىً لم نشهده منذ الستينيات.

علاوة على ذلك، تهدف روسيا إلى بناء أول محطة للطاقة النووية في مصر NPP في منطقة الضبعة. كما تخطط روسيا لمنح قرض بقيمة 25 مليار دولار لمصر لإتمام هذا المشروع، على أن يتم سداده في غضون خمسة وثلاثين عاماً. وفي الواقع، تنوي موسكو إنشاء صناعة جديدة بالكامل في البلاد وستقوم بتدريب جيل من المتخصصين. ومن الآن، تلقّى مشروع NPP إشعاراً بالموافقة على الموقع من الهيئة المصرية للرقابة النووية والإشعاعية ENRRA وقد يبدأ العمل في الموقع في عام 2021[3].

أدى تحسّن العلاقات الاقتصادية إلى جعل مصر بالفعل ثاني أهم شريك لروسيا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بعد تركيا. بل إن هناك إمكانات أخرى، خاصة في مجال الطاقة والتصنيع. وهكذا تمكنت موسكو من تحقيق الدخل من الروابط التاريخية، وتغيرات البيئة الإقليمية، والاستفادة من تصدع علاقة مصر بالولايات المتحدة. ولكن يظل للتعاون التجاري والاستثماري حدود لا يمكن تجاوزها. فالاقتصاد الروسي الذي أعيته الاضطرابات والعقوبات الغربية لديه فرص قليلة للتنافس على المدى الطويل مع الولايات المتحدة

(1) Thomas Gibbons-Neff, «Egypt to Buy French Mistral Landing Ships Originally Intended for Russia,» Washington Post, September, 23, 2015. https://www.washingtonpost.com/news/checkpoint/wp/201523/09//egypt-to-buy-french-mistral-landing-ships-originally-intended-for-russia/.

(2) Alexey Khlebnikov, «Russia Looks to the Middle East to Boost Arms Exports,» Middle East Institute, April 8, 2019. https://www.mei.edu/publications/russia-looks-middle-east-boost-arms-exports.

(3) «Russia Lends Egypt $25 Billion for Dabaa Nuclear Power Plant,» Al-Monitor, February 26, 2020. https://www.al-monitor.com/pulse/originals/202002//powerplant-nuclear-egypt-russia-loan.html.

والاتحاد الأوروبي. فلدى كليهما الكثير ليقدماه، لا سيما في مجال التقنيات والاستثمار الأجنبي المباشر.

المحددات

لدى كل من روسيا ومصر وجهات نظر متباينة حول العديد من الملفات الإقليمية: كدور حزب الله وإيران في المنطقة، والحرب في اليمن، على سبيل المثال لا الحصر. ولا تزال هنالك اختلافات بينهما حول مختلف الشؤون الإقليمية. لم يؤثر التدخل السوفيتي في أفغانستان في مسار تطبيع العلاقات الثنائية البطيء في عهد الرئيس مبارك في الثمانينيات[1]. كما لم تُعق وجهات النظر المتعارضة بشأن القضايا الإقليمية العلاقات المزدهرة منذ العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حتى الآن. بل إن ما يمكن أن يضع قيوداً على العلاقة على المدى القصير إلى المتوسط هو العوامل الهيكلية التالية: الشراكة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة ومصر، والاعتماد المالي على دول الخليج العربي، وسياسة العقوبات الأمريكية.

الشراكة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة ومصر

من المهم أن نتذكر أن الغالبية العظمى من الشركاء الاقتصاديين الرئيسيين لمصر، باستثناء الصين وروسيا هم أيضاً حلفاء للولايات المتحدة. وهذا يشمل الإمارات والسعودية وكندا والاتحاد الأوروبي الذي يتصدر القائمة. إذ تقدم أمريكا 1.3 مليار دولار كمساعدات مالية لمصر. إلى جانب ذلك، تعتمد القاهرة منذ عام 2011 على تمويل دول مجلس التعاون الخليجي والتي تقودها السعودية، وهذا يساعد مصر على الحفاظ على اقتصادها صامداً، وإلى حد ما يمنع القاهرة من انتقاد سياسات المملكة في المنطقة بشكل علني. فعلى مدى السنوات الأربع الماضية، بلغت قيمة تحويلات دول مجلس التعاون الخليجي ومساعداته المالية والمنح والاستثمارات المباشرة والقروض بدون فائدة أكثر من 35 مليار دولار[2]. فمنذ

(1) Podtserob, Rossia i Arabskii Mir, 103.

(2) Iman K. Harb, «An Economic Explanation for Egypt's Alignment in the GCC Crisis,» A rab Center, August 9, 2017. http://arabcenterdc.org/policy_analyses/an-economic-explanation-for-egypts-alignment-in-the-gcc-crisis.

ثورة 2011، دعمت دول الخليج مصر بحوالي 92 مليار دولار[1]. كما تعتمد مصر أيضاً بشكل كبير على صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وكل ذلك يشكل في الواقع حجة قوية ضد أولئك الذين يشككون في أولويات مصر الاستراتيجية.

ولكن هذا لا يعني أن نهج القاهرة مماثل لنهج المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة في القضايا الإقليمية الحرجة، مثل إيران واليمن وسورية، وليبيا. وبالتالي، تبرز وجهات نظر مصر القوية وجهودها لتأكيد سيادتها جنباً إلى جنب مع تحالفها مع الولايات المتحدة والخليج، لتجعلها شريكاً مهماً لروسيا. ولا بد أن ننظر إلى مكانتها لأهميتها بوصفها الدولة العربية الأكثر اكتظاظاً بالسكان (أكثر من 95 مليوناً) وتأثيرها على الرأي العام في جميع أنحاء الشرق الأوسط. ففي النهاية، مصر دولة مهمة بفضل حجمها وقدرتها على رسم سياسة خارجية خاصة بها، على الرغم من صلاتها بالولايات المتحدة والخليج.

لا شك أن مصر تنظر إلى روسيا كثقلٍ موازنٍ للنفوذ الأمريكي ومصدر للضغط. ولكن رغم قدوم إدارة بايدن ونهجها التقليدي، إلى حدٍ ما، تجاه المنطقة (ألا وهي رغبة تلك الإدارة في تقليل انخراطها في المنطقة بشكل أكبر)، قد تميل القاهرة بسهولة إلى واشنطن كما كانت في فترة ما قبل أوباما. وإذا ما أظهرت سياسة بايدن في الشرق الأوسط التزاماً تجاه مصر، أو ضغطت على القاهرة لتقليل تعاونها مع موسكو، فإن احتمالية حدوث مثل هذا السيناريو ستزداد بالتأكيد. وفي النهاية، يبقى لدى الولايات المتحدة الكثير لتقدمه لمصر أكثر مما تقدمه روسيا.

سياسة الولايات المتحدة القائمة على العقوبات

تُشكل العقوبات الأمريكية عقبة إضافية أمام التعاون العسكري الفني بين روسيا ومصر. ففي آب/أغسطس 2017، وقّع الرئيس دونالد ترامب قانون مكافحة أعداء أمريكا من خلال العقوبات CAATSA. وبموجب هذا القانون، يمكن للدول التي تتعامل مع قطاعي الدفاع والاستخبارات في روسيا أن تواجه عقوبات ثانوية. وهذا يعني أن الولايات المتحدة في وضع يسمح لها بفرض عقوبات على مصر لتعاونها مع روسيا في المجال العسكري الفني.

(1) «Gulf Countries Supported Egypt with $92bn since 2011,» Middle East Monitor, March 19, 2019.
https://www.middleeastmonitor.com/20190319-gulf-countries-supported-egypt-with-92bn-since-2011/.

ومن المحتمل أن يكون عقد مصر الجديد مع روسيا لشراء مقاتلات Su-35 في خطر. إذ تعد مصر من بين أهم شركاء الولايات المتحدة في المنطقة، كما أن اهتمامها المستمر بالتكنولوجيا العسكرية والأسلحة الروسية يثير استياء الولايات المتحدة.

هذا وقد فرضت واشنطن بالفعل عقوبات ثانوية على كل من بكين، بسبب شرائها مقاتلات روسية من طراز Su-35 وأنظمة S-400 المضادة للطائرات[1]، وتركيا بسبب شرائها مجموعة أخرى من صواريخ أرض-جو. شكّل هذا سابقة إذ يرسل إشارة واضحة لشركاء الروس بأن الولايات المتحدة قد تعاقبهم أيضاً. وبالفعل فقد حذرت الولايات المتحدة القاهرة من أنها ستواجه عقوبات إذا ما استمرت في شراء طائرات مقاتلة روسية من طراز Su-35 [2]. وفي الواقع، تعرّض هذه العقوبات العديد من الدول للخطر، بما في ذلك شركاء موسكو القدامى، وليس مصر فقط.

ومع ذلك، ونظراً لهشاشة اقتصاد مصر فمن غير المرجح أن تفرض أمريكا عقوبات قاسية عليها. فمثل هذه الخطوة يمكن أن تؤدي إلى مخاطر محتملة، من شأنها بالتأكيد أن تطيح بالرئيس عبد الفتاح السيسي. وبالتالي يبدو أن كلاً من مصر والولايات المتحدة مهتمتان بالفعل في التوصل إلى حل وسط.

الاعتماد المفرط على مساعدات مجلس التعاون الخليجي

كما سبق وذكرنا، لا تزال مصر تعتمد اعتماداً كبيراً على شركائها في دول مجلس التعاون الخليجي الذين يزودونها بالمساعدات المالية والاقتصادية اللازمة. وهذا الاعتماد المفرط على المنح والقروض يضع مصر في موقف حساس ويقيد موقفها الخارجي. وفي الوقت نفسه، فبفضل هذا التمويل، أصبحت مصر قادرة على دفع ثمن السلع القادمة من موسكو، بما في

(1) Lesley Wroughton and Patricia Zengerle, «U.S. Sanctions China for Buying Russian Fighter Jets, Missiles,» Reuters, September 20, 2018.
https://www.reuters.com/article/us-usa-russia-sanctions/u-s-sanctions-china-for-buying-russian-fi ghter-jets-missilesidUSKCN1M02TP.

(2) Jeremy Binnie, «Egypt Faces Sanctions If It Buys Su-35s from Russia, US Warns,» Jane's 360, April 10, 2019.
https://www.janes.com/article/87808/egypt-faces-sanctions-if-it-buys-su-35s-from-russia-us-warns.

ذلك الحبوب والأسلحة. وبالتالي، إذا ما قلّصت دول مجلس التعاون الخليجي مساعداتها أو توقفت عن مساعدة مصر أو قررت مساعدتها ضمن شروط؛ فقد يكون لذلك تأثير مباشر على علاقات موسكو الاقتصادية مع مصر. ورغم صعوبة استبدال الصادرات الروسية إلى مصر نسبياً، نظراً لنسبة التكلفة الجذابة للأسلحة والقمح الروسيين، إلا أنه ما يزال خطر إفساد التعاون مع القاهرة قائماً تحت ضغط عوامل خارجية.

نتيجة

من الجلي أن كلاً من مصر وروسيا مهتمتان بالتنمية والاستفادة من علاقاتهما الثنائية الوثيقة. إذ تريد القيادة المصرية تنويع شراكاتها الدولية من أجل توسيع استقلاليتها الاستراتيجية وتعظيم العوائد الجيوسياسية والاقتصادية. وفي الوقت نفسه، تريد موسكو ضمان عدم حدوث أي تحول كبير في القوة لدى مصر، أو المنطقة الأوسع عموماً، مع جني الفوائد الأمنية والتجارية من خلال التعاون. إن احتياج موسكو للقاهرة يتعزز أيضاً بسبب الاضطرابات في ليبيا، جنباً إلى جنب مع الطموحات الروسية للعب دور بنّاء هناك وكذلك زيادة تواجدها في شمال إفريقيا.

وفي ضوء كل ذلك، يبدو من المهم مراقبة السياسة التي ستتبعها الولايات المتحدة تجاه القاهرة في السنوات التالية. فقد يكون لرئاسة بايدن والبيئة الدولية المتغيرة تأثيراً خطيراً على نهج الولايات المتحدة تجاه مصر والمنطقة عموماً. وسيوضح ذلك ما إذا كانت مصر ستستبقي روسيا إلى جانبها أو تنحرف عن نهجها التقليدي واضعةً كل البيض في سلة واحدة. أما في الوقت الحالي، فمن الواضح أن واشنطن غير راغبة في زيادة انخراطها العسكري في المنطقة أو تغيير نهجها بشكل جذري والذي ظل ثابتاً نسبياً على مدار الاثني عشر عاماً الماضية.

وعلى الأرجح ستبقى سياسة روسيا تجاه مصر تعكس مصالحها الأمنية والاقتصادية. وطالما أن الديناميات الإقليمية في الشرق الأوسط تسمح لموسكو بجني فوائد أكبر من القاهرة، فإنها ستستمر في قيامها بذلك. ولكن إذا انقلب الوضع ضد روسيا، فسوف يشهد نفوذها تراجعاً. فليس لدى موسكو القدرة ولا النفوذ المطلوبين لمواجهة الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي إذا ما تواصلتا مع مصر.

لا شك أن روسيا تعمل تدريجياً على بناء روابط مع المصريين، وتسويق نفسها كشريك لا غنى عنه في جميع المجالات. وهي في الوقت نفسه، قد تعلمت دروسها من التجربة السابقة، ولن تبالغ كثيراً في الاستثمار في علاقة يمكن أن تتغير بين عشية وضحاها.

ولا يمثّل تكثيف العلاقات الروسية المصرية وتعميق بصمة روسيا في المنطقة تحدياً فحسب، بل يوفران لها أيضاً فرصاً للتعاون مع أوروبا. فهي تشكل فرصة لتعميق التعاون في مكافحة الإرهاب والاتفاق على تدابير مشتركة لتحقيق الاستقرار في ليبيا. كما يمكن أن تشكل شبكة علاقات موسكو الواسعة مع جميع الأطراف المتصارعة في ليبيا أساساً للتعاون بين الاتحاد الأوروبي وروسيا. هذا وقد زاد كل من التدخل التركي في أوائل عام 2020 وأهمية استقرار ليبيا بالنسبة لجنوب أوروبا من ضرورة قيام التعاون.

وبالمثل، فإن التواجد البحري الروسي المتنامي في البحر المتوسط عبر طرطوس في سورية، ووصولها المستقبلي المحتمل إلى البنية التحتية العسكرية في مصر، سيمثّلان تحدياً لأوروبا. ولكن ذلك سيجعل التنسيق مع موسكو في المجالات البحرية أولوية لا بد منها. وبالتالي سيحتاج جميع الأطراف إلى تعلم كيفية التعايش والعمل معاً في بيئة مشتركة. ثالثاً، أن المنافسة ستشتد بين منتجي السلاح من الروس والأوروبيين على سوق السلاح في شمال إفريقيا، ولن تكون مصر آخر المتنافَس عليهم في المنطقة.

الفصل 13

«الرفاق» في المغرب العربي

داليا غانم

في أيامه، كان الاتحاد السوفيتي يتمتع بعلاقات مستقرة مع دول المغرب العربي، تعتمد على الانتماءات السياسية. وبعد تلاشي نفوذ موسكو في التسعينيات مع انهيار الدولة السوفيتية. تعمل روسيا منذ أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على استعادة مكانتها، مستخدمة في سبيل ذلك مواردها الاقتصادية. وقد سعت روسيا بجدية للاستفادة من الفرص وجذب الدول المغاربية، بالاعتماد على دبلوماسيتها في مجال الطاقة ومبيعات المعدات العسكرية. فردّت روسيا بحذر على الثورات العربية هناك في أوائل عام 2011. ودعت أولاً[1] القوى الخارجية إلى عدم التدخل، ثم أعربت عن قلقها بشأن احتمال صعود الإسلاميين المتطرفين[2] في تونس ومصر وليبيا.

وعلى الرغم من ترددها في البداية، انحازت روسيا إلى الغرب وقبلت نظاماً سياسياً أكثر ديمقراطية. لقد أتاح تراجع النفوذ الأمريكي في المنطقة، وعودة بوتين إلى الرئاسة في عام 2012، والديناميات السياسية في العالم العربي فرصة لروسيا لإظهار نفوذها، وتعزيز ظهورها

(1) «Otvet Ministra Inostrannyh Del Rossii S.V. Lavrova na Vopros Korrespondenta RIA Novosti o Situatsii v Egipte [The Foreign Minister of Russia Sergei Lavrov's Answer to the RIA Novosti Reporter's Question about the Situation in Egypt],» MID. ru, February 3, 2011. http://www.mid.ru/ru/press_service/minister_speeches/-/asset_publisher/7OvQR5KJWVmR/content/id/220434.

(2) «Vyderzhki iz Stenografi cheskogo Otchiota o Zasedanii Natsionalinogo Antiterroristicheskogo Komiteta [Extracts from the Report on the Meeting of National Counter-terrorist Committee of Russia],» Kremlin.ru, February 22, 2011. http://kremlin.ru/events/president/news/10408.

دولياً، واستعادة نفوذها المفقود. كما سيستفيد الكرملين من نجاحه العسكري في سورية أيضاً في وقت لاحق.

يتناول هذا الفصل العلاقات مع ثلاث دول في المغرب العربي: المغرب والجزائر وتونس. وهو يعالج سؤالين رئيسيين. أولاً، ما هي أهداف روسيا في شمال إفريقيا، وما هي الوسائل المتبعة لتحقيقها؟ وما هي احتمالات انخراط موسكو في المنطقة؟[1]؛ إذ تعيد موسكو بناء وجودها من خلال صفقات الطاقة والاتصالات والمجالات الإنسانية والتجارة والروابط الأمنية والدفاعية. باختصار، يكمن الدافع وراء السياسة الروسية في التنافس مع الغرب، والسعي للحصول على مكانة في الشؤون الدولية، والبحث عن منافع اقتصادية.

روسيا والجزائر: أكثر من مجرد أسلحة

الجزائر بلد مهم لسياسة روسيا في الشرق الأوسط، والمغرب العربي، وكذلك في البحر المتوسط وأفريقيا، كما أن للعلاقات الثنائية جذوراً تاريخيةً عميقةً. فخلال حرب الاستقلال (1954-1962)، دعم الاتحاد السوفيتي وأتباعه في أوروبا الشرقية جبهة التحرير الوطني FLN وأرسلوا مساعداتٍ عسكرية إلى جناحها المسلح، جيش التحرير الوطني ALN، كما أقام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية علاقاتٍ دبلوماسية مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GPRA في وقت مبكر من عام 1962. وفي السنوات والعقود التالية، ازدهر التعاون في مجالات التجارة والطاقة والدفاع بسبب القروض السوفيتية. إلى جانب ذلك، بقي العشرات من المتطوعين والمستشارين العسكريين والفنيين الروس (على سبيل المثال، في مجال صناعة النفط) في الجزائر لفترات طويلة[2]. وتلقى آلاف الجزائريين تعليمهم في موسكو ولينينغراد (التي تسمى الآن سان بطرسبرغ).

كانت الجزائر حليفاً قديماً، وكانت أيضاً زبوناً مخلصاً للأسلحة وأنظمة الدفاع السوفيتية. فبين عامي 1962 و1989، يُعتقد أن موسكو قدمت لها 11 مليار دولار من المعدات العسكرية،

---

(1) هذا الفصل هو نسخة موسعة ومحدّثة من المساهمة التي شاركت في تأليفها داليا غانم وفاسيلي كوزنتسوف لمجلة EUISS Chaillot العدد 146،

«Russia's Return to the Middle East Building Sandcastles?,» July 2018, Paris.

(2) Robert O. Freedman, S oviet Policy towards the Middle East since 1970 (New York: Praeger, 1982), 17, 19, 37.

أي ما يصل إلى 80 % من مخزون الجزائر من الأسلحة[1]، وقد تم دفع ثمن هذه الأسلحة من خلال القروض السوفيتية. كما قدم الاتحاد السوفياتي قروضاً ميسرة لبناء الصناعات الثقيلة الجزائرية مثل الصلب وإنتاج المعدات. وفي التسعينيات، توقفت العلاقة، حيث واجه البلدان تحديات محلية. فبين عامي 1991 و2002 «العقد الأسود»، غرقت الجزائر في حرب أهلية. وكان على روسيا أن تتعامل مع تداعيات تفكك الاتحاد السوفيتي وإصلاح نظامها الاقتصادي والسياسي. وكانت كلتا الدولتين تنظران نحو الداخل وتنفقان الجزء الأكبر من الموارد في سبيل مواجهة التحديات المحلية.

منذ بداية الألفية الجديدة، حاولت روسيا استعادة موقعها السابق في هذا السوق المربح. مع زيادة واردات الأسلحة بنسبة 277 % بين عامي 2012 و2016، وقد أصبحت الجزائر الآن خامس أكبر مستورد للأسلحة في العالم[2].

أدت روسيا دوراً رائداً في زيادة الاستحواذ على هذا السوق؛ ففي عام 2006، أعلنت موسكو عن تسوية دين الجزائر البالغ 4.7 مليار دولار تعود إلى الحقبة السوفيتية[3]. وكما هو الحال في أماكن أخرى في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مهّد شطب الديون الطريق لتحسين العلاقات. وفي العام نفسه، طلبت الجزائر دبابات قتالية روسية ونظام صاروخي ومقاتلات نفاثة وطائرات تدريب بقيمة 7.5 مليار دولار[4]. هذه الصفقة وغيرها من الصفقات التالية جعلت من روسيا مورّداً رئيسياً للأسلحة إلى الجزائر، حيث استحوذت على 90 % من الواردات

(1) Mark N. Katz, «Russia and Algeria: Partners or Competitors?,» M iddle East Policy Council 14, no. 4 (Winter 2017). http://www.mepc.org/journal/russia-and-algeria-partners-or-competitors.

(2) «Trends in International Arms Transfers, 2016,» SIPRI Fact Sheet, February 2017. https://www.sipri.org/sites/default/files/Trends-in-international-arms-transfers-2016.pdf.

(3) «Cooperation: la Russie Annule une Dette Algerienne de 4,7 milliards de dollars,» Alg érie Monde Infos, January 13, 2018. http://www.algeriemondeinfos.com/201813/01//cooperation-russie-annule-dette-algerienne-de-47-milliards-de-dollars/.

(4) Andrew McGregor, «Defense or Domination? Building Algerian Power with Russian Arms,» E urasia Daily Monitor, September 5, 2018. https://jamestown.org/program/defense-or-domination-building-algerian-power-with-russian-arms/.

بين عامي 2009 و2013[1]. ونتيجة لذلك، ارتفع إجمالي التجارة بين الجزائر وروسيا من 700 مليون دولار في عام 2007 إلى ما يقرب من 5.4 مليار دولار في عام 2018، أكثر من ثلثي هذه التجارة كان عبارة عن أسلحة[2]، جاعلة هذه الدولة الواقعة في شمال إفريقيا من بين أكبر ثلاثة مشترين للأسلحة الروسية. وفي الفترة بين 2014-2018، ذهب ما يقارب 14 % من جميع صادرات الأسلحة الروسية إلى الجزائر، وهو ما يعادل حصة مبيعات الأسلحة الروسية المخصصة للصين. ولاحقاً، بدأت الجزائر تحاول تنويع وارداتها، على سبيل المثال، من خلال تحوّلها نحو موردين من الصين وإيطاليا والسويد. فانخفضت حصة روسيا في الفترة من 2014 إلى 2018 إلى 66 % من واردات الجزائر من الأسلحة[3]. وعلى الرغم من هذه التقلبات، تبقى الجزائر مرشّحة لتكون السوق الرئيسي لتصدير الأسلحة لروسيا في المنطقة، حتى لو واجهت منافسة شرسة. وقد يمتد التعاون إلى مجالات أخرى: كقطاع التكنولوجيا الرقمية وكذلك في مجال الأمن السيبراني[4].

على الرغم من تعافي التجارة بين روسيا والجزائر في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، إلا أنها لا تزال قليلة الأهمية بالنسبة لكلا الجانبين. فقد استحوذت الجزائر على ما يقرب من 0.8 % من إجمالي حجم التجارة الروسية في عام 2018، هذه العلاقة مجحفة إلى حدٍ كبير؛ ليس فقط لأن روسيا تمتلك فائضاً مربحاً يزيد عن 5 مليارات دولار، ولكن لأن حجم المبيعات سيصب في صالح المنتجات الصناعية في موسكو. ولذلك كانت الشراكة الإستراتيجية في عام 2001 التي هدفت إلى إطلاق «بداية جديدة» للعلاقات لمصلحة روسيا أولاً. وفي المقابل تزوّد الجزائر سوق الغذاء الروسي المتأثر بالحظر المفروض على الواردات الزراعية من الاتحاد الأوروبي بالخضروات والفواكه الطازجة. وقد شكلت الزراعة 86 % من

(1) «Trends in International Arms Transfers, 2018,» SIPRI Fact Sheet, February 2018. https://www.sipri.org/sites/default/fi les/201903-/fs_1903_at_2018.pdf.

(2) «Russian Trade with Algeria in 2018,» Russian Foreign Trade, February2019 ,10 . http://en.russian-trade.com/reports-and-reviews/201902-/russian-trade-with-algeria-in-2018/.

(3) «Trends in International Arms Transfers, 2018.»

(4) «Alexey Shatilov, Representant Commercial de la Russie: 'Nous Pouvons Aider l'Algerie dans le Domaine des Hautes Technologies,'» Algerie Eco, June 22, 2017. https://www.algerie-eco.com/201722/06//alexeyshatilov-representant-commercial-derussie-pouvons-aider-lalgerie-domaine-hautes-technologies/.

الصادرات الجزائرية في 2018، بقيمة 10.5 مليون دولار[1]. ويبقى هذا الرقم ضئيلًا بالمقارنة مع دول شمال إفريقيا الأخرى. فعلى سبيل المثال، بلغ إجمالي صادرات تونس إلى روسيا 136 مليون دولار ومصر 526 مليون دولار في العام نفسه[2].

قد يتحسن وضع موسكو في حالة اقتحام مُصدّري القمح الروس السوق الجزائرية. والجزائر جذابة في الحقيقة، لأنها ثالث أكبر مستورد للقمح على مستوى العالم، حيث يبلغ استهلاكها الوطني السنوي 10 ملايين طن. ومنذ استقلال الجزائر، ظلت فرنسا المورد الرئيسي لقمح الجزائر، حيث تذهب 55 % من صادراتها من الحبوب إلى أراضيها السابقة. وقد استوردت الجزائر ما لا يقل عن 4.6 مليون طن من القمح الفرنسي في نهاية أبريل 2018. ولكن هذا الوضع قد يتغير؛ ففي تشرين الأول/أكتوبر 2018، قررت السلطات الجزائرية البحث عن مصادر أخرى أرخص وأعلنت عزمها على استيراد الحبوب من روسيا، وعلى إثر ذلك، زار وفد من موسكو الجزائر لأخذ عينة لتحليلها، قبل إبرام اتفاق رسمي[3]. وعقب الزيارة، أرسلت روسيا أولاً شحنة تجريبية من القمح في ربيع 2019[4]. وروسيا مؤهلة جداً للمنافسة في السوق الجزائري، ففي عام 2017، أنتجت روسيا 135 مليون طن من الحبوب، متجاوزة الرقم القياسي للاتحاد السوفيتي لعام 1978 البالغ 127.4 مليون طن[5].

كما حاولت روسيا إطلاق تعاون في مجال الطاقة. ففي عام 2006، وقعت شركة غازبروم

---

(1) «Russian Trade with Algeria in 2018.»

(2) «Russian Trade with Tunisia, 2018,» Russian Foreign Trade, February 10, 2019. http://en.russian-trade.com/reports-and-reviews/201902-/russian-trade-withtunisia-in-2018/; «Russian Trade with Egypt, 2018,» Russian Foreign Trade, February 10, 2019. http://en.russian-trade.com/reports-and-reviews/201902-/russian-trade-with-egypt-in-2018/.

(3) «L'Algerie a Importe 4,6 millions de tonnes de Ble Francais,» El Watan. com, May 30, 2019. https://www.elwatan.com/edition/economie/lalgerie-a-importe-46-millions-de-tonnes-de-ble-francais-302019-05-.

(4) Polina Ivanova, «Russia Sends Test Shipment of Wheat to Algeria,» Z AWYA, March 21, 2019. https://www.zawya.com/mena/en/story/Russia_sends_test_shipment_of _wheat_to_Algeria-TR20190321nL8N2184PPX1.

(5) Anatoly Medetsky, «Soviet-Era Grain Record Seen Tumbling on Bumper Russian Crop,» Bloomberg, August 21, 2017. https://www.bloomberg.com/news/articles/201721-08-/soviet-era-grain-record-seen-tumbling-on-bumper-russian-harvest.

وشركة النفط والغاز المملوكة للحكومة الجزائرية سوناطراك مذكرة تفاهم MoU وأقام الجانبان في وقت لاحق في عام 2008 مشروعاً مشتركاً لاستكشاف حقل الأصيل البري[1]. ومع ذلك، لا تزال العلاقات في مجال الطاقة محدودة. فالجزائر هي أكبر منتج للغاز الطبيعي في إفريقيا وثاني أكبر منتج للنفط بعد نيجيريا. كما أنها تعد ثالث أكبر مورد للغاز في أوروبا بعد النرويج وروسيا، وبالتالي فهي تتنافس معهما على نفس السوق. ومع ذلك، ما يزال احتمال إقامة مزيد من التنسيق بين منتجَي الغاز محتملاً، مما يسلط الضوء على اعتماد أوروبا على الإمدادات الخارجية.

كما تنشَط روسيا أيضاً في قطاع التكنولوجيا النووية المدنية. فبعد توقيع اتفاقية عام 2014 بثلاث سنوات تم توقيع مذكرة تفاهم بين الهيئة الجزائرية للطاقة الذرية COMENA والمؤسسة الحكومية الروسية للطاقة الذرية Rosatom. وكانت الجزائر تخطط لإنشاء محطة طاقة نووية بمفاعل ماء مضغوط بحلول عام 2025[2]. وهذا يسمح لموسكو بعرض تقنيتها في جميع أنحاء المنطقة.

وقد خلقت التطورات الداخلية الأخيرة في الجزائر حالة من عدم اليقين في العلاقات مع روسيا. وما يزال الكرملين يراقب الاحتجاجات الجماهيرية عن كثب في البلاد منذ عام 2019. فقد اندلعت احتجاجات سلمية في الجزائر في 22 شباط/فبراير 2019، رفضاً لترشيح بوتفليقة لولايةٍ خامسة[3]. وردّاً على ذلك، أعلن وزير الخارجية الروسي، سيرغي لافروف، في آذار/مارس 2019، قبل رحيل بوتفليقة، أن روسيا «قلقة للغاية» إزاء ما يحدث في الجزائر

(1) «Algeria,» Gazprom.
http://www.gazprom.com/about/production/projects/deposits/algeria/; «Gazprom's Next Acquisition—Algeria?,» Oilprice.com, February 22, 2014.
https://oilprice.com/Energy/Natural-Gas/Gazproms-Next-Acquisition-Algeria.html.

(2) «Accord Algero-Russe pour la Construction d'une 1re Centrale Nucleaire,» Le Matin d'Algerie, September 3, 2014.
http://www.lematindz.net/news/15106-accord-algerorusse-pour-la-construction-dune-1re-centrale-nucleaire.html; «Algeria, Russia Ink Five Cooperation Agreements,» Algeria Press Service, June 27, 2018.
http://www.aps.dz/en/economy/20532-algeria-russia-ink-five-cooperation-agreements.

(3) Dalia Ghanem, «Another Battle of Algiers,» N ew York Times, March 13, 2019. https://www.nytimes.com/201913/03//opinion/algeria-protests-president-military.html.

و«من المحاولات المستمرة لزعزعة استقرار البلاد». وفي وقتٍ لاحق، أظهرت روسيا مزيداً من الحذر. فقد أعربت روسيا من خلال المتحدثة باسم وزارة الخارجية، ماريا زاخاروفا، عن أملها في أن «يستمر حل المشاكل بشكل بناء ومسؤول»، وأصرت على أن «الأمر شأن داخلي لدولة صديقة لروس »[1].

كانت روسيا حذرة لأنه في تلك المرحلة كان من الصعب التنبؤ بنتائج الاحتجاجات، وكانت روسيا بحاجة إلى الحفاظ على نفوذها طويل الأمد في الدولة الواقعة في شمال إفريقيا وصفقات الأسلحة القيمة معها. بالنسبة لروسيا، كان من الضروري الحفاظ على هذه العقود بغض النظر عمّن سيخلف بوتفليقة. وقد استقال الأخير في نهاية المطاف، وحلّ محله الرئيس المؤقت عبد القادر بن صالح. ومع ذلك، لم تتوقف الاحتجاجات السلمية رغم انتخاب الرئيس الجديد، عبد المجيد تبون، في كانون الأول/ديسمبر 2019[2]. ومنذ ذلك الحين، رحّبت روسيا بنتائج التصويت، وما لبث الرئيس بوتين أن وجّه دعوة رسمية إلى تبون لزيارة موسكو. ولكن نظراً لتفشي كوفيد-19، كان لا بد من تأجيل الزيارة إلى موعد لاحق. ولكن، ما يزال هناك شيء واحد مؤكد لدى روسيا: فبالنسبة لها، كان تبون بشرى سارة، فقد أظهر النظام القديم أنه قادر على إعادة تجديد نفسه. ومن المرجّح أن تستمر روسيا في دعم النظام الجزائري، أو ما تبقى منه، للحفاظ على نفوذها السياسي والاقتصادي في تلك الدولة المغاربية المحورية.

روسيا تغازل المغرب

لم تمنع العلاقات الوثيقة مع الجزائر روسيا من التواصل مع المغرب، جار الجزائر ومنافسها الذي لطالما كانت العلاقات معه عدائية، بسبب الصراع المستمر منذ عقود حول الصحراء الغربية. وحسب التقاليد الدبلوماسية السوفيتية، تهدف موسكو إلى تطوير الروابط مع جميع

(1) «Russia Hopes Algeria Will Resolve Its Issues in Constructive Manner,» Russia News Agency, March 12, 2019. https://tass.com/world/1048369.

(2) The peaceful and civil nature of these protests is important to note. For more information, read Dalia Ghanem, «A Protest Made in Algeria,» Carnegie, April 2, 2019. https://carnegie-mec.org/201902/04//protest-made-in-algeria-pub-78748. In addition, it should be said that at the time when these lines are being written, the demonstrators agreed upon a truce with the government because of the COVID-19 pandemic.

دول شمال إفريقيا، دون تشكيل تحالف حصري مع أي منها[1]؛ ففي عام 2016، وقّعت روسيا «شراكة استراتيجية عميقة» مع المغرب، تماماً كما فعلت مع الجزائر في عام 2001. وبعد عام، وقّع البلدان 11 اتفاقية تعاون، ركزت إحداها على صادرات الأسلحة[2].

هذا وتطبق روسيا سياسة «الحياد الإيجابي» فيما يتعلق بقضية الصحراء الغربية، على عكس الاتحاد السوفيتي، الذي تعاطف مع الجزائريين وقدّم لهم دعماً سرياً[3]. وأظهرت «الشراكة الاستراتيجية العميقة» لعام 2016 أن روسيا الاتحادية أخذت بعين الاعتبار موقف المملكة المغربية بهدف حل هذه المشكلة وتنبّه إلى المشاريع الاجتماعية والاقتصادية التي أطلقها المغرب في الأقاليم الجنوبية لتنمية المنطقة وتحسين الظروف المعيشية لسكانها[4]. طوال سنين، تمتع الكرملين بعلاقات حميمة مع جبهة البوليساريو، التي يزور ممثلوها موسكو بانتظام[5]؛ إذ تُظهر روسيا للمغاربة أنها تمتلك نفوذاً يمكن استغلاله إذا لزم الأمر.

هذا وقد شهدت تجارة المغرب مع روسيا نمواً مطرداً منذ منتصف عام 2000، وصل حجمها إلى ما يقرب من 1.5 مليار دولار في 2018 في مقابل 200 مليون دولار في 2001[6].

(1) Freedman, Soviet Policy towards the Middle East, 19.

(2) «Morocco, Russia Promote Cooperation with Signing of 11 Agreements,» Asharq Al-Awsat, October 12, 2017.
https://aawsat.com/english/home/article/1050066/morocco-russia-promote-cooperation-signing-11-agreements.

(3) Freedman, Soviet Policy towards the Middle East, 221–2; «La Position de la Russie sur le Confl it du Sahara Occidental, Selon une Note Confi dentielle Marocaine,» Diaspora Saharaui, January 2016.
http://diasporasaharaui.blogspot.com/201601//la-positionde-la-russie-sur-le-confl it.html.

(4) «King Mohammed Makes a Strategic Visit to Russia,» Submit 123 Press Release, March 16, 2016.
https://newsreleases.submitpressrelease123.com/201618/03//king-mohammed-vi-makes-a-strategic-visit-to-russia/.

(5) Habibulah Mohamed Lamin, «How Polisario Front Hopes to Partner with Russia in Western Sahara,» Al-Monitor, April 11, 2017.
https://www.al-monitor.com/pulse/ru/contents/articles/originals/201704//western-sahara-polisario-sell-russia-moscowvisit.html.

(6) «Russian Trade with Morocco in 2018,» Russian Foreign Trade, February 10, 2019. http://en.russian-trade.com/reports-and-reviews/2019 -02/russian-trade-with-morocco-in-2018/.

كما وقّعت موسكو والرباط عدة اتفاقيات تعاون في قطاعات مثل التعليم، والنقل الجوي، والصيد البحري، والبيئة، والصناعات العسكرية، والطاقة، وكذلك الزراعة[1]. وتمثّل الأخيرة 64 % من الصادرات المغربية إلى روسيا: إذ يتم تصدير 33 % من الحمضيات و15 % من الطماطم المغربية إلى السوق الروسية[2]. والمغرب هو أيضاً أكبر مورد للسردين المجمد إلى روسيا. بينما تهيمن المنتجات المعدنية والكيميائية على صادرات روسيا إلى المغرب (84 % من قيمة الصادرات)[3]. على الرغم من أن تجارتهما آخذة في النمو، إلا أنها لا تزال غير متكافئة إلى حد كبير وأكثر ملاءمة لروسيا. فالمغرب يعاني من عجز، حيث استورد ما قيمته 929 مليون دولار من البضائع من روسيا وصدّر 546 مليون دولار[4]. ومع ذلك، فإن العجز التجاري للمغرب مع روسيا أقل بكثير من الجزائر. ويفسر هذا عدم وجود واردات سلاح كبيرة من روسيا طبيعة العلاقة التجارية بين البلدين.

وقد تم توسيع التعاون بين البلدين ليشمل الطاقة النووية من خلال مذكرة تفاهم وُقعت في عام 2017 بين كل من وزارة الطاقة والمعادن والتنمية المستدامة المغربية وشركة Rosatom. ورغم عدم وجود خطط حتى الآن لبناء محطة طاقة نووية، إلا أن الوثائق تشهد لمصلحة روسيا. كما أن هناك آفاق للتعاون في الشؤون الدينية. إذ تحتاج روسيا لأئمة معتدلين وأفضل تعليمٍ لمواجهة انتشار السلفية بين الشباب وفئة المسلمين المتزايدة في روسيا. وتتطلع موسكو إلى الرباط لردم هذه الفجوة. ففي عام 2016، تبنت كل من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب والمنظمة الدينية المركزية في روسيا مذكرة لتدريب المملكة للأئمة الروس[5].

(1) «Medvedev au Maroc: Onze Accords Signes pour Renforcer le Partenariat Strategique Maroco-Russe,» Huff Post Maghreb, October 11, 2017.
https://www.huff postmaghreb.com/201711/10//medvedev-au-maroconze-accords-signes-pour-renforcer-lepartenariat-strategique-maroco-russe_n_18237080.html.

(2) «Russian Trade with Morocco»; «What Does Morocco Export to Russia?,» OEC, 2017.
https://oec.world/en/visualize/tree_map/hs92/export/mar/rus/show/2017/.

(3) «Russian Trade with Morocco.»

(4) Ibid.

(5) «Morocco to Train Russian Imams,» Morocco World News, March 19, 2016. http://www.moroccoworldnews.com/2016182434/182434/03//.

نجاحات روسية في تونس

تونس هي الشريك الأقل أهمية لروسيا في شمال إفريقيا، ولكن العلاقات بحالة جيدة. ويشير إلى ذلك وجود الرعيتين الروسيتين الأرثوذكسيتين (في تونس وبنزرت)، وكذلك وجود مقر السفارة التونسية في موسكو في قصر رجل ستالين السابق لافرنتي بيريا. ولكن لطالما سادت رمزية تلك العلاقة على جوهرها. فقد اختار الرئيسان الحبيب بورقيبة وزين العابدين بن علي التحالف مع أوروبا والولايات المتحدة بدلاً من الاتحاد السوفيتي. وبعد تغييرات عام 2011، كانت روسيا مستعدة لتطوير العلاقات إما مع حكومة «الترويكا»[1] التي يقودها حزب النهضة (2011-2014) أو مع الباجي قائد السبسي، الذي جاء من حزب النخبة التونسية «القديمة» بقيادة نداء تونس. وقد زار شركاء السبسي موسكو خلال فترة حكم الترويكا في عامي 2012 و2013، وكذلك أعضاء من قيادة حزب النهضة في عامي 2017 و2018. ومنذ ذلك الحين، ناقشت عدة اجتماعات على مستوى المسؤولين تعزيز التعاون في مجالات التجارة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا، والأمن. واستكشف الجانبان إمكانية إنشاء منطقة تجارة حرة[2]. إلا أن الاتصالات توقفت بعد الدورة الانتخابية لعام 2019 في تونس ومأزق تشكيل الحكومة الائتلافية (حتى شباط/فبراير 2020).

أما في المجال الاقتصادي، فيحوي السوق الروسي إمكانات كبيرة بالنسبة للمصدرين التونسيين. إذ تعدّ روسيا ثاني أكبر مستورد للفواكه في العالم والرابع بالنسبة للخضروات. ولكن لم يلاقي مصدرو المنتجات الزراعية التونسيون نجاحاً يذكر في روسيا؛ ومع ذلك، لا تزال حصة تونس في السوق الروسية ثابتة تقريباً، وهي في حدود 13-14 %. وبالحديث عن الإيجابيات، فعلى عكس الجزائر والمغرب المجاورتين، ترسل تونس المزيد من المنتجات الصناعية عالية القيمة إلى روسيا الاتحادية. وتمثّل المنسوجات والآلات والمركبات 78 % من حجم الصادرات. وكما هو الحال مع جيران تونس، تمتلك روسيا فائضاً تجارياً كبيراً قدره 500

(1) كانت الترويكا تحالفاً بين ثلاثة أحزاب، هي: حزب النهضة المستوحى من الحركة الإسلامية، والمنتدى أو التكتل الديمقراطي الاجتماعي للعمل والحريات (FDTL) مع يسار الوسط العلماني، والمؤتمر من أجل الجمهورية (CPR) أو المؤتمر الذي حكم تونس بعد انتخابات الجمعية التأسيسية 2011.

(2) «Tunisia, Russia Contemplate Setting Up of Free Trade Area,» North Africa Post, April 26, 2019.
http://northafricapost.com/30351-tunisia-russia-contemplate-setting-up-offree-trade-area.html.

مليون دولار[1]. وتبقى الاستثمارات الروسية في تونس ضئيلة نسبياً، حيث بلغت في عام 2017 6.8 مليون دولار وخلقت 780 فرصة عمل. وتعمل تسع شركات روسية في تونس في قطاعات الصناعة والزراعة والخدمات[2].

أما التبادلات الثقافية فهي راسخة بين البلدين؛ إذ يشارك المواطنون الروس في المهرجانات الوطنية والدولية التي تقام في تونس كل عام. ويواصل الشباب التونسي الدراسة في روسيا أيضاً. بل إن أعدادهم آخذة في الازدياد نظراً لأن العديد من الجامعات، مثل جامعة صفاقس والمنار، لديها اتفاقيات شراكة مع مؤسسات في روسيا[3]. بالإضافة إلى ذلك، يتم تدريس اللغة الروسية في المعهد العالي للغات في جامعة قرطاج وفي العديد من الجامعات التونسية الأخرى.

هذا وتركز العلاقات الاقتصادية الروسية التونسية قبل كل شيء على السياحة، التي تمثّل 8 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي لتونس. ورغم وجود اتفاقية يعود تاريخها إلى عام 1998، لم تكن تونس أبداً من بين الوجهات الأكثر شعبية لدى السياح الروس. ففي عام 2014، سافر 250 ألفاً فقط إلى تونس، مقارنة بـ 4 ملايين إلى تركيا وأكثر من 2.2 مليون إلى مصر[4]. وقد ألحقت الهجمات الإرهابية عام 2015 على متحف باردو ومنتجع سوسة أضراراً كبيرة بقطاع السياحة في تونس. وقد انخفض عدد الزيارات بشكل عام، حيث انخفض عدد

(1) «Russian Trade with Tunisia.»

(2) «La Tunisie et la Russie Cherchent a Lancer une Zone de Libre-echange,» Xinhuanet, April 27, 2019.
http://french.xinhuanet.com/201927/04-/c_138013696.htm.

(3) Im ene Zine, «Coop eration entre Deux Univerist es Tunisiennes et Leurs Homologues Russes,» L ’ économiste Maghr ébin, April 4, 2018.
https://www.leconomistemaghrebin.com/201804/04//cooperation-universite-tunis-manar-sfax-russes/.

(4) Karolina Prokopovi č, «Russian Tourists May Swap Turkey for Asia,» A viation Voice, March 12, 2015.
https://aviationvoice.com/russian-tourists-may-swapturkey-for-asia-201512030959/; «Posol RF: Turpotok v Tunis Sokratilsya Pochti v Piati Raz v 2015 godu [Ambassador of Russia: The Tourist Flow to Tunisia Has Decreased Five Times in 2015],» RIA Novosti, February 3, 2016.
https://ria.ru/tourism/20160203l369189221/.html.

الزوار من روسيا إلى خمسين ألفاً فقط[1]. ولكن في عام 2016، عاد الروس ليكونوا ثالث أكبر مجموعة سياح في تونس بعد الجزائريين والليبيين[2]. بعد أن منعت الحكومة الروسية مواطنيها من السفر إلى مصر عقب إسقاط طائرة ركاب روسية في الحادي والثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر عام 2015 في حادثة أودت بحياة 224 مواطنٍ روسي. أما في عام 2017، فقد زار تونس 520 ألف سائح روسي من أصل 6.7 مليون سائح. ووصل العدد إلى ستمائة ألف في 2018 [3] وثمانمائة ألف في 2019 [4]. ويزوِّد هذا التعاون موسكو بالنفوذ السياسي في تونس.

مستقبل روسيا في المنطقة

منذ بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وخاصة بعد الثورات العربية عام 2011، عادت روسيا إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وقد أظهرت موسكو مهارة في تطوير العلاقات مع الأطراف المتناحرة في كل من الشرق الأوسط والمغرب العربي. وحققت إنجازات في شمال إفريقيا بفضل مرونتها وتقديرها لظروف السياق السياسي والأمني المحلي.

ومن المرجّح أن تظل المنطقة المغاربية على جدول أعمال الكرملين في السنوات القادمة؛ فقد اختار وزير الخارجية سيرغي لافروف المنطقة في أول رحلة خارجية له في 2019. وستواصل موسكو استكشاف الفرص السياسية والاقتصادية. ومن المرجّح أن يستمر

(1) «Posol RF: Turpotok v Tunis Sokratilsya.»

(2) «Affl ux Russe sur les Plages de Tunisie,» Le Point Afrique, October 3, 2016. http://afrique.lepoint.fr/economie/afflux-russe-sur-les-plages-detunisie-032258_2073228-2016-10-.php.

(3) «Turpotok iz Rossii v Tunis Sokratilsya, no Pokazal Organicheskii Rost [The Number of Russian Tourists in Tunisia Has Decreased, But the Flow Proves Its Organic Growth],» Association of Tour Operators, December 28, 2017. http://www.atorus.ru/ru/main/news/press-centre/new/41799.html; «Tunisie: Les Touristes Russes Arrivent en Masse,» Espace Manager, May 27, 2019. https://www.espacemanager.com/tunisie-lestouristes-russes-arrivent-en-masse.html.

(4) Hatem Bourial, «Tunisie-Russie: 800.000 Touristes Russes en 2019 et D’autres Motifs de Satisfaction,» Webdo, June 12, 2019. http://www.webdo.tn/201912/06//tunisie-russie-800000--touristes-russes-en-2019-et-dautres-motifs-de-satisfaction/.

التعاون العسكري مع ارتفاع ميزانية الدفاع في البلدان المغاربية، وخاصة أن روسيا تقدم نظام أسلحتها بسعر معقول نسبياً. أما آفاق الطاقة النووية فتبقى أقل إشراقاً بسبب التكلفة العالية للمشاريع والنمو المتواضع للاقتصادات المحلية في المنطقة.

يعتبر النفوذ في شمال إفريقيا أحد الأصول الأساسية لسياسة روسيا الخارجية على المستوى العالمي. فمن خلال العمل مع جيران الاتحاد الأوروبي الجنوبيين، تكتسب روسيا أفضلية في أوروبا وتقوّي صورتها على المستوى الدولي. كما أن المنطقة المغاربية هي أيضاً نقطة انطلاق إلى منطقة «إفريقية جنوب الصحراء» التي تُعد شريكاً اقتصادياً وسوقاً محتملاً، كما يتضح من التوسع الصيني هنالك. هذا وتنم القمة الروسية الإفريقية الأولى في عام 2019 التي تشاركَ رئاستها الرئيسين بوتين والسيسي عن طموحات الكرملين في المنطقة.

وفي الوقت نفسه، لا ينبغي المبالغة في تقدير نفوذ روسيا هناك. إذ تعتبر منطقة شمال إفريقيا غير محورية في الأجندة الجيوسياسية لروسيا، على عكس فضاء دول ما وراء الاتحاد السوفيتي، والغرب، أو منطقة آسيا والمحيط الهادئ. ومع ذلك، يمكننا القول إنه في السنوات المقبلة، سيتعيّن على كل من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة أن يتعايشا مع الوجود المتزايد للكرملين في المنطقة المغاربية.

الفصل 14

روسيا وإسرائيل: صداقة مستبعدة

مارك ن. كاتز

تتحالف إسرائيل بشكل وثيق مع الولايات المتحدة - الدولة التي يعتبرها فلاديمير بوتين أكبر خصم لروسيا. بينما تتعاون روسيا بشكل وثيق مع إيران - الدولة التي يعتبرها رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو تهديداً وجودياً للدولة اليهودية. وبالتالي، فإن المنطق البسيط قد يوحي بأن روسيا وإسرائيل يجب أن يكونا على خلاف حقيقي لأن كل منهما يعمل مع خصم الآخر. ولكن ليس هذا هو الحال. فمنذ صعود بوتين في مطلع القرن، طوّرت الدولتان علاقات صداقة وثيقة. وهما يتعاونان على نطاق واسع في المجالات الاقتصادية والعسكرية والاستخباراتية. وبالإضافة إلى العلاقات بين الحكومتين، هناك أيضاً علاقة مجتمعية قوية بين البلدين نتيجة لهجرة أكثر من مليون متحدث روسي نحو إسرائيل من دول الاتحاد السوفيتي السابق. إضافة لأعداد كبيرة من السياح الروس الذين يزورون كل عام (أكثر من 550,000 زائر في عام 2016) قبل ظهور فيروس كورونا في عام 2020. وصحيح أن هناك بعض الاختلافات الجادة بين روسيا وإسرائيل - بما في ذلك حول علاقة موسكو بطهران. ولكن أقام البلدان علاقات جيدة بالرغم من هذه الخلافات. إذاً، فالعلاقة الروسية الإسرائيلية، تتحدى المنطق البسيط لأنها ناتجة عن معادلة أكثر تعقيداً تستند إلى الخوف المشترك من المسلمين السُنّة الراديكاليين، والعلاقة الشخصية التي تربط بوتين بالقادة الإسرائيليين المحافظين، والاستعداد لمواصلة التعاون الثنائي برغم الخلافات حول قضايا معينة (وخاصة إيران).

شراكة غير متوقعة

لم يكن عهد بوتين هو الوقت الوحيد الذي تمتعت فيه روسيا بعلاقات تعاون مع إسرائيل. فإبان حكم ستالين، كان الاتحاد السوفيتي من أوائل الدول التي اعترفت بالدولة اليهودية بعد إعلان استقلالها. وبعد وصول خروتشوف إلى السلطة، أصبحت موسكو متحالفة مع الحكومات القومية العربية التي كانت معادية للغرب ومعادية لإسرائيل. ورغم ذلك، حافظت موسكو على العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل خلال الجزء الأول من الحرب الباردة إلى أن قطعتها في وقت حرب يونيو سنة 1967 بين العرب وإسرائيل والتي هزمت فيها الدولة اليهودية قوات مصر والأردن وسورية. ومع أن الاتحاد السوفييتي لطالما كان داعماً صريحاً للقضية الفلسطينية، إلا أنه لم يدعو إلى تدمير إسرائيل كما فعلت بعض الحكومات العربية والجماعات الفلسطينية في ذلك الوقت[1]. ورغم قطع العلاقات الدبلوماسية، استمرت الاتصالات السوفيتية الإسرائيلية عبر تمثيل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في القدس.

تم إعادة العلاقات في نهاية حقبة غورباتشوف في تشرين الأول/أكتوبر 1991 وتحسّنت في عهد يلتسين في التسعينيات خلال ذروة هجرة اليهود من دول الاتحاد السوفيتي السابق إلى إسرائيل. ولكن بتوجيه من خبير شؤون الشرق الأوسط السوفيتي يفغيني بريماكوف (الذي شغل منصب وزير الخارجية ثم رئيس الوزراء في عهد يلتسين)، كانت موسكو أكثر تركيزاً على تعزيز الروابط مع الأنظمة المعادية لأمريكا في إيران والعراق، وبالتالي أصبحت أكثر انتقاداً لإسرائيل[2].

بعد وصول بوتين إلى السلطة في نهاية عام 1999، بدأ رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون في التودد له في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. بينما التزم

(1) للحصول على أمثلة شبيهة لهذه البيانات، راجع: لجنة متابعة الدقة في إعداد تقارير الشرق الأوسط في أمريكا (CAMERA).

«Precursors to War: Arab Threats against Israel,» The Six-Day War. http://www.sixdaywar.org/content/threats.asp.

(2) Robert O. Freedman, «Russia and the Middle East: The Primakov era,» Middle East Review of International Affairs 2, no. 2 (May 1998): 1–8. http://www.rubincenter.org/meria/199805//freedman.pdf.

معظم القادة الغربيين الصمت، أو انتقدوا عودة تدخل بوتين في الشيشان، بينما بارك شارون تلك الخطوة. وكانت حجته أن روسيا وإسرائيل دولتان مهددتان من قبل الإرهابيين المسلمين (سواء أكانوا شيشانيين أم فلسطينيين)، وكان لذلك صداه على ما يبدو لدى بوتين - خاصة عندما تم تعميق التعاون الاستخباراتي الروسي الإسرائيلي في أعقاب حادثة بيسلان Beslan عام 2004، وعندما قام بوتين بأول زيارة له إلى إسرائيل في عام 2005 (وهي رحلة شملت أيضاً مصر، ولكن لم تشمل سورية)، وأعرب عندها عن دعمه القوي لأمن الدولة اليهودية[1].

ثمة عوامل أخرى جعلت العلاقات الطيبة مع إسرائيل ذات قيمة بالنسبة لروسيا. إحداها أن مبيعات الأسلحة الروسية إلى دول معينة تتعزز بإضافة التكنولوجيا الإسرائيلية إليها. والآخر هو أن إسرائيل أصبحت أحد المصادر القليلة لوصول التكنولوجيا العسكرية الغربية إلى روسيا (بما في ذلك الطائرات بدون طيار أو «طائرات الدرون – «drones»)، خاصة بعد أن ألغت فرنسا بيع حاملات الطائرات من طراز ميسترال لروسيا في عام 2015. علاوة على ذلك، لم تنضم إسرائيل إلى الحكومات الغربية في انتقادها لروسيا بسبب حرب عام 2008 في جورجيا (بل في الواقع، أوقفت إسرائيل تعاونها العسكري الناشئ مع تبليسي خلال هذه الحرب)[2]، وكذلك عند ضم شبه جزيرة القرم في عام 2014، والتدخل في شرق أوكرانيا بعد ذلك[3]. هذا وقد تم تعزيز العلاقات الروسية الإسرائيلية من خلال روابط تجارية وثقافية واسعة؛ إذ أن هناك مغتربين ناطقين بالروسية يبلغ عددهم مليون شخص في إسرائيل، (بما في ذلك العديد من اليهود من أمثال ناتان شارانسكي، الذين غادروا الاتحاد السوفيتي أو روسيا عندما لم تعجبهم الطريقة التي عوملوا بها هناك، ولكنهم أصبحوا في وقتٍ لاحق دعاة لعلاقات روسية

(1) Mark N. Katz, «Putin's Pro-Israel Policy,» M iddle East Quarterly 12, no. 1 (Winter 2005), 51–9. https://www.meforum.org/articles/2005/putin-s-pro-israel-policy.

(2) Mark N. Katz, «Implications of the Georgian Crisis for Israel, Iran, and the West,» Middle East Review of International Affairs 12, no. 4 (December 2008): 4–5. http://mars.gmu.edu/bitstream/handle/19205585//Meria_katz_Dec_2008.pdf?sequence=1&isAllowed=y.

(3) Patrick Hilsman, «Drone Deals Heighten Military Ties between Israel and Russia,» Middle East Eye, October 4, 2015. http://www.middleeasteye.net/news/analysis-drone-deals-highlight-military-ties-between-israel-and-russia-24061368.

إسرائيلية وثيقة بعد انتقالهم إلى إسرائيل)؛ كما يزور مئات آلاف السياح الروس إسرائيل كل عام؛ أضف إلى ذلك تسوية إسرائيل لمصالح الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في الأرض المقدسة[1].

تلاقي المصالح في سورية وخارجها

بينما سعى باراك أوباما وبعض القادة الغربيين الآخرين إلى تبني التغيير السياسي الذي يمثّله الربيع العربي، فضّل كل من بوتين ونتنياهو الحفاظ على الوضع الراهن، خشية أن تؤدي الإطاحة بالأنظمة الحاكمة إلى إطلاق العنان لقوى معادية لكل من روسيا وإسرائيل[2]. ومع أن إسرائيل عارضت بشدة منذ فترة طويلة تعاون نظام الأسد مع إيران في مساعدة حزب الله الشيعي اللبناني المناهض لإسرائيل، إلا أنها أدركت أن دمشق حافظت على السلام على خط الهدنة السوري الإسرائيلي الذي تم إنشاؤه بعد حرب 1973 [3].

وقد جعلت المخاوف الإسرائيلية انعدام أمن هذه الحدود إذا ما تم إضعاف نظام الأسد

(1) Anna Borshchevskaya, «The Maturing of Israeli-Russian Relations,» Washington Institute for Near East Policy, Spring 2016.
http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/the-maturing-of-israeli-russian-relations; Aleksey Golubovych, «K Vizitu Netanyahu: Chto Rossia Mozhet Poluchyt ot Ekonomiki Izrailia [Towards the Netanyahu Visit: What Russia Can Obtain from the Israeli Economy],» Forbes.ru, March 9, 2017.
http://www.forbes.ru/fi nansy-i-investicii/340519-rossiysko- izrailskieekonomicheskie-svyazi-ne-tolko-neft -na; Jessica Steinberg, «Mother Russia Returns to Grand Duke's Jerusalem Compound,» Times of Israel, July 13, 2017.
https://www.timesofi srael.com/mother-russia-returns-to-grand-dukes- jerusalem-compound/.

(2) Jeffrey Martini, Erin York, and William Young, «Syria as an Arena of Strategic Competition,» RAND Corporation, 2013.
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR200/RR213/RAND_RR213.pdf.

(3) Ian Black, «Israelis Watch Intently as Syrian Rebel Forces Approach Golan Heights Border,» The Guardian, June 19, 2015.
https://www.theguardian.com/world/on-the-middle-east/2015/jun/19/israelis-watch-intently-as-syrian-rebel-forces-approach-golan-heights-border.

أو استبداله - حكومة نتنياهو أكثر تعاطفاً مع الطروحات الروسية القائلة بأن بقاء نظام الأسد في السلطة هو البديل الأقل سوءاً بالنسبة لإسرائيل[1].

لكن ما يقلق إسرائيل بشأن سورية هو الدور الذي يلعبه هناك كل من إيران وحزب الله. فهي لا تريد أن ترى هذين الطرفين يكتسبان نفوذاً مهيمناً على الحدود السورية وبالتالي يكونان في وضع أفضل لإطلاق الهجمات[2].

ولكن في هذه الحالة، فإن التدخل الروسي في سورية الذي بدأ في عام 2015، والذي كان مزعجاً للغاية بالنسبة للغرب، كان في الواقع مطمئناً إلى حد ما بالنسبة لإسرائيل، نظراً لإمكانية أن يحد وجود الروس من تواجد إيران وحزب الله. وكما أشار صمويل راماني «في الواقع، فاجأ إعلان بوتين الانسحاب الجزئي للقوات الروسية من سورية في 14 آذار/مارس 2016 المؤسسة السياسية الإسرائيلية، وزاد مخاوفنا من العدوانية الإيرانية»[3]. وبينما لم يكن واضحاً ما توصلت إليه كل من روسيا إسرائيل فيما يتعلق بسورية، ولكن ما بات واضحاً أن نتنياهو وبوتين تشاورا مكثفاً حول سورية، هذا ولم تمنع موسكو إسرائيل من مهاجمة أهداف لإيران وحزب الله في المناطق التي يسيطر عليها النظام[4]. والآن وقد لاحت هزيمة أعداء

(1) Cnaan Liphshiz, «Can Israel Benefi t from Sheriff Putin Policing the Middle East?,» Times of Israel, October 13, 2015. https://www.timesofi srael.com/can-israel-benefi t-from-sheriff -putin-policing-the-middle-east/.

(2) Judah Ari Gross, «Netanyahu: Israel Acts to Keep Game-changing Arms Away from Hezbollah,» Times of Israel, January 9, 2018.
https://www.timesofisrael.com/netanyahu-israel-acts-to-keep-game-changing-arms-away-from-hezbollah/.

(3) Samuel Ramani, «Why Russia and Israel Are Cooperating in Syria,» Huff post, June 23, 2016. https://www.huffi ngtonpost.com/entry/why-russia-and-israel-are-cooperatingin- syria_us_57 6bdb68e4b083e0c0235e15?guccounter=1.Putin, of course, did not withdraw Russian forces from Syria either on this or subsequent occasions when he announced that he would.

(4) ورغم ذلك، ورد في شباط/فبراير 2018، أن مكالمة هاتفية من بوتين مع نتنياهو أوقفت تصعيد الصراع المباشر بين القوات الإسرائيلية والإيرانية.
Amos Harel, «Putin's Phone Call with Netanyahu Put End to Israeli Strikes in Syria,» Haaretz, February 15, 2018.
https://www.haaretz.com/middle-east-news/iran/putin-s-call-with-netanyahu-called-time-on-israel-s-syrian-strikes-1.5809118.

الأسد في الداخل، لم تحتدم المنافسة بين موسكو وطهران على النفوذ في دمشق فحسب، بل أعربت روسيا عن دعمها لدعوات إسرائيل لمغادرة القوات الإيرانية من جنوب سورية[1].

هناك مجالات أخرى بالإضافة لسورية تتلاقى فيها المصالح الروسية والإسرائيلية أو على الأقل لا تتعارض. فقد رحب كل منهما بإطاحة عبد الفتاح السيسي، القائد العسكري المصري، بالرئيس المنتخب للإخوان المسلمين محمد مرسي في عام 2013. ولم تُظهر أي من روسيا أو إسرائيل الكثير من القلق بشأن قمع حكومة السيسي للمعارضة وقمع الديمقراطية في البلاد[2]. هذا وتتعاون كل من روسيا وإسرائيل مع المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة[3]. كما سعى كلاهما إلى التعاون مع تركيا، رغم صعوبة التفاهم مع الرئيس التركي أردوغان والتي واجهها كل منها[4]. وبينما لا تزال روسيا تنتقد إسرائيل بسبب معاملتها

(1) Joost Hiltermann, «Russia Can Keep the Peace between Israel and Iran—But Following the Hostilities over the Weekend, Does Putin Want to?,» The Atlantic, February 13, 2018.
https://www.theatlantic.com/international/archive/201802//israel-syria-iran-hezbollah-putin-assad/553217/; Jonathan Marcus, «Is Israel Driving a Wedge between Russia and Iran?,» BBC News, May 31, 2018.
https://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-44313744.

(2) On the overall convergence of Russian-Israeli interests, see Nikolay Pakhomov, «The Russia-Israel Relationship Is Perfect Realpolitik,» National Interest, March 23, 2017.
http://nationalinterest.org/feature/the-russia-israel-relationship-perfect-realpolitik-19881.

(3) On Saudi-UAE-Israeli cooperation, see Adam Hanieh, «Israel, Saudi Arabia and the United Arab Emirates: New Regional Alliances and the Palestinian Struggle,» M iddle East in London blog (SOAS University of London), January 27, 2018.
https://blogs.soas.ac.uk/the-middle-east-in-london/201827/01//israel-saudi-arabia-and-the-united-arab-emirates-new-regional-alliances-and-thepalestinian-struggle/.

(4) Raziye Akkoc and Ezzedine Said, «Iran, Russia, Turkey Team Up to Hold Sway in Syria,» T imes of Israel, April 2, 2018.
https://www.timesofi srael.com/iran-russiaturkey-team-up-to-hold-sway-in-syria/; Shira Efron, «The Future of Israeli-Turkish Relations,» RAND Corporation, 2018.
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR2400/RR2445/RAND_RR2445.pdf; Mark N. Katz, «Putin's Courtship of Both Assad and Erdogan Is Spinning Out of Control in Syria,» Responsible Statecraft, March 2, 2020.
https://responsiblestatecraft.org/202002/03//putins-assad-erdogan-spinning-out-of-control-in-syria/.

للفلسطينيين، من دون أن يقدّم بوتين أي دعم مادي يسمح للفلسطينيين بتحدي إسرائيل بشكل جدي[1].

هكذا، وبرغم حقيقة أن كل منهما يتعاون عن قرب مع الخصم الألدّ للآخر، فقد أقامت روسيا وإسرائيل علاقة متبادلة قوية على أساس المصالح المشتركة بينهما والاستعداد المتبادل لتحقيقها بغض النظر عن خلافاتهما.

مفسدات الشراكة

يبقى هناك العديد من السيناريوهات المحتملة التي يمكن أن تقوّض هذا الوضع. أحدها يتعلق بأهم الخلافات بينهما: إيران. ولما اتضح عدم استعداد موسكو وعدم قدرتها على منع إيران من أن تصبح أكثر قوة في سورية أو أن تزيد دعمها لحزب الله هناك، فمن المرجح أن تتولى إسرائيل زمام الأمور بنفسها هناك وتستخدم القوة ضد كلا الخصمين. وفي الواقع، ظهر حدث مشابه في أيلول/سبتمبر 2018 عندما توترت العلاقات الروسية الإسرائيلية على نحو خطير. على إثر إطلاق القوات السورية صاروخ S-200 رداً على هجوم جوي إسرائيلي، لكن الصاروخ أخطأ الطائرة الإسرائيلية المنسحبة من طراز F-16 وأصاب طائرة حربية روسية في منطقة قريبة، مما أدى لمقتل جميع من كانوا على متنها. ورغم أن القوات السورية هي من أطلقت الصاروخ الذي أسقط طائرة الدورية البحرية الروسية[2]، فقد ألقت وزارة الدفاع في موسكو اللوم على إسرائيل؛ إذ اتهم المسؤولون الروس الجيش الإسرائيلي على وجه التحديد بعدم إعطاء نظرائهم الروس إشعاراً بالهجوم في سورية حسب اتفاق حل النزاع، وأن الطائرات الإسرائيلية استخدمت تواجد الطائرات الروسية «كغطاء» أثناء فرارها من

(1) وفقًا لأحد المحللين البارزين للسياسة الخارجية الروسية في موسكو، دميتري ترينين، فإن روسيا «لم تعد راعٍ لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي يدعمها الاتحاد الأوروبي الآن بشكل أساسي».
Dmitri Trenin, What Is Russia Up to in the Middle East? (Cambridge: Polity, 2018), 90.

(2) David Choi, «Syria Accidentally Shot Down a Russian Plane While Fending Off an Israeli Missile Strike, Report Says,» Business Insider, September 18, 2018.
http://www.businessinsider.fr/us/syria-accidentally-shoots-down-russian-aircraft-report-20189-.

الصاروخ[1]. وقد بدا بوتين نفسه غير راغب في السماح بتصعيد التوتر آنذاك، لكن موسكو وافقت على تسليم منظومة الدفاع الجوي الصاروخي S-300 الأكثر قوة إلى القوات السورية. وبينما شكلت تلك الخطوة محاولة روسية لردع مثل هذه الهجمات الإسرائيلية، إلا أنها كانت خطوة فاشلة - فبحسب ما ورد عن الجيش السوري أن منظومة الدفاع الجوي S-300 كانت في الحقيقة غير فعالة[2].

إذاً تصاعدت التوترات مع إيران وحلفائها الشيعة، فمن المرجح أن تتلقى إسرائيل مساعدة أمريكية. وإذا انحازت روسيا إلى إيران وحزب الله، فسوف تنفر إسرائيل وسيتضاءل التعاون بينهما بسرعة. ولكن حتى إذا كانت موسكو تسعى إلى تجنب الانحياز لجانب إيران، فإن العمل الإسرائيلي المدعوم من الولايات المتحدة ضد إيران وحزب الله في سورية (وربما في أي مكان آخر) سيجعل روسيا تبدو وكأنها متفرج في سورية وليست قوة عظمى - وهو أمر لن يعجب بوتين. بل في الواقع، يتوقع أن يقاوم بوتين بشدة أي سلوك من جانب أي دولة من شأنه أن يقلل من صورة روسيا كقوة عظمى. وقد عمل بوتين بجد لإعادة بناء المكانة الدولية لبلاده، ومن ثم من المتوقع أن يضحّي بالفوائد التي يجنيها من التعاون مع إسرائيل إذا كان ذلك ضرورياً لتحقيق هذا الهدف الأكثر أهمية.

وسيعتمد هذا السيناريو، بالطبع، على كيفية تصرف إيران في سورية الآن بعد أن زال التهديد المفروض على نظام الأسد من قبل خصومه. كما أنه يعتمد على قدرة موسكو على الحفاظ على تأكيداتها لإسرائيل والتي مفادها أن وجودها في سورية سيعمل على كبح سلوك

(1) Liz Sly, Anton Troianovski, and Ruth Eglash, «Russia Revives Allegations of Israeli Culpability in Downed Plane in Syria,» Washington Post, September 23, 2018.
https://www.washingtonpost.com/world/middle_east/russia-revives-allegations-ofisraeli-culpability-in-downed-plane-in-syria/201823/09//ac6741de-bf3611-e8-9 f4fa1b7af255aa5_story.html?utm_term=.a3adbe20f361.

(2) Krishnadev Calamur, «An Unlikely Alliance in Syria Comes under Strain,» The Atlantic, September 24, 2018.
https://www.theatlantic.com/international/archive/201809//russia-israel-syria/571138/; «Syria Says Russian Missile Defence System 'Ineff ective,'» MEMO — Middle East Monitor, May 1, 2020.
https://www.middleeastmonitor.com/20200501-syria-says-russian-missile-defence-system-ineff ective/.

إيران. ووفقاً لمجلة The Economist، «بدأ قادة الأمن الإسرائيلي يدركون أن الكرملين لن يبذل جهداً للحد من دور إيران في سورية»[1]. هذا وقد يؤدي الضرر الذي خلفه فيروس كورونا إلى الحد من قدرة الجمهورية الإسلامية على إظهار نفوذها في المنطقة.

ومما قد يمثّل تهديد آخر لاستمرار التعاون الروسي الإسرائيلي هو تدهور العلاقات الأمريكية الروسية لدرجة أن واشنطن لم تعد مستعدة لتحمل استمرار تعاون إسرائيل مع موسكو، أو على الأقل عدم استمراره بالقدر الذي هو عليه الآن. وبينما تشتهر إسرائيل بقدرتها على سلوك طريقها الخاص متحديةً نصائح وطلبات واشنطن، قد يغدو إنهاء تعاونها الأمني مع روسيا مطلباً قد تضطر لقبوله إذا ما أصرت أمريكا عليه. ولكن من دون استمرار التعاون الروسي الإسرائيلي، سيكون لدى موسكو حافز أقل بكثير لأخذ المصالح الإسرائيلية بعين الاعتبار في علاقاتها مع طهران. ولو صادف أن حدث كلا السيناريوهين معاً (تصاعد الصراع بين إسرائيل وإيران وزيادة التوترات بين الولايات المتحدة وروسيا) في وقتٍ واحد، فمن المرجّح أن تتأثر العلاقة الروسية الإسرائيلية بشكل سلبي.

ومع تزايد احتمال حدوث أي من السيناريوهين السابقين أو كليهما معاً في المدى المنظور، إلا أن هناك سيناريو ثالث على المدى الطويل قد ينشأ بشكل مستقل عنهما. وهو أن يثمّن بوتين التعاون الروسي الإسرائيلي عالياً وأن يسعى إليه. ووفقاً لديمتري ترينين، إن الجيش والأجهزة الأمنية الروسية، إلى جانب المواطنين الروس العاديين، يقدّرون أيضاً علاقات موسكو بالدولة اليهودية[2]. ولكن إن لم يبدِ خَلَفُ بوتين هذه النظرة الإيجابية تجاه إسرائيل، فمن غير المؤكد إطلاقاً أن يستمر التعاون عند المستوى ذاته. وحتى الآن تسعى بعض القطاعات والمؤسسات الروسية التي تستفيد حالياً من الروابط الثنائية الوثيقة، مثل صناعة تصدير الأسلحة وبعض عناصر الأجهزة الأمنية، إلى استمرارها، لكن ظهور زعيم جديد ذي منظور مختلف حول إسرائيل قد يغير هذه السياسة. تتيح التعديلات الدستورية الأخيرة لبوتين البقاء في منصبه حتى عام 2036. ومع ذلك، وفي مرحلة ما، سيكون هناك خلف لبوتين

(1) «Israel v Iran in Syria: Heating Up,» The Economist, April 14, 2018. 40 (US edition). https://www.economist.com/news/middle-east-and-africa/21740471-conflict between-two-powers-escalating-israel-determined-stop.

(2) Trenin, What Is Russia Up, 89–90.

في الكرملين. وعندها سيتضح هل ثمة مصلحة كافية لمواصلة روسيا العمل مع إسرائيل أم أن هذا التعاون كان شيئاً خاصاً ببوتين.

وعلى الرغم من كون السيناريوهات التي قد تؤدي إلى تقليص التعاون أو حتى إنهائه حقيقيةً، إلا أن التعاون الروسي الإسرائيلي قوي جداً في الوقت الحالي. وذلك بسبب الفوائد التي يوفّرها لكلا الجانبين، ومن المرجح أن يعمل كل من بوتين ونتنياهو (أو أي رئيس وزراء إسرائيلي آخر) بجد لمنع المؤثرات الخارجية أو إخراجها عن مسارها. وقد تجلى ذلك في 13 نيسان/أبريل 2019، عندما شنّت طائرات F-16 الإسرائيلية فوق لبنان هجمات صاروخية على أهداف في سورية. أطلقت القوات السورية أسلحة أقل قدرة على هذه الطائرات فلم تصبها، ولم تطلق أياً من صواريخها الدفاعية الجديدة من طراز S-300 والتي ربما تكون موجودة بالفعل. ووفقاً لأحد المحللين، كان هذا بسبب حاجة سورية إلى موافقة روسية قبل إطلاق هذه الصواريخ، ولم يمنح المسؤولون الروس هذه الموافقة، لأن القوات الإسرائيلية قدّمت إشعاراً مسبقاً بالهجوم إلى موسكو قبل خمس عشرة دقيقة من تنفيذ الهجوم الإسرائيلي والذي ورد أن إسرائيل انصاعت إلى تقديمه[1].

وصحيح أن العلاقات الروسية الإسرائيلية قد تتدهور في ظل ظروف معينة في المستقبل، ولكن يبقى احتمال تحسنها موجوداً. فقد لوحظ منذ فترة طويلة أنه إذا لم تقبل إسرائيل حلّ الدولتين في صراعها مع الفلسطينيين وظلت مصممة على الاحتفاظ بالسيطرة على كامل فلسطين وسكانها، فسوف تضطر إلى المقايضة بين بقائها دولة ديمقراطية وبين كونها دولة ذات أغلبية يهودية؛ إذ تشير السياسات المتشددة تجاه الفلسطينيين التي يتبعها نتنياهو وأمثاله من السياسيين المحافظين إلى أنهم سيفضلون بقاءها دولة يهودية على كونها دولة ديمقراطية. وقد تثير نسخة إسرائيل الأكثر سلطوية استعداء الديمقراطيات الغربية، إلا أنها لن تفعل ذلك بالنسبة لروسيا بوتين بشكل خاص. بل في الواقع، قد تجد إسرائيل في روسيا التي تسعى إلى الحفاظ على استقرار الاستبداد في جميع أنحاء المنطقة شريكاً أكثر ملاءمة من الدول الغربية التي تنتقدها (سواء عبر حكوماتها أو وسائل إعلامها أو منظماتها غير

(1) Sebastien Roblin, «Israeli F-16s Wiped Out a Syrian Missile Complex (Russian Didn't Fire Back),» National Interest, June 3, 2019.
https://nationalinterest.org/blog/buzz/israeli-f-16s-wiped-out-syrian-missile-complex-russian-didn %E2 %80 %99t-fi reback-60732.

الحكومية)، لوجود عيوب تتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان. ونظراً لتاريخ الحكومات الديمقراطية الغربية الطويل في دعم الحكومات العربية الاستبدادية، فهي قد لا تمانع دعم حكومة إسرائيلية استبدادية أخرى. ولكن تماماً كما تعاونت الأنظمة الاستبدادية العربية مع كل من روسيا والغرب، يمكن لنظام إسرائيلي أكثر استبداداً أن يفعل ذلك أيضاً.

هل ستكون موسكو وسيطاً؟

مهما كان تأثير تغير القيادة على العلاقات الروسية الإسرائيلية والذي قد ينجم عنه في نهاية المطاف تغير في الاتجاهات السياسية في كل من روسيا وإسرائيل، يبقى السؤال الأكثر إلحاحاً، هو ما إذا كان المستوى الحالي للتعاون الروسي الإسرائيلي يمكن أن ينجو من زيادة حدة التوترات الإسرائيلية-الإيرانية أو الأمريكية-الإيرانية أو الأمريكية- الروسية. وإحدى الاحتمالات هو تمكّن روسيا من العمل كوسيط بين إسرائيل وإيران. ونظراً لعدم إمكانية التوسط في سبيل إيجاد تقارب أو علاقة ودية بين هذين الخصمين في الشرق الأوسط، سواء أتم ذلك التوسط من قبل روسيا أو أية حكومة أخرى، فقد تتمكن موسكو من مساعدتهما على تجنب الصراع أو حتى تقليل التوترات. وقد ورد أن روسيا عرضت القيام بهذا الدور بين إيران وإسرائيل (وكذلك بين إيران والمملكة العربية السعودية)[1].

إذا نجحت روسيا في الحد من التوتر بين إسرائيل وإيران، فمن المؤكد أنها ستعمل مع كلا الجانبين على زيادة نفوذها، فضلاً عن مكانتها العالمية. ويبدو أن روسيا في وضع أفضل بكثير من الولايات المتحدة، يمكّنها من القيام بذلك، نتيجة تزايد العداء في العلاقات الإيرانية الأمريكية منذ عهد إدارة ترامب، خاصة بعد انسحابها من الاتفاق النووي الإيراني (المعروف أيضاً باسم خطة العمل الشاملة المشتركة) أو JCPOA. بل على العكس، تتمتع روسيا بعلاقات جيدة مع كل من إسرائيل وإيران، وبالتالي يمكنها التحاور معهما. فموسكو تبدو الآن في وضع مماثل لوضع أمريكا في السبعينيات عندما كانت قادرة على التوسط في اتفاقية كامب ديفيد

---

(1) Ana is LLobet, «Russia Seeks Mediator Role between Israel and Iran,» Times of Israel, May 10, 2018.
https://www.timesofi srael.com/russia-seeks-mediatorrole-between-israel-and-iran/; and «Russia's Intentions Behind Mediating Iran,Israel Explained,» Persia Digest, October 7, 2018.
https://persiadigest.com/Russia's-intentions-behind-mediating-Iran,-Israel-explained.

للسلام بين إسرائيل ومصر. في ذلك الوقت، كانت لواشنطن علاقات جيدة مع كلا الجانبين بينما لم تكن موسكو كذلك.

ولكن يبقى هناك اختلافان مهمان بين كل من الحالتين. أولاً، أنه في وقت مفاوضات كامب ديفيد، كانت مصر وإسرائيل قد خاضتا بالفعل ثلاثة حروب ولم ترغبا في خوض حرب أخرى. وكلاهما كانتا جاهزتين لاتفاق سلام لكنهما لم تتمكنا من التوصل إلى اتفاق بمفردهما. ثانياً، أن الولايات المتحدة في ذلك الوقت كانت مستعدة وقادرة على تقديم مساعدة عسكرية واقتصادية لكلا الجانبين من أجل إنجاز اتفاق السلام بينهما والمحافظة عليه.

وعلى النقيض من ذلك، لا يبدو أن إسرائيل أو إيران مستعدتان لتقليل التوترات المتبادلة فيما بينهما، ناهيك عن إرادة التوصل إلى اتفاق سلام. في الواقع، يبدو أن اللاعبين الرئيسيين من كلا الجانبين تواقون إلى الصراع، لأن كل منهم يعتقد أن حلفه يمكن أن ينتصر. وعلاوة على ذلك، تبدو روسيا غير راغبة وغير قادرة على تقديم مساعدة لإسرائيل وإيران لأجلٍ غير مسمى، كما فعلت الولايات المتحدة تجاه إسرائيل ومصر لعقود لحثهما على السلام.

المشكلة التي تواجه موسكو هي أنه من المستحيل إقناع الأطراف المتناحرة بحل النزاع سلمياً عندما لا يريد أي منهما القيام بذلك. ولا يبدو أن موسكو لديها القدرة على إجبارهم على التسوية أيضاً. ومن المؤكد أنه إذا حاولت روسيا الضغط على إسرائيل سيتبع ذلك دعماً أمريكيا أكبر لإسرائيل. كما لا يبدو أن بوتين مستعد لممارسة ضغوط جدية على إيران والمجازفة بتقويض جهودهما المشتركة لدعم الأسد[1]. وأخيراً، فرغم العداء الذي أظهره كل من ترامب ومستشاريه تجاه إيران، فإن تصريحات الرئيس التي دعت القادة الإيرانيين إلى «الاتصال به»[2] تشير إلى أنه هو أيضاً كان يأمل في تحقيق تقارب بين إيران من جهة والولايات المتحدة وحلفائها في الشرق الأوسط من جهة أخرى. لم تنجح جهود ترامب الخرقاء. ومع

(1) Michel Duclos, «Russia and Iran in Syria—A Random Partnership or an Enduring Alliance?,» Atlantic Council, June 2019.
https://www.atlanticcouncil.org/images/publications/Russia_and_Iran_in_Syria_a_Random_Partnership_or_an_Enduring_Alliance.pdf.

(2) Julian Borger and Patrick Wintour, «Donald Trump Tells Iran 'Call Me' over Lifting Sanctions,» The Guardian, May 9, 2019.
https://www.theguardian.com/world/2019/may/09/eu-rejects-iran-two-month-ultimatum-on-nuclear-deal

ذلك، أشارت تصريحاته إلى أنه لا يمكن لموسكو أن تضمن دائماً تسامح الولايات المتحدة مع تمتع روسيا دائماً بأفضلية ظهورها كوسيط أفضل بحكم قدرتها على التحدث مع جميع الأطراف. ربما إذا عملت الولايات المتحدة وروسيا معاً، فقد يكون بإمكانهما تقليل التوترات ليس فقط بين إيران وإسرائيل ولكن فيما بينهما أيضاً. وربما تطلب تحقيق هذا الوضع، الأكثر تفضيلاً، تغير العقلية القيادية لدى جميع البلدان الأربعة، وهذا قد لا يحدث في أي وقت قريب.

نتيجة

لوحظ في بداية هذا الفصل أن روسيا وإسرائيل نجحتا في بناء علاقة ودية ملحوظة، رغم حقيقة أن لكل منهما علاقات وثيقة مع الخصم الألد للطرف الآخر (إسرائيل مع الولايات المتحدة وروسيا مع إيران).

ومع عدم احتمال تغير هذا الوضع، يُشَك في أن تكون العلاقات الروسية الإسرائيلية قادرة على التقارب أكثر مما هي عليه الآن. ومن ناحية أخرى، فحقيقة أن روسيا وإسرائيل تمكنتا من التعاون لفترة طويلة برغم ارتباط كل منهما بشكل وثيق بخصم الآخر، تشير إلى أن العلاقة الروسية الإسرائيلية هي علاقة دائمة وأنها من المرجح أن تستمر.

الفصل 15

روسيا في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: ورقة توازن

ديميتار بيتشيف، ونيكو بوبيسكو، وستانيسلاف سيكرييرو

رسّخت روسيا نفسها بقوة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وقد توسعت بصمتها في السياسة والدبلوماسية والشؤون العسكرية والاقتصاد إلى حدٍ بعيد. فإنجازاتها تتحدث عنها. وفي المقابل تحملت السياسة الخارجية الروسية تبعات وهي تواجه الآن عقبات وقيود. لذلك فإن كشف حسابها في المنطقة هو في الواقع مختلط، فيه الأرباح وفيه الخسائر.

المنجزات

بفضل تدخلها في سورية، وضعت روسيا «جنودها على الأرض» في منطقة حرب خارج منطقة ما بعد الاتحاد السوفيتي. فهي تسيطر على قاعدة حميميم الجوية كما حوّلت طرطوس إلى قاعدة بحرية دائمة لها. هذا وتسيّر وحدات الشرطة العسكرية الروسية الآن دوريات بالاشتراك مع قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في منطقة مرتفعات الجولان على الحدود الإسرائيلية السورية[1]. وفي ليبيا، درّبت روسيا قوات خليفة حفتر وأرسلت له مرتزقة من مجموعة فاغنر Wagner Group بالإضافة إلى طائرات حربية، مع إبقائها الباب موارباً أمام الحكومة المعترف بها من قبل الأمم المتحدة في طرابلس[2]. وقد قامت مجموعة RSB،

(1) «Russian Military, UN Mission Conduct First Joint Patrol of Israeli-Syrian Border,» ITAR-Tass, October 26, 2018.
https://tass.com/world/1027954.

(2) «Libya's Eastern Parliament Speaker Praises Russia's Training of Haft ar-Led Forces,» Libyan Express, January 7, 2018.
http://www.libyanexpress.com/libyas-eastern-parliament-speaker-praises-russias-training-of-

وهي شركة مقاولات روسية خاصة، قامت بعمليات إزالة ألغام في بنغازي[1]. كما تتفاوض روسيا مع مصر بشأن استخدام مجالها الجوي وقواعدها الجوية[2]، ويقال إن قاعدة همدان الإيرانية، التي شنّت منها القوات الجوية الروسية ضربات في سورية، هي أيضاً محور تركيز الكرملين[3].

استفادت موسكو من زيادة مبيعات الأسلحة لشركائها التقليديين مثل سورية وحلفاء الولايات المتحدة وعملائها مثل مصر وتركيا، الدولة العضو في حلف الناتو. كما حصلت كل من الجزائر ومصر على تراخيص لإنتاج دبابات T-90. هذا وتتطلع روسيا أيضاً إلى أسواق الخليج. حتى أن هناك مشروعاً طموحاً لتطوير مقاتلة من الجيل التالي بالشراكة مع الإمارات العربية المتحدة.

أما الدبلوماسية الروسية فهي أيضاً تجري على قدمٍ وساق، مع مبادراتها في كل من سورية وليبيا وحتى اقتراحها بشأن أمن الخليج. فكلمات وزير الخارجية السوفياتي الأسبق أندريه جروميكو، «طالما هناك تنافس على الشرق الأوسط، فهناك حاجة لوجودنا» تثبت صحتها مرة أخرى[4]. فقد أدى دخول روسيا في معركة إنقاذ نظام الأسد إلى رفع مخزونها الجيوسياسي

---

haft ar-ledforces/; «Russian Mercenaries Are Fighting in Libya, UN diplomats Confi rm,» Moscow Times, May 7, 2020.
https://www.themoscowtimes.com/202007/05//russian-mercenaries-are-fighting-in-libya-un-diplomats-confi rm-a70204.

(1) Anna Boitsova, Inna Sidorkova, and Anton Baev, «Glava ChVK Rasskazal o Rabote Rossiiskih Spetsialistov v Livii [The Head of ChVK Informed about the Work of Russian Specialists in Libya],» RBC, March 13, 2017.
https://www.rbc.ru/politics/1358/2017/03/c69ef59a7947e8a7c2ea63.

(2) «Rossia Vstupila v Peregovory s Egiptom ob Ispolizovanii Voennyh Aviabaz [Russia Entered the Talks with Egypt on Use of Military Air Bases],» Meduza, November 30, 2017.
https://meduza.io/news/201730/11//rossiya-vstupila-v-peregovory-s-egiptom-ob-ispolzovanii-voennyh-aviabaz.

(3) Omid Shamizi, «Iran Allows Russia to Use Airbase for Refuelling,» Anadolu Agency, April 14, 2018. https://www.aa.com.tr/en/europe/iran-allows-russia-to-use-airbase-for-refueling/1117681.

(4) Oleg Grinevskii, T ainy Sovetskoi Diplomatii [The Secrets of Soviet Diplomacy](Moscow: Vagrius, 2000), 11.

ومكانتها، كما يوضح هذا الجزء، فإن اللاعبين الإقليميين، المملكة العربية السعودية وتركيا وإسرائيل وإيران، قد تكيفوا مع الوجود الروسي.

وقد أبلت موسكو بلاءً حسناً في إبحارها وتجنبها الوقوع في مرمى نيران النزاعات المحلية، وبُفضل مسار أستانا، قادت موسكو الجهود المبذولة للتفاوض على تسوية في سورية؛ رغم أن سلوك روسيا في الشرق الأوسط قد لا يكون مثمراً دائماً إلا أنه يناقض بشكل صارخ نهجها المتقلب والذي غالباً ما يكون متنمراً تجاه جيرانها من دول ما بعد الاتحاد السوفيتي. نتيجة لذلك، فحتى الخصوم المحتملين مثل دول الخليج رحبوا بتدخل موسكو. إضافة لذلك، يسجل الكرملين نقاطاً ضد الولايات المتحدة في الوقت الذي تسعى فيه أمريكا إلى الخروج من المنطقة.

لقد حققت السياسة الحازمة في الشرق الأوسط مكاسب اقتصادية. ففي وقت متأخر من عام 2010، ارتفعت صادرات القمح بفضل الحصاد الذي تجاوز الأرقام القياسية السوفيتية قبل أربعين عاماً. فجاء ما يقرب من ثلاثة أرباع واردات مصر من الحبوب في عام 2018 من روسيا الاتحادية[1]، كما ينتشر السياح الروس في جميع أنحاء المنطقة، في الشواطئ التركية أو التونسية أو مراكز التسوق في دبي. كما تُدفع القوة النووية والنفط والغاز التعاون الروسي قُدُماً مع كل من إيران وتركيا ومصر والإمارات العربية المتحدة. وحتى البنوك الروسية بدأت تستكشف - بحذر- الفرص المتاحة في المنطقة[2]. وفي الماضي، عملت روسيا في الغالب في أسواق النفط العالمية بشكل حر وغير منظم، مما أدى إلى فشل منظمة أوبك في سعيها لتحقيق مبيعات أكبر، أما الآن فهي تعمل مع المملكة العربية السعودية ومنتجين آخرين لدعم الأسعار من خلال قيود منسقة على الإنتاج، ولاقت في هذا نجاحاً متفاوتاً. وقد بدأت الحرب في سورية تتحول إلى مشروع مربح أيضاً؛ إذ وضع مقربون من الرئيس بوتين أيديهم

(1) «Egypt Imported 10 Million Tonnes of Wheat in 2018: Ministry Report,» Ahram Online, November 8, 2018.
http://english.ahram.org.eg/NewsContent/3315983/12//Business/Economy/Egypt-imported--million-tonnes-of-wheat--in--Minis.aspx.

(2) «Russia's VTB Bank Buys 19% Stake in Qatar's CQUR Bank–Ifax,» Nasdaq.com, August 15, 2019.
http://www.nasdaq.com/article/russias-vtb-bank-buys-19-stake-in-qatars-cqur-bank--ifax-2019081500122-.

على مشاريع إنتاج الفوسفات في البلاد والميناء البحري في طرطوس[1]. كما أن مزيداً من عقود البنية التحتية، مثل تجديد مطار دمشق، قد يكون في طور الإعداد من قبل الشركات الروسية[2].

كان نجاح روسيا نتيجةً لجهدها الخاص فضلاً عن الجغرافيا السياسية المواتية، وقد كانت القدرات العسكرية المطورة عاملاً أساسياً في تحقيق مكاسب استراتيجية لروسية. ورغم العديد من القيود، تمكن الجيش الروسي من إبراز نفوذه في الخارج والمحافظة عليه لأول مرة منذ ثلاثة عقود. فقد بدأت الإصلاحات العسكرية التي أعقبت عام 2008 تؤتي أكلها وتزود الدبلوماسية الروسية بنفوذ قوي ذي مصداقية كانت تفتقر إليها خلال التسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين. كما أصبحت روسيا الآن أكثر ثقة بعد ضمها السريع لشبه جزيرة القرم في عام 2014 وحربها اللاحقة في شرق أوكرانيا. ذلك أن العتبة التي كانت تمنع روسيا من استخدام القوة العسكرية أصبحت اليوم أخفض بكثير مقارنة بما كانت عليه قبل عقد من الزمن. وبما أن السياسات المحلية غالباً ما تتشابك بشكل وثيق مع السياسة الخارجية، فمن وجهة نظر الكرملين، طالما كانت الخسائر بالحد الأدنى، يمكن أن تفيد حرب صغيرة في تحشيد الرأي العام المحلي وإشباع رغبة المجتمع في الظهور كقوة عظمى. فوفقاً لاستطلاع ليفادا عام 2017، اعتبر الروس التدخل في سورية باعتباره أهم حدث في ذلك العام. هذا وتحاول السلطات الاستفادة من الإنجازات الخارجية، حتى لو كانت أولويات المجتمع الروسي، لأسباب مفهومة، تنحو نحو الداخل.

وقد أعطت العوامل الدولية والإقليمية أفضلية لروسيا. فالانسحاب التدريجي لأمريكا من الشرق الأوسط بعد عام 2010 فتح المجال لروسيا لإقحام نفسها في المنطقة. ورغم كون بعض اللاعبين المحليين، غير مرتاحين لاحتمال الهيمنة الروسية، إلا أنهم مرتاحون لوجود

(1) «Russian Ambitions for Syrian Phosphates,» Syrian Observer, August 3, 2018. https://syrianobserver.com/EN/features/19755/russian_ambitions_syrian_phosphates.html; «Russian Firm to Take over Syria Port for 49 Years: Damascus,» Arab News, April 25, 2019. http://www.arabnews.com/node/1488161/middle-east.

(2) «Russian Investors Want to Reconstruct Damascus Airport,» Russia Business Today, January 21, 2019. https://russiabusinesstoday.com/infrastructure/russian-investors-want-to-reconstruct-damascus-airport/.

موسكو. ويشمل ذلك شركاء الغرب المحبطين من سياسات الولايات المتحدة وأوروبا. وهم ينظرون إلى روسيا على أنها ذات مصداقية، على عكس القوى الغربية، فبينما أدارت واشنطن ظهرها لمبارك في مصر عام 2011 وفشلت، بعد ذلك بعامين، في فرض خطوطها الحمراء على استخدام الأسلحة الكيماوية في سورية، هبّ بوتين لإنقاذ بشار الأسد، مثبتاً صحة التعبير الروسي «Svoikh ne sdaem» (نحن لا نتخلى عن أصدقائنا). نتيجة لذلك، أصبحت روسيا عاملاً محورياً لا يمكن الاستغناء عنه في توازن القوى في المنطقة. فإسرائيل تريد بقاء القوات الروسية في سورية كقوة موازنة لإيران. وها هي تركيا تضع قدماً عند موسكو والأخرى عند واشنطن من أجل تعظيم موقعها الاستراتيجي. أما المملكة العربية السعودية، فهي بحاجة إلى أن يحافظ الروس على استقرار أسعار النفط، رغم الخلاف المرير الوجيز في آذار/مارس 2020. تُبلي روسيا جيداً في السوق الجيوسياسي للشرق الأوسط لأنها غير مقيدة بأي التزام بالقيم والمبادئ، مهما كانت بسيطة. ورغم سجلها الباهت في مجال حقوق الإنسان، تبقى روسيا محاوراً أسهل وأكثر مرونة من الولايات المتحدة أو القوى الأوروبية.

التبعات

لكل إنجاز ثمن. وبقراءة أقرب للواقع، يبدو أن عودة روسيا إلى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بعيدة كل البعد عن كونها نجاحاً غير مشروط.

فبادئ ذي بدء، ربما تكون روسيا قد خاضت حرباً «جيدة» في سورية، ولكن لأية غاية؟، عداك عن إنقاذ الأسد ومحاربة داعش أو الجماعات المتطرفة الأخرى، تضمنت أهدافها الأولية استعادة العلاقة مع الغرب، وتخفيف العقوبات، وحصد تنازلات حول أوكرانيا. تم الآن التخلي عن معظم تلك الأهداف الجيوسياسية الواسعة. فبدلاً من ذلك، ينصب اهتمام موسكو الآن على جني الأرباح من العلاقات مع سورية وإيران وتركيا وإسرائيل واللاعبين المحليين الآخرين. وما يزال الجهد الروسي لتحقيق تسوية سياسية لإنهاء الصراع السوري متعثراً، في ظل عدم وجود خطة كبرى للشرق الأوسط لدى الكرملين. وقد أكد الرئيس بوتين في مقابلة تلفزيونية، الطابع المفتوح للوجود العسكري الروسي في سورية، مؤكداً أن القوات «ستظل هناك طالما أن ذلك يفيد روسيا»[1]. ويبدو أن القيادة في موسكو تواصل إعادة إخراج المهمة وتحريك

(1) «Direct Line with Vladimir Putin,» Kremlin.ru, June 7, 2018.
http://en.kremlin.ru/events/president/news/57692.

نقطة الهدف بحسب الديناميات على الأرض لإضفاء الشرعية على تدخلها. ولا تلوح لديها أية استراتيجية للخروج في الأفق القريب. فمن الأفضل الدخول إلى رمال الشرق الأوسط السهلة بدلاً من تركها. والجدير بالذكر أنه منذ إعلان روسيا انتصارها الأخير، في كانون الأول/ديسمبر 2017، زادت انتشار قواتها[1]. ولكن، من وجهة نظر النظام السوري، فإن هذه القوات أصبحت ذات قيمة متناقصة، ففي أوائل عام 2020، وقفت روسيا لتشاهد توجيه الجيش التركي ضربة قوية لجيش الأسد في إدلب، واكتفى بوتين في النهاية بالتوصل إلى اتفاق دبلوماسي مع أردوغان.

وما تنفك «متلازمة أفغانستان» تقيد تحركات روسيا. فالندوب التي خلفها التدخل الروسي في أفغانستان وحربا الشيشان ما تزال تثير حساسية المجتمع الروسي تجاه خسائر المعارك الهائلة. وفي حين أن الانتشار في سورية، بعيداً عن الحدود الروسية، قد عالج جزئياً خوف الروس من التمدد المفرط وهزاته الارتدادية في الداخل، إلا أن ضرورة إبعاد الأذى عن القوات الروسية ما زال اتجاهاً سائداً. لذلك تعتمد روسيا على «الحرب اللا تلامسية» من خلال سلاح الجو واستخدام المرتزقة في ساحات المعارك[2]، إلى جانب كل من حزب الله وفيلق الحرس الثوري الإيراني. هذا وتبقى أية عملية واسعة تكرر عمليات الانتشار السوفياتي في الخارج خلال الحرب الباردة أمراً غير مطروح على الطاولة.

ويمثّل الاقتصاد الروسي نقطة ضعف هو الآخر. فمع الناتج المحلي الإجمالي الذي يقارب ناتج بلد بمساحة إسبانيا تقريباً، لا تملك روسيا الاتحادية سوى القليل لتقدمه لعملائها في سبيل إعادة الإعمار بعد انتهاء الصراع وتقديم مساعدات التنمية. إذ يختلف تمويل حرب صغيرة عن تمويل إعادة التأهيل ما بعد الحرب. لذلك دأبت روسيا على الإصرار في دعوة الغرب لسحب دفتر شيكاته ومساعدة سورية في إعادة الإعمار وتأمين الاستقرار وإعادة أكثر من 5 ملايين لاجئ. وعلى غرار الروس، توقّع بشار الأسد احتياجه لمبلغ 400 مليار دولار في

(1) بين عامي 2015 و2017 أكدت روسيا رسمياً سقوط 43 ضحية، وفي الأشهر الخمسة الأولى من عام 2018، أكدت أيضاً سقوط 48 ضحية.

«Chto Izvestno o pogibshih v Sirii Rossiiskih Voennyh [What Is Known about Russian Military Who Perished in Syria],» Kommersant, May 27, 2018. https://www.kommersant.ru/doc/3460282.

(2) Kimberly Marten, «Russia's Use of Semi-state Security Forces: The Case of the Wagner Group,» Post-Soviet Affairs 35, no. 3 (2019): 181–204.

سبيل ذلك[1]. وبغض النظر عمّا إذا كان هذا الرقم واقعياً أم لا، فسيحتاج النظام إلى البحث في مكان آخر، غير موسكو وطهران، لدفع الفاتورة. وهذا سيحول التركيز إلى دول الخليج العربي ذات الجيوب الكبيرة والعلاقات الأفضل محلياً.

هذا وتفرض ندرة الموارد عامل ضغط إضافي على الإنفاق الدفاعي الروسي. وما تزال قدرات الحرب الاستكشافية في البلاد تتعرض لكثير من الضغوط، وهي شرط أساسي لاستمرار وجودها في الشرق الأوسط، فقد أزال برنامج التسلح الحكومي للفترة 2018-2027 أولوية بناء أسطول المياه الزرقاء (عدا الغواصات) لأسباب تتعلق بالتكلفة. فبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، لم تعوّض صناعة الدفاع الروسية نقص الخبرات اللازمة لبناء سفن حربية كبيرة ذات نطاق عمليات واسع[2]. كما أدت العملية في سورية إلى تحويل الأموال بعيداً عن تحديث الجيش، وليس ثمة أي استثمار يذكر، رغم الحاجة الماسة إليه، في مجالات التعليم والبنية التحتية ورأس المال البشري.

وفي كثير من الأحيان، تبدو الدبلوماسية الاقتصادية الروسية واعدة على الورق أكثر منها على أرض الواقع. وكما جرت العادة، تدعم الدولة الروسية مشاريع Rosatom النووية في الخارج بقروض. ولكن خلال مفاوضاتها مع الأردن بشأن تركيب مفاعلين بحلول عام 2022، طلبت موسكو من العملاء جمع الأموال من التجار المقرضين. نتيجة لذلك، انهارت خطط Rosatom للتوسع في الأردن. وعلى المنوال نفسه، تهدف مغازلة روسيا لدول الخليج فيما يتعلق بالمشاريع الاستثمارية المشتركة إلى تعويض ضآلة تدفق الاعتمادات والقروض من الغرب نتيجة العقوبات. وقد ساعد النجاح في تأمين استقرار أسواق النفط،

(1) «Assad Otsenil Zatraty na Vosstanovlenie Siriiskoi Ekonomiki v 400 Milliardov Dollarov» [Assad Estimated Syria Will Need $400 billion to Rebuild Its Economy],» Novaya Gazeta, April 15, 2018.
https://www.novayagazeta.ru/news/2018141010-/15/04/asad-otsenil-zatraty-na-vosstanovlenie-siriyskoyekonomiki-v-400-milliardov-dollarov.

(2) Olga Bozhieva, «Ekspert Rasskazal Kakoi Budet Rossiiskaya Armiya Cherez Desyati Let [Expert Told How Russian Army Will Look Like in 10 years-time],» Moskovskii Komsomolets, July 1, 2018.
https://www.mk.ru/politics/201801/07//ekspert-rasskazalkakoy-budet-rossiyskaya-armiya-cherez-desyat-let.html.

من خلال تعاونها مع أوبك، الحكومة الروسية على موازنة الميزانية. رغم أن ذلك قد يعيق أيضاً إجراء إصلاحات هيكلية لصالح النمو على المدى الطويل. خاصة بعد أن ثبت أن بعض إنجازاتها في سوق النفط لم تدم طويلاً. ويعد انهيار أسعار النفط في أوائل عام 2020 أفضل مثال على ذلك.

وكان للتدخل في سورية تكاليفه السياسية أيضاً؛ إذ لم تؤد الإجراءات الروسية إلا إلى التشدد في عزم بعض الدول عدم تخفيف العقوبات عن موسكو، بل شجعتها على فرض قيود جديدة. هذا وتشير استطلاعات الرأي إلى أن سكان الشرق الأوسط ليسوا مفتونين بروسيا أيضاً[1]. وقد أدى الدرع الدبلوماسي الذي وفّره بوتين لنظام الأسد في الأمم المتحدة على أعقاب الهجمات الكيماوية إلى نفور الرأي العام في المنطقة منه. وقد يؤدي السخط الشعبي وضغط الشارع العربي، الذي تمت تجربته سابقاً، إلى تغيير مسار العلاقات مع روسيا. فعند ظهور أولى علامات الضعف، قد تجد موسكو نفسها فجأة خارج السباق، كما حدث خلال الحرب الباردة. وحتى العلاقات الحميمة مع إسرائيل قد لا تدوم إلى ما بعد فترة ولاية بوتين، بالنظر إلى استثماره الشخصي في هذه العلاقة.

أخيراً وليس آخراً، فقد تبع اندفاع روسيا إلى المنطقة تراجع الغرب منها. فعندما شنّ الكرملين عمليته العسكرية في سورية كان يأمل إطلاق تحالف مناهض للإرهاب مع الولايات المتحدة، على غرار ما حدث في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وبرغم ردّ ترامب الودي، كمرشح رئاسي شغل المكتب البيضاوي لاحقاً، إلا أن هذه الآمال تبددت في النهاية. ولأول مرة منذ انتهاء الحرب الباردة، تجد روسيا والولايات المتحدة نفسيهما في مواجهة عسكرية مباشرة عندما هاجم المرتزقة الروس مشاة البحرية الأمريكية بالقرب من دير الزور في شباط/فبراير 2018. وبدلاً من إعادة إحياء العلاقات مع الغرب، أدى التدخل الروسي إلى إشعال توترات جديدة. وتحظى روسيا بالتأكيد باحترام أكبر الآن، لكن ما زال لدى الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين أوراقاً جيوسياسية رابحة.

(1) Pew Research Center, «Publics Worldwide Unfavourable toward Putin, Russia,» Global Attitudes & Trends, August 16, 2017.
http://www.pewglobal.org/201716/08//publics-worldwide-unfavorable-toward-putin-russia/.

المرحلة القادمة

أظهرت الحرب الباردة مدى تقلب ميزان القوى في الشرق الأوسط. وقد أضرّت التحولات السياسية في الماضي بكل من الولايات المتحدة وروسيا. وكما قال مارك توين، حتى لو لم يُعِد التاريخ نفسه بالكامل، فإنه غالباً ما يسري على نحو مشابه.

على المراقبين أن يأخذوا نجاح صعود روسيا في المنطقة بجدية. فقد أظهر الكرملين رشاقة ومهارة في كسب النفوذ بتكلفة متواضعة نسبياً. وإلى أن يثبت خطأ تصور هذا النجاح، ستظل موسكو مستمرة في النهج الذي يجمع بين الدبلوماسية والقوة العسكرية. ومن الواضح أن سلسلة الأزمات والحروب المحلية التي لا تنتهي أبداً ستستمر في منح روسيا فرصاً لتعزيز موقفها. وعلى الرغم من أن روسيا قد لا تكون قادرة على نشر قوات برية على نطاق واسع في الشرق الأوسط، إلا أن برنامج اقتناء الأسلحة الخاص بها حتى عام 2027 يكشف عن جهودها لتعزيز قدرات إسقاط القوى الجوية (على سبيل المثال، طائرات النقل والتزود الجوي بالوقود، والطائرات الهجومية الثقيلة من دون طيار، ونظام الطائرات ذي الإنذار المحمول جواً). من المتوقع أن تزيد روسيا من تواجدها في سماء الشرق الأوسط. وإذا فشلت القوات الجوية الروسية في إقناع خصومها أو ترهيبهم، فإن «أسطول البعوض» المسلح بصواريخ كروز بعيدة المدى سيكون قادراً على إيصال الرسالة إلى أقصى زاوية في المنطقة. بشكل عام، سيكون لروسيا قدرة أعلى على تكاليف معارضة القوى، الإقليمية منها أو العظمى، التي قد تتعارض تحركاتها مع مصالح موسكو. لذلك، لا بد من أخذ اندفاع روسيا بعين الجد، لا بل وإعادة تقييمه باستمرار.

في الوقت نفسه، فمن الخطأ المبالغة في تقدير قدرة روسيا على الحفاظ على تواجدها وتأثيرها على سياسة المنطقة. فقد أظهرت روسيا عدم رغبتها في تغيير النظام في سورية. كما أنها ساعدت في إطالة حياة الأسد السياسية. لكن القول بأن روسيا ستطبق المبدأ نفسه في جميع أنحاء المنطقة سيكون مغلوطاً للغاية؛ إذ لا يملك الكرملين لا الإرادة ولا الوسائل اللازمة للعب دور شرطي الشرق الأوسط. وصحيح أن روسيا قد أبدت استياءها من الاحتجاجات الجماهيرية التي اندلعت في الجزائر عام 2019 (زبون رئيس للسلاح الروسي) واستقالة حاكم البلاد عبد العزيز بوتفليقة، لكنها تصرفت بضبط نفس وأدركت بسرعة عدم قدرتها على منع الانتقال الديمقراطي السلمي. ولحسن حظ روسيا، استطاع النظام السياسي في الجزائر إعادة

إنتاج نفسه، ما منح موسكو فرصة للحفاظ على نفوذها في هذا البلد. لكنه كان بمثابة نداء تحذير. فلو تكرر الربيع العربي لعام 2011، بعد تعلم النشطاء من الدروس المستفادة من محاولات الانتقال السياسي الفاشلة، فسيحدّ ذلك من فرص روسيا في تحويل الأزمات إلى نفوذ إقليمي.

هذا ويمكن أن يؤدي الاستياء الشعبي المتأجج داخل روسيا، معززاً بتأثيرات كوفيد-19 على الاقتصاد الوطني، إلى تقويض طموحات السياسة الخارجية الروسية. ومع غياب فرص التحول الجذري على غرار التسعينيات، احتشد الرأي العام في روسيا حول قضايا متعددة: إصلاح نظام التقاعد، والمساحات الخضراء، ومقالب القمامة، والاعتقالات التعسفية، واحترام الحقوق الانتخابية. ولتلك آثار مباشرة على آراء الروس المتعلقة بالشؤون الدولية. ووفقاً لأحد استطلاعات الرأي، فقد ارتفعت نسبة أولئك الذين يعتقدون أن الحكومة تمضي الكثير من الوقت في تدبير السياسة الخارجية من 25 % إلى 33 % بين عامي 2017 و2019. وفي الوقت نفسه، انخفضت نسبة المواطنين الذين يرون أن الدولة حققت نجاحاً في الخارج من 60 % إلى 48 %[1]. هذا وتعتقد الأغلبية (55 %) أنه سيتم إنهاء العملية في سورية، مقارنة بـ 49 % عام 2017[2]. بعبارة أخرى، إن السياسة الخارجية آخذة بالتحول، تدريجياً ولكن باطّراد، إلى كونها عبء، بدلاً من كونها مصدر شرعية للحكومة كما كانت في الماضي القريب. ولكن لنكون منصفين، يتمتع الكرملين بسجل جدير بالإعجاب في التلاعب بالرأي العام، وقد ينجح هذه المرة أيضاً. ومع ذلك، فمع تزايد مظاهر الاستياء العام وقرب انتهاء ولاية بوتين في عام 2024، ستتعرض القيادة لضغوط لتخصيص المزيد من الاهتمام والموارد لقضايا أقرب إلى الوطن، بدلاً من إدارة العداء بين إيران وإسرائيل، وإعادة بناء سورية، أو التدخل في ليبيا. نتيجة لذلك، قد تبعد روسيا عينيها مؤقتاً عن الشرق الأوسط وشمال إفريقيا – وقد يصل بها الأمر إلى الانسحاب من المنطقة بهدوء.

(1) Pavel Aptekari, «Kak Rossiane Ustali ot Vnesheni Politiki [How Russians Got Tired of the Foreign Policy],» Vedomosti, June 21, 2019.
http://www.vedomosti.ru/opinion/articles/2019804715-/21/06/rossiyane-ustali.

(2) «Sobytia v Sirii [Events in Syria],» Levada-Center, May 6, 2019.
http://www.levada.ru/201906/05//sobytiya-v-sirii/.

ناقش المؤلف الدروس المستقاة من طريقة تعامل روسيا مع (داعش) وكيفية صناعة رواية تمجّد جهودها وترمي بالمسؤولية الكاملة على الدعم الغربي المزعوم للتنظيمات الإرهابية، وتحويل كل ذلك لتعزيز حجّتها وبناء أكبر حالة معادية للغرب في المنطقة وللتقليل من تعقيدات حربها في سوريا. كما ربط دورها المتعاظم في الشرق الأوسط بعلاقتها مع "محور المقاومة" الذي تقوده طهران، والذي يمتد من لبنان إلى إيران، فقد وجد الطرفان إن مصلحتهما تقتضي التنسيق والاشتراك في صنع القرارات، فبينما تحقق روسيا طموحاتها في الظهور كقوة عظمى والتصدي للنظام العام العالمي يركّز الآخرون على ضمان أمنهم الإقليمي.

ولم يغفل الكاتب عن التطرق بتقرير مفصّل وواقعي إلى الروابط الروسية مع الكيان الإسرائيلي، فعلى الرغم من الخلافات الجادة بينهما حول قضايا معينة (وخاصة إيران) فإنه أثبت أن البلدين أبديا الاستعداد لمواصلة التعاون الثنائي على نطاق واسع في المجالات الاقتصادية والعسكرية والاستخباراتية والمجتمعية والسياحية، مما منحهما مرونة أكثر للتعامل مع سرعة التحولات في مسارات وسلوكيات الدول المجاورة، ومناورة أسرع تجاه المستجدات وتوازن المصالح.

ويمكن القول إن مطالعة كتاب قيّم كهذا تضيف معلومات متنوعة وغزيرة للقارئ عن كيفية ترسيخ روسيا نفسها بقوة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وتوسيع بصمتها في السياسة والدبلوماسية والشؤون العسكرية والاقتصادية برغم العقبات والقيود، من خلال تحقيقها المكاسب في مجالات النفط والغاز وأسواق الأسلحة، مما سمح لها بجني الأرباح من اللاعبين المحليين واحتمالية توسع أفضليتها في المرحلة القادمة.





www.alrafidaincenter.com
info@alrafidaincenter.com
009647826222246
ص.ب. 252
العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغداد - الجادرية - تقاطع ساحة الحرية